الجامعـــــــــة الإســـــلاميـة بغـــزة
عمادة البحث العلمي والدراســـات العليا
كـــــــــلـــــيــــــــــة الآداب
مـــاجســــتـــيـــر تـــاريــــــــخ



The Islamic University of Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Arts
Master of History

أسباب النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهد الظاهر بيبرس

(658-676هـ / 1260-1277م)

Reasons for Victory and Empowerment of the Mamluk State during the Reign of Al-Zahir Baibars

(658-676AH / 1260-1277AD)

إِعْدَادُ الْبَاحِثِ

فهد حمدان شعبان العربيد

إِشْرَافُ الدُّكْتُور

غسان محمـود أحمـد وشـاح

قُدمَ هَذا البحثُ اِستِكمَالاً لِمُتَطلباتِ الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الْمَاجِستِيرِ
فِي التَّاريخِ الإِسلْامِيّ بِكُليةِ الآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الإِسلامِيةِ بِغَزة

شعبان 1441هـ / إبريل 2020م

إقـــــــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

أسباب النصر والتمكين للدولة المملوكية
في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ
(658-676هـ / 1260-1277م)

Reasons for Victory and Empowerment of the Mamluk State during the Reign of Al-Zahir Baibars

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	**فهد حمدان شعبان العربيد**	**اسم الطالب:**
Signature:		التوقيع:
Date:	2020/ /	التاريخ:





الجامعة الإسلامية بغزة
The Islamic University of Gaza
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
هاتف داخلي: 1150

الرقم ج س غ/35/ Ref
التاريخ 2020/04/08م Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **فهد حمدان شعبان العربيد** لنيل درجة الماجستير في كلية **الآداب**/ برنامج **التاريخ** وموضوعها:

أسباب النصر والتمكين للدولة المملوكية
في عهد الظاهر بيبرس
(658هـ -676هـ/ 1260م-1277م)

Reasons of Victory and Empowerment of the Mamluk State under the Reign of Al-Zaher Baybars
(AH/ 1260 - 1277 AD 676 - 658)

وبعد المناقشة التي تمت اليوم **الاربعاء 14 شعبان 1441هـ** الموافق **2020/04/08م** الساعة **الثانية عشرة مساءً**، في **قاعة اجتماعات كلية الآداب** اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. غسان محمود وشاح	**مشرفاً ورئيساً**	....
د. إبراهيم أحمد أبو شبيكة	**مناقشاً داخلياً**	....
د. مروان سالم نوري الصالحي	**مناقشاً خارجياً**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية الآداب/برنامج التاريخ.**

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا



أ. د. بسام هاشم السقا

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine Tel: + 970 (8) 264 4400 هاتف Fax: + 970 (8) 264 4800 فاكس ص.ب. 108 الرمال. غزة. فلسطين
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

دكتوراه ☐	ماجستير ☑	عربي	اللغة	236908	الرقم العام للنسخة

التاريخ: 2020/04/22م

الموضوع/ استلام النسخة الإلكترونية لرسالة علمية

قامت إدارة المكتبات بالجامعة الإسلامية باستلام **النسخة الإلكترونية** من رسالة

للطالب/ة/ فهد حمدان العربيد

رقم جامعي: **120160101** قسم: التاريخ كلية: الآداب

وتم الاطلاع عليها، ومطابقتها بالنسخة الورقية للرسالة نفسها، ضمن المحددات المبينة أدناه:

- تم إجراء جميع التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة.
- تم توقيع المشرف/المشرفين على النسخة الورقية لاعتمادها كنسخة معدلة ونهائية.
- تم وضع ختم "عمادة الدراسات العليا" على النسخة الورقية لاعتماد توقيع المشرف/المشرفين.
- وجود جميع فصول الرسالة مجمَّعة في ملف (WORD) وآخر (PDF).
- وجود فهرس الرسالة، والملخصين باللغتين العربية والإنجليزية بملفات منفصلة (PDF +WORD).
- تطابق النص في كل صفحة ورقية مع النص في كل صفحة تقابلها في الصفحات الإلكترونية.
- تطابق التنسيق في جميع الصفحات (نوع وحجم الخط) بين النسخة الورقية والإلكترونية.

ملاحظة: ستقوم إدارة المكتبات بنشر هذه الرسالة كاملة بصيغة (PDF) على موقع المكتبة الإلكتروني.

والله ولي التوفيق،

توقيع الطالب ....

إدارة المكتبة المركزية ....

ملخص الرسالة

جاءت هذه الدراسة بعنوان: اسباب النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ (658–676هـ / 1260–1277م) وهي توضح مدى الإنجاز الذي حققه الظَّاهِر بِيبَرْسُ في إنشاء الدولة المملوكية، وإرساء أركانها، رغم ما أحاط بها من أخطار داخلية وخارجية، فَمهدتُ للدراسة بفصل تمهيدي، تَحدثتُ فيه عن نشأة وتعريف دولة المماليك، ودور وحياة الظَّاهِر بِيبَرْسُ في الدولة المملوكية والأيوبية، ونسبه، ونشأته، وصفاته، وكيفية وصوله للحكم.

وتلا الفصل التمهيدي الفصل الأول، وكان بعنوان:

الأسباب الإيمانية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وقسَّمته إلى مبحثين: المبحث الأول: صفات الظَّاهِر بِيبَرْسُ الإيمانية، والمبحث الثاني بعنوان: حماية المذهب السنِّي ومحاربة المذاهب الأخرى والحفاظ على المجتمع الإسلامي.

ثم تطرقت إلى الفصل الثاني، وكان بعنوان:

الأسباب الإدارية والحضارية والسياسية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وقسَّمته إلى ثلاثة مباحث، المبحث الأول: المنظومة الإدارية السليمة، والمبحث الثاني: الاهتمام بالحركة العمرانية، والمبحث الثالث: الإدارة السياسية الحكيمة.

وانتهت الدراسة بذكر الفصل الثالث، وهو بعنوان:

الأسباب العسكرية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وانقسم إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول: حماية الأمن الخارجي والاستقرار الداخلي، وجاء المبحث الثاني: التخطيط العسكري، والمبحث الثالث: الجهاد العسكري على الثغور "فتح أنطاكية نموذجاً".

Abstract

This study titled ‘Reasons for Victory and Empowerment of the Mamluk State during the Reign of Al-Zahir Baibars (658-676AH / 1260-1277AD)’ to explain the extent of the great Islamic achievement achieved by Al-Zahir Baibars in establishing the Mamluk State and laying its foundations, despite the surrounding internal and external dangers. The study began with an introductory chapter which talked about the origins and definition of the Mamluk state, the role and life of Al-Zahir Baibars in the Mamluk and Ayyubid state, his lineage, upbringing and characteristics, and how he came to power.

The first chapter was titled ‘Faith-based Reasons for Victory and Empowerment of the Mamluk State during the Reign of A-Zahir Baibars’, and was divided into two topics: the first topic addressed the faith characteristics of Al-Zahir Baibars, and the second topic was entitled ‘Preserving the Sunni Sect and Fighting Other Sects .’

Then in the second chapter, which is titled ‘The Administrative, Civilizational and Political Reasons for the Victory and Empowerment of the Mamluk State during the Reign of Al-Zahir Baibars’, the researcher divided it into three topics; the first topic addressed the sound administrative system, the second topic looked into the civilizational fabric, and the third topic dealt with good political management.

The study concluded with the third chapter which is entitled ‘The Military Reasons for the Victory and Empowerment of the Mamluk State during the Reign of Al-Zahir Baibars’. It was divided into three topics: the first topic discussed the protection of external security and internal stability, the second topic addressed the military planning, and the third topic examined military Jihad on the Frontiers: The Opening of Antioch as a Model."



قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: 162].

إهداء

- إلى من هداني إلى طريق القلم والبندقية.
- إلى كل من ضحى من أجل الإسلام وفلسطين والقدس والهوية.

أهـدي هـذا العمـل المتواضـــع

سائلاً المولى عـزَّ وجَل أن يتقبلـه منـّي

وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة



الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه الكريم وعظيم سلطانه القديم، فهو الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله الرسول الأمين وخاتم النبيين والمرسلين.

أتقدم في البداية، وقبل كل شيء، بالشكر والعرفان لوالدتي الحبيبة التي أنشأتني هي ووالدي "رحمه الله" على حُب العلم وتمنيا لي منذ الصغر أن أحوز أعلى الشهادات، وربياني على ذلك، ووفرا لي كل ما يلزم من أجل ذلك، وكذلك الشكر موصول لزوجتي وأبنائي الذين تحملوا انشغالي في إعداد الرسالة.

كما وإني أتقدم بالشكر والاعتراف بالفضل لكل من دعمني، وبذل لي النصح من أجل إتمام هذه الرسالة وأخص بالذكر أستاذي الدكتور الفاضل/ **غسان محمود وشاح**، والذي تشرفت بقبوله الإشراف على أُطروحتي، كما يسعدني ويشرفني أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى عُضوَيّ لجنة المناقشة: الدكتور الفاضل/ **إبراهيم احمد أبو شبيكة**... مناقشاً داخلياً. والدكتور الفاضل/ **مروان سالم نوري الصالحي**... مناقشاً خارجياً، لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، فبارك الله فيهم على ما بذلوه من نصح وإرشاد وجهد لإتمام هذه الرسالة.

كما لا أنسى في هذا المقام التقدم بالشكر لأخي الحبيب الأستاذ/ **غازي علي لبد** والذي لم يبخل عليَّ بتوجيهاته ونصائحه، وتوفير بعض المصادر والمراجع، والدعاء لي، فجزاه الله كل خير.

والشكر موصول لكل من ابن شقيقتي حبيب القلب الأستاذ/ **سيف الله يوسف العربيد،** والذي قام بتصميم الخرائط الجغرافية المحوسبة من خلال استخدام برنامج الرسم والتصميم الفوتوشوب، وبرنامج نظام الـ GIS المتقدم، وابني الغالي/ **إسماعيل فهد العربيد** لترجمته ملخص الدراسة للغة الإنجليزية، فبارك الله فيهما على ما بذلاه من وقت وجهد.

والشكر للأستاذ/ **أحمد حمادة** الذي قام بطباعة الرسالة وإخراجها على أكمل وجه، والشكر أيضاً لكل من ذكرني بدعوة في ظهر الغيب، وهم كُثُر، لا يتسع المقام لذكرهم فلهم مني كل الحب والدعاء كلٌ باسمه ولقبه، فجزاهم الله عني كل خير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

فهد حمدان شعبان العربيد

فهرس المحتويات

الرموز والاختصارات

الرموز التالية تعني ما يلي:

الرمز	المعنى	الرمز	المعنى
ت	توفي	مج	مجلد
تح	تحقيق	د.ن	دون دار نشر
ج	جزء	هـ	هجري
د.ت	دون تاريخ	د.م	دون ذكر المدينة التي نُشر فيها الكتاب
ص	صفحة	د.ط	دون طبعة
ط	طبعة	P	صفحة
ق	قسم	PP	الصفحات
قـ	قرن	Vol.	جزء
ع	عدد	bid	المصدر السابق

المقدمة

لعبت الدولة المملوكية دوراً مهماً في التاريخ الإسـلامي والإنساني، فشكلت الدرع الحصين للأمة الإسلامية في مواجهة الأخطار التي كانت تحاصرها من جميع الجهات، فنجحت تلك الدولة في وقف الزحف المغولي الذي اجتاح أغلب البلاد الإسلامية، وذلك رغم حداثة إنشاءها وبداية تكوينها، إلا أنها استطاعت أن تقوم بما لم تقم به الإمبراطوريات العظمى، حيث خضعت دولة خوارزم شاه القوية والواسعة للمغول، ووقعت تحت سيطرتهم، وأبيد أهلها، ونزع سلطانها، ولحقت بها الخلافة العباسية التي امتدت لأكثر من خمسة قرون فدخل المغول عقر دارها، وقتلوا خليفتها وقادتها، وأبادوا سكان عاصمتها بغداد، وكذلك لم تسلم الدولة الأيوبية من هذا الزحف، فقد دخل المغول المدن الشامية التي كانت تتبع للدولة الأيوبية، فدخلوا حلب وحمص ودمشق وغيرها من المدن، وعند ذلك أخذت الدولة المملوكية دورها في صد هذه الهجمة الهمجية ونجحت في وقف هذا الزحف، وتحرير بلاد الشام، وذلك بعد معركة عين جالوت الخالدة، والذي لعب فيها القائد العسكري المجاهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ دوراً كبيراً، وأوصل الدولة المملوكية بالاشتراك مع السلطان قطز إلى بر الأمان.

وبعد انتهاء هذه المعركة الخالدة ومقتل السلطان قطز استلم الظَّاهِر بِيبَرْسُ دولة حديثة النشأة تحيط بها التحديات من كل جانب، وتفتقر إلى الكثير من عوامل القوة والتمكين، إلا أنه لم يكتف بوراثة هذه الدولة الضعيفة، بل قام بتقويتها وتنظيمها، ووصل بها إلى مراتب عليا، حتى أصبحت جميع الممالك الأخرى تهابها وتحسب لها ألف حساب.

ولاشك أن هناك العديد من العوامل التي ساعدت الظَّاهِر بِيبَرْسُ للوصول إلى هذا التمكين، فقد لعبت شخصيته دوراً مهماً في هذا الأمر، حيث امتازت هذه الشخصية بصفات إيمانية عظيمة كان له الأثر الجميل في حياة الظَّاهِر ودولته، وكذلك لعبت صفات الظَّاهِر الشخصية دوراً في تحقيق النصر والتمكين، كيف لا وهو القائد العسكري الفذ صاحب الهمة العالية، رجل المهمات الخاصة، ورجل الجهاد الأول الذي لم يتوقف عن الغزو والجهاد في سبيل الله طوال فترة حياته وحكمه، حتى قبل مماته بأسابيع قليلة عندما عاد من معركة مع المغول، وهزمهم فيها هزيمة نكراء.

وكذلك كان للأسباب الدّينية والحضارية والسياسية أثر كبير ودور مهم في تحقيق النصر والتمكين للظاهر بِيبَرْسُ، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وأزال الخبائث، وبنى الطرقات، وعَمَّرَ القلاع، وأنشأ الأحلاف الإسلامية، وناصر المسلمين في كل مكان.

أهمية الدراسة:

ويمكن تلخيص أهمية الدراسة في النقاط التالية:

1. ندرت الدراسات التي تناولت موضوع الدراسة بشكل محدد، وذلك مع كثرة الدراسات التي تحدثت عن حياة الظَّاهِر بِيبَرْسُ بشكل عام.
2. إظهار النهضة السياسية والعسكرية والعلمية التي حدثت في عصر الظَّاهِر بِيبَرْسُ في مصر تحديداً، والتي ساعدت على تحقيق النصر والتمكين، وإيجاد بيئة آمنة للعلماء المسلمين للانطلاق من جديد، بعد توقف النهضة الإسلامية؛ بسبب سقوط بغداد لسنوات عديدة.
3. إظهار الدور الكبير الذي قامت به دولة المماليك من أجل الحفاظ على الدولة الإسلامية المستقلة، والوقوف في وجه المغول والصليبيين الذين حاولوا إنهاء الوجود الإسلامي بشتى وأبشع الطرق.
4. الحاجة الماسة لدراسة العوامل التي أوصلت المسلمين للنصر والتمكين، والظهور على أعدائهم في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، من اجل الاستفادة منها في عصرنا الحديث، ومحاولة استنساخها وتحديثها، لكي تعود الأمة لأمجادها، وتنفي التبعية والانحدار.
5. الاستفادة من تلك الأحداث التاريخية لتقديم رؤية واضحة، بإعداد سياسات وخطط وبرامج عمل صالحة للتطبيق يحتذى بها لإعادة وحدة الأمة ولم شملها في العالم المعاصر، وتحقيق النصر.
6. إظهار النماذج الإسلامية الناجحة في الحكم، القادرة على إقامة الدولة القوية المنافسة للدول الغربية، وإيضاح أن هذه النماذج نجحت في تطوير وفرض نفسها، رغم تمسكها بالدّين الإسلامي الحنيف، وهو ما يُرد على القائلين بأن الدّين الإسلامي يقف في وجه نهضة الدول وتطورها.

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

حدود الدراسة:

الحد الزماني: تبدأ الدراسة من سنة (658هـ – 1260م)، وهو العام الذي تولي فيه الظَّاهِر بِيبَرْسُ مقاليد الحكم في الدولة المملوكية، وتنتهي في العام (676هـ–1277م)، وهو العام الذي توفي فيه الظَّاهِر بِيبَرْسُ.

الحد المكاني: مصر، وبلاد الشام.

خطة الدراسة:

قسم الباحث الدراسة إلى مقدمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول رئيسية وخاتمة، وأورد الباحث عدداً من الملاحق بالإضافة إلى سرد المصادر والمراجع، حيث تضمنت المقدمة نبذة مختصرة عن الموضوع وأهميته، والمنهج المتبع في الدراسة، وقد جاءت تقسيمات الفصول كما يلي:

- **الفصل التمهيدي:** تعريف عام بدولة المماليك، وقد تناولتُ فيه التعريف بدولة المماليك، ثم ذكرتُ تعريفاً بالظَّاهِر بِيبَرْسُ ودوره وحياته في الدولة الأيوبية والمملوكية، وكيفية وصوله للحكم.
- **الفصل الأول:** فقد تحدث عن الأسباب الإيمانية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وقد تناولت صفات الظَّاهِر بِيبَرْسُ الإيمانية، سواء عن أحواله الصالحة، أو أعماله الصالحة، ثم ذكرت دوره في الحفاظ على المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، وكذلك القضاء على الجماعات الضالة: "الإسماعيلية".
- **الفصل الثاني:** فقد تحدث فيه عن الأسباب الإدارية والحضارية والسياسية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وقد تناولت المنظومة الإدارية السليمة في إدارته للدولة، وذكرت الاهتمام بالبنيان الحضاري الإسلامي، وحسن التدبير السياسي في إدارته للدولة.
- **الفصل الثالث:** فقد تحدثت فيه عن الأسباب العسكرية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وقد تناولت حماية الأمن والاستقرار الداخلي للدولة، والتخطيط والإعداد العسكري، من انتخاب قادة، واستنفار جيوش، ومحاربة أعداء الإسلام وإذلالهم، ثم ختمت دراستي بذكر فتح أنطاكية، والتي كانت تتويج لجهاد وجهود الظَّاهِر بِيبَرْسُ

في دحر الصـليبيين من الشـام، فذكرت الأحداث التي سـبقت الفتح ومهدت له، وسـير أحداثها بالتفصيل، ومؤهلات النصر والتمكين فيها.

- **الخاتمة:** فقد احتوت على أهم النتائج التي توصـلت إليها الدراسـة، ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع، ثم مجموعة من الملاحق المهمة.

الدراسات والمراجع السابقة:

هناك بالتأكيد ندرة لدى المكتبة العربية في التخصص في هذا الموضوع، وهذا مما لا شك فيه من الأسباب التي دفعت الباحث لاختيار هذا الموضوع؛ لأهميته، ولإثراء المكتبة العلمية التاريخية به، بأسلوب يجمع ما بين التربية الدّينية، والحقيقة التاريخية، والمنهجية العلمية، في أسرة إسلامية متميزة كان لها دور ريادي، وحضاري، وعسكري على مستوى العالم الإسلامي، وبخاصة مصر، وبلاد الشام

ومن أهم الدراسات التي تناولت الموضوع أو جزءاً من جوانبه ما يلي:

1- **كتاب بعنوان: سـيرة الملك السـلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ** (658-676هـ/1260-1277م) للكاتب: ميخائيل نجم خوري، لبنان، سـنة النشـر (1961م)، فقد قام الباحث بذكر سـيرة السـلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ من كل جوانبها، أما هذه الدراسـة فقد تناولت عوامل النصـر والتمكين للـدولـة المملوكيـة في عهـد الظَّـاهِر بِيبَرْسُ، وركزت على العوامـل الـدّينيـة، والحضارية، والإدارية، والسياسية والعسكرية.

2- **كتاب بعنوان: الظَّاهِر بِيبَرْسُ وحضارة مصر في عصره،** تأليف: محمد جمال الدّين سرور، القاهرة، دار الكتب المصرية، سنة النشر (1938م)، حيث تناولت الدراسة ظهور المماليك في مصـر، والعوامل التي أدت إلى انتقال الحكم من أيدي الأيوبيين إلى المماليك، وكيف ظهر بِيبَرْسُ على مسرح السياسـة المصـرية بقوة دهائه وحسـن سياسـته وبعد نظره وثاقب فكره، وكيف أحيى الخلافة الإسـلامية من مصـر، وكذلك تحدث عن علاقات مصـر الخارجية في عصـر الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وكذلك تحدث عن نظام الحكم وجهاد الظَّاهِر بِيبَرْسُ في تلك الفترة، وقد اسـتفاد الباحث من هذه الدراسـة من جميع جوانبها اسـتفادة جيدة، وقام بالبناء عليها فيما يخص عنوان الدراسـة: أسـباب النصـر والتمكين، من الجوانب التي تَعرضت له الدراسة.

3- **كتاب بعنوان: حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ الأسـد الضـاري قاهر التتار ومدمر الصـليبيين،** تأليف: محمود شلبي، بيروت، دار الجيل، سنة النشر (1992م).

حيث تناول الكتاب أصل المماليك، وتحدث عن جهاد الظَّاهِر بِيبَرْسُ في كل مراحله، وتصديه للتحديات الداخلية والخارجية، وعن عبقريته في الحكم والسياسة، وعن وفاته، وامتازت هذه الدراسة بعنصر مقارنات، سواء أكان أحداثاً أم أشخاصاً؟، وكان التحليل حاضراً، وعليه كان لهذا الأسلوب في المقارنة والتحليل أثر جيد في استفادة الباحث في دراسته: أسباب النصر والتمكين، وانعكس انعكاساً إيجابياً على موضوع الدراسة.

المشكلات والصعوبات التي واجهها الباحث:

يمكن تلخيص المشكلات والصعوبات التي واجهها الباحث في النقاط التالية:

1. تشابك المعلومات والآراء في مصادر الدراسة ومراجعها أحياناً، وتضاربها أحياناً أخرى، وتباينها، وقد قام الباحث بتحليل هذه المعلومات من خلال البحث المنهجي.
2. موضوع الدراسة وهي الدولة المملوكية، موضوع كبير وعصر مليء بالتغيرات وهو تاريخ متحرك.
3. استخدم الباحث الطرق الحديثة في رسم الخرائط وإسقاط مادة البحث عليها مستخدماً برنامج الفوتوشوب، والـGIS، وهذا احتاج لجهد ووقت كبير ، والاستعانة بأهل الاختصاص من أجل تحقيق التوافق الموضوعي للبحث قيد الدراسة.

الفصل التمهيدي:

التعريف بدولة المماليك والظَّاهِر بِيبَرْسُ

الفصل التمهيدي: التعريف بدولة المماليك والظاهر بيبرس

المبحث الأول:

التعريف بدولة المماليك

أولاً: أصل المماليك ونسبهم ونشأتهم:

كلمة "مماليك" لغة: جمع مملوك، وهو الرقيق الذي يُباع ويُشترى، والمملوك اسم مفعول من الفعل ملك، واسم الفاعل مالك، والمملوك هو عبد مالكه، وسُمّوا رقيقاً لأنهم يَرِقّون لمالكهم، ويَذِلُّون ويخضعون له[1].

أما اصطلاحاً: فهو ما عرف عند المسلمين بالرقيق الأبيض، والذين كانوا يُجلبون من بلاد ما وراء النهر[2] غالباً نتيجة الحروب، ويباعون في سوق النخاسة للحكام، لاستخدامهم لأغراض عديدة، كان أهمها إعدادهم كمحاربين[3].

وأصل المماليك من أجناس مختلفة، منهم: التركي كالظَّاهِر بِيبَرْسُ، والجركسي كالأشرف قايتباي، والتتري كالعادل كتبغا، والقفجاقي[4] كالمنصور قلاوون، والهندي كالْأَمِيرُ جوهر التركماني والرومي كالظَّاهِر تمربغا، وأكثر الأجناس كان منها: المماليك التركية والجركسية[5].

ولم تكن أسماؤهم تنسب إلى آبائهم وأجدادهم، لأن نسبهم مجهول نتيجة سبيهم في الحروب، وكانوا ينسبون إلى غير آبائهم، وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء، فيقال مثلاً: شيخو الناصري، نسبه إلى الناصر حسن حفيد قلاوون، لأن شيخو من مشترياته ومعتوقيه، أو ينسب إلى مَن باعه من التجار مثلاً: "برقوق العثماني" نسبه إلى الخواجا العثماني

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج298/6)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج370/1-371).

(2) بلاد ما وراء النهر: "بلاد ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربية فهو خراسان وولاية خوارزم، وخوارزم ليست من خراسان إنما هي إقليم برأسه. الحموي، معجم البلدان، (ج45/5).

(3) الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي في عصر المماليك (ص20).

(4) القبشاق أو القفجاق: إقليم في الجنوب الشرقي من روسيا الحالية، ويشمل حوض الفلجى والأراضي الواقعة حول بحر قزوين وشمال البحر الأسود، وأصلها من الترك، اشتهر أهلها بالبداوة والفروسية وتعد بلاد القبشاق، فرصة عظيمة للتجار، لجلب الرقيق الأبيض. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج456/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق663/3)؛ العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، (ص73).

(5) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص16).

بائع الرقيق، أو ينسب إلى مبلغ المال الذي اشترِى به، مثل: "قلاوون الألفي"، لأن الْأَمِيرُ علاء الدّين آق سنقر اشتراه بألف دينار [1].

كذلك ينسب المملوك فوق هذا النسب لسيده، ويعدّ نظام الملك[2] وزير السلطان ملك شاه السلجوقي أول من نسب إليه المماليك، وعرفوا بالمماليك النظامية، وعلى نفس الشاكلة عرفت المماليك النورية نسبة لنور الدّين زنكي، والمماليك الصالحية نسبة لصلاح الدّين الأيوبي، وكذلك المماليك العادلية نسبة للملك العادل الأيوبي، ومن بعده مماليك ولديه: الأشرفية والكاملية، وكذلك مماليك الصالح أيوب وعرفت بالمماليك الصالحية، ومنهم البحرية[3].

وعن أشكال استقدام المماليك، فقد تعددت هذه الأشكال: منهم من كان قد اشتريَ وهو صغير السن ويتم بيعهم من قبل أهلهم بسبب الفقر أو المرض، أو طمعاً أن يصبح ابنهم أميراً وكذلك من أشكال جلبهم السبي، وهم الذين يأخذون نتيجة الحرب وغنائمها؛ والمغول[4] وحروبهم في أواسط آسيا ساعدت على جلب هذا النوع، ومن هذه الأشكال السرقة والاحتيال، فقد امتهن بعض التجار الاحتيال على الصبية، وتحريك مشاعرهم في أخذهم في مغامرة، ومن ثم يقومون ببيعهم في أسواق النخاسة ومثال ذلك عندما قام أحد تجار المدن الإيطالية باستغلال حماسة مجموعة من الفتيان للمشاركة في الحروب الصليبية، وباعهم في بلاد المغرب وصقلية[5].

---

(1) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص16).

(2) "نظام الملك": هو أبو علي الحسن ابن علي ابن العباس الطوسي من احدى البلدان نواحي طوس ببلاد فارس، درس الحديث والفقه، وقد تقلبت به الأحوال حتى عمل عند ميكائيل والد السلطان ألب أرسلان الذي أوصى ابنه أن يقربه، ويستفيد من حنكته، فدبَّر أمر مملكته، وبعد وفاته وزر لابنه الملك شاه، ووطد له الملك، وأمسك بزمام الأمور، وقرب الصوفية، وكان مجلسه عامراً بالعلماء، وبنى لهم المدارس، كما حظيَ باحترام أمير المؤمنين المقتدي بالله، استشهد في العاشر من رمضان 485هـ/1091م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج131/2).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، (ج155/1).

(4) "المغول": وهم طائفة من التتار، والتتار شعب كبير من الأمة التركية، ومنهم تُعرف معظم بُطونها وأفخاذها، فالتتار والمغول والترك من جنسٍ واحد، وهو جنس الترك، فالتتار شعب فيه قبائل شتى منها: "السلاجقة والخوارزمية والتتار والمغول والقفجاق والخزر"، وغيرها من الشعوب، نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغولية شمال صحراء جوبي، وهي أرض واسعة، تنعدم فيها بعض مقومات الحياة، وطبيعتها صارمة، حيث خرج الشعب المغولي شعباً قاسياً. الهمداني، جامع التواريخ، (ج166/2).

(5) حسن، تاريخ الأيوبيين، (ص138–139).

أما أسواقهم، فكانت لهم أسواق في القسطنطينية وإيطاليا التي كانت لها مستعمرات على البحر الأسود وشبه جزيرة القرم، وكانت هذه الأسواق تأتي بالمماليك من القبائل التركية في روسيا الشرقية ومناطق القفجاق الممتدة إلى البحر الأسود، وبحر فزوين، والتركستان، أو من بلاد الجركس في القوقاز أو منغوليا، وكان للجنويين دور كبير في المتاجرة بهم، وبيعهم إلى البلاد الإسلامية، وخاصة مصر[1].

وقد تميز المماليك عن بعضهم البعض حسب الوظيفة المناطة بهم، أو التبعية، فعرفت المماليك الخاصكية[2] وهي فرقة خاصة بالسلطان يناط بها مهام اعتقال الأمراء الخارجين عن أمر السلطان وكذلك إعدامهم إذا لزم الأمر، وقسم آخر سمي بالقرانيص، وهم مماليك السلطان القدامى، ومنهم الكبير في السن، ومنهم الشباب، وهؤلاء يشكلون القوة الخفية والضاربة للسلطان الجديد، وكان لهم مشاكل مع الأجلاب[3] والمشتَرَيْن الجدد خوفاً من الاستبدال، كذلك عرفت المماليك السيفية، وهم مماليك الأمراء الذين قتلوا، أو سجنوا، أو أسقط عنهم الإمارة، وهم فريقان من القرانيص ولكنهم أقل درجة لعدم وجود الزمالة بينهم، ولأنهم من عدة جهات، والنوع الآخر هو: المماليك الأجلاب، وهم رقيق يشتريهم السلطان بواسطة تجار يخصونه أو عن طريق تجار آخرين، ويختلف الأجلاب عن الجلبان، فالأجلاب من صغار السن، أما الجلبان فهم ممن بلغوا سن الرجولة[4].

أما عن طريقة تربيتهم وتعليمهم وتدريبيهم العسكرية، فيخوض المماليك ثلاث مراحل من ذلك، المرحلة الأولى: تبدأ من الصغر إلى سن البلوغ، ويركز في التربية على تعليمهم القرآن والخط وبعض الآداب الإسلامية وملازمة الصلوات والأذكار، وبعض التدريبات العسكرية، أما في المرحلة الثانية، وهي تبدأ من سن البلوغ، وفيها يركز على التدريب العسكري، ويأخذ عليهم بشدة في تعاليم الدّين، فلا تسامح مع المملوك إذا أخطأ، بل يعاقب عقاباً قاسياً، وفي المرحلة الثالثة،

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق418/1).

(2) "الخاصكية": وهم نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان ويجعلهم من حرمه الخاص أخذوا الاسم من خصوصيتهم من السلطان في أوقات خلوته ويتميزون عن غيرهم بلباسهم وحملهم السيوف. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (ص66).

(3) "الأجلاب": ظهرت هذه الطائفة من المماليك في عصر المماليك الجراكسة، إذ أن السلاطين والأمراء استعاظوا عن المماليك الصغار الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك الكبار الذين تخطوا سن البلوغ، المقريزي، السلوك، (ج1/ق53/1).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج220/3).

وهي مرحلة الشباب، واكتشاف المواهب العسكرية، وفيها تجري بعض المباريات من المبارزة لمعرفة مقدار المهارة الفنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يبعثون للقتال في الحرب[1].

وكان هذا التعلم والتدريب يجري في مكان يجمعون فيه يسمى الطباق، ويقول المقريزي في وصف تربيتهم: "وكانت للمماليك في هذا الطباق عادات جميلة، أولها: أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه، وسلّمه لطوشيّ[2] برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه، والمحتاج إليه من القرآن الكريم، وكان لكل طائفة لها فقيه يحضر لها كل يوم، ويأخذ في تعليمهم كتاب الله تعالى، ويعرفه الخط، والتمرن بآداب الشريعة. وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا جيء بالواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا سار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب: من رمي السهام، ورمي الرمح، ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم، حتى يبلغ الغاية في معرفة المحتاج إليه... وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة، إلى أن يصير من الأمراء، ولا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرة آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله في قلبه[3].

بقي هذا الحال، من رعاية المماليك وتربيتهم ومواصفات اختيارهم، من بداية تأسيس دولة المماليك إلى أن تلاشت في أيام الناصر فرج بن برقوق، حيث لم يعد هناك شرط أن يكون من صغار السن بل تم شراء مماليك أغلبهم رجال كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة، ووقاد، في تنور، وخباز ونحو ذلك، ولم يكن لهم مكان لسكنهم وتربيتهم، "الرواق"[4] بل نزلوا إلى القاهرة، ونكحوا من نسائها وأخلدوا للبطالة، ولم يعد يُصرف لهم من الطعام سوى مبلغ عشرة دراهم من الفلوس في اليوم، فصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم، وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدّين، ما فيهم إلا وهو أزنى من قرد، وألص من فأره وأخسّ من ذئب[5].

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، (ج364/3).

(2) "طوشي": مفردها طواش وهو الخصيّ الذي ذهب ذَكَره، وقد استخدموا في الطبقات المملوكية وفي الحريم السلطانية وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة مسموعة، ويعد شيخهم من أعيان الناس. عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام (ص455).

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، (ج374/3).

(4) "الرواق": بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد طويلة ورواق البيت مقدمه وسقيفة للدراسة في مسجد أو معبد أو غيرهما وركن في ندوة أو منظمة للتلاقي والتشاور... (ج) أروقة وروق. المعجم الوسيط، باب الراء، (ج383/1).

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، (ج374/3).

ويتضح لنا من خلال ما تم استعراضه أن المماليك، رقيق ولكن كان هدف شرائهم في الغالب الأعمال العسكرية، وأن هؤلاء الرقيق كانوا يربون على تعاليم الإسلام، وهذه التربية صنعت منهم مجاهدين غيورين على دين الإسلام، ما أهلهم أن يحكموا البلاد مقابل ضعف وتفكك الأيوبيين الحاكمين لتلك البلاد في ذلك الوقت، وغياب العنصر العربي، والذي غُيب منذ زمن الخليفة العباسي المعتصم (218-227هـ/ 833-842م) خوفاً منه على ملكه[1].

ثانياً: ظهور المماليك في الدولة الإسلامية:

ويرجع بداية استخدام المماليك إلى العصر الأموي، حيث أن والي خرسان نصر بن سيار الليثي اشترى ألف مملوك من الترك[2]، وأعطاهم السلاح، وحملهم على الخيل[3]، ومن ثم استخدمهم العباسيون، فقد استخدمهم الخليفة العباسي المعتصم (218-227هـ/833 - 842م) وهو أول من أدخلهم ضمن الفرق العسكرية، وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماءهم من ديوان الجند[4]، وكانت هذه بدايات استبعاد العنصر العربي عن الحكم[5].

وسارت الدويلات التي تشكلت وحكمت بقاع محددة تحت ظروف سياسية معينة زمن العباسيين بنفس النهج في استقدام واستخدام المماليك، ففي مصر استخدم أحمد بن طولون في الدولة الطولونية[6] (254 - 292هـ/ 868 - 905م) المماليك، وغلب عليهم الجنس التركي[7].

---

(1) ابن عبد الظَّاهِر، تشريف الأيام والعصور، (ص25).

(2) "الترك": اسم أطلق عامة على سكان سهوب آسيا الصغرى، وبالتحديد حوض نهر إرتشي، وهم شعوب بدوية مكونة من عشرين قبيلة، اشتهرت منها قبيلة القفجاق أو القبشاق، والتي استوطنت في بحر قزوين عند نهر جيمون، وعلى حوض الفلجى (في روسيا)، وتفرعت عن هذه القبيلة عدة قبائل، وقد تعرضت هذه القبيلة لغارات المغول ضمن توسعهم باتجاه الغرب، وخاصة في سنوات (617هـ/1220م، 620هـ/1223م، 625هـ/1228م)، وكان السبي والنهب السمة البارزة في هذه الغارات، حيث كان السبي يبيعونه للتجار. العريني، المماليك، (ص54)؛ ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، (ص15)؛ العمايرة، الجيش في العصر المملوكي الثاني، (ص17-18).

(3) الطبري، تاريخ الطبري، (ج224/7).

(4) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، (ص211).

(5) ابن عبد الظَّاهِر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، (ص25).

(6) ينسب الطولونيون إلى: أحمد ابن طولون الذي كان مملوكاً تركياً أهداه حاكم بخاري نوح بن أسد الساماني في جملة الرقيق والهدايا للخليفة المأمون سنة (200هـ/816م)، وتدرج ابن طولون في حياة المماليك، حتى صار حاكماً على مصر سنة (254هـ/868م)، واعتمد هو الآخر على المماليك من أبناء جنسه التركي. العبادي، دولة المماليك الأولى في مصر والشام (ص66).

(7) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج1/1ا62).

ومن ثم سار على نهجه من بعده الفاطميون (358 – 567هـ/ 969 – 1172م) في جلب المماليك، والاستعانة بهم على تثبيت سلطانهم، وقد جيء بهم من أجناس مختلفة، حيث وصل عددهم إلى أربع وعشرين ألف مملوك[1].

ثم جاءت الدولة الإخشيدية (323-358هـ/935-969م)، واستخدمت كذلك المماليك، حيث بلغ عددهم في الجيش ثمانية آلاف مملوك وكانت مماليك الإخشيد تحرسه عند نومه كل يوم، وعددهم ألف مملوك، وأغلب الجيش كان من الجنس التركي[2].

وتبعهم بعد ذلك الدولة الأيوبية (567-648هـ/1172-1250م) في استخدام المماليك وغلب عليهم الجنس الكردي، وقد استخدموا في الدولة الأيوبية بداية من الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدّين الأيوبي[3] (567-589هـ/1172-1193م) وصولاً إلى الملك الصالح نجم الدّين أيوب (637-647هـ/ 1239-1249م)، وقد أكثر من شرائهم، وغالبيتهم من الجنس التركي، وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة[4] يقيمون فيها، ويتدربون تدريبياً عسكرياً، ويتربون تربية خاصة، وسمّاهم البحرية[5].

---

(1)ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، (ج190/1).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج256/3).

(3) "صلاح الدّين الأيوبي": هو يوسف ابن أيوب ابن شاذي ولد سنة (523هـ/1129م)، بتكريت، وكان والده أيوب بن شاذي والياً بها، وكان شجاعاً حازماً مجاهداً ضد الصليبيين، تميز عصره بالمنشآت وعنيّ ببناء المدارس، ونهضت الحركة العلمية في عهده وكان من أبرز إنجازاته فتح بيت المقدس، وكان من أبرز شخصيات العالم الإسلامي، توفي سنة (589هـ/1193م). ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، (ص31)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، (ص223)؛ الحنبلي، شفاء القلوب، (ص9-20).

(4) "جزيرة الروضة": كان يطلق عليها في زمن الفتح الجزيرة أو جزيرة مصر، ولم يُطلق عليها جزيرة الروضة إلا مع مطلع القرن السادس الهجري، عندما أنشأ بها الوزير الأفضل ابن بدر الحمالي بستان الروضة، فصارت تُعرف من هذا التاريخ بجزيرة الروضة. جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، (ص333).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج121/2).

ثالثاً: المماليك في الدولة الأيوبية:

أما عن دور المماليك في الدولة الأيوبية، فيتضح لنا من خلال استعراض تاريخ الأيوبيين، حيث قامت الدولة الأيوبية (567-648هـ/ 1172 - 1250م) على يد صلاح الدّين الأيوبي "يوسف بن أيوب بن شاذي الكردي[1]، وكان قد سبق أن تولى وزارة مصر (564هـ/1169م) تكليفاً من نور الدّين زنكي، حيث كان أحد أبرز قادته العسكريين وكانت الدولة الفاطمية في مصر في أضعف قوتها، حيث استطاع صلاح الدّين من خلال أعماله العظيمة أثناء توليه الوزارة في مصر، ومنها صد الصليبيين عن دمياط[2]، حيث قصدوها في ذلك الوقت، وكذلك أغار على الصليبيين في فلسطين وتكبيدهم خسائر جمة، فأحبه المصريون، ومكنه ذلك من إسقاط الدولة الفاطمية وأعلن تأسيس الدولة الأيوبية[3].

وبعد وفاة نور الدّين زنكي (569هـ/1174م) استطاع صلاح الدّين الأيوبي بسط نفوذه على مصر والشام بعد أن انتصر على مناوئيه على الحكم، فقد أسس صلاح الدّين الأيوبي دولته على أساس الجهاد والهجوم على الصليبيين، وهذا ما مكنه من تكبيد الصليبيين الخسائر الفادحة خلال خمس سنوات من الجهاد ضدهم في الفترة (583-589هـ/1187-1193م) وهُزمت جيوش الصليبيين في معركة حطين وهي من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، ونتج عنها استرداد بيت المقدس، وتملك غرب نهر الأردن من جميع البلاد، عدا ساحل ضيق يمتد بين صور ويافا[4].

وهذه المعارك ضد الصليبين وما سبقهم منها مكنت صلاح الدّين الأيوبي في مصر والشام، وكان المماليك من أصل كردي لهم دور هام وبارز فقد اعتمد صلاح الدّين الأيوبي على فريقين مهمين، وهم: المماليك الصالحية نسبة له، والمماليك الأسدية نسبة لأسد الدّين شيركوه[5].

---

(1) الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب أبي أيوب، (ص9).

(2) "دمياط": هي مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهي ثغر من ثغور الإسلام... الحموي، معجم البلدان، (ج2/472).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، (ج2/365).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/169).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ص483).

رابعاً: الأيوبيين بعد وفاة القائد صلاح الدين الأيوبي:

بوفاة صلاح الدّين الأيوبي سنة (589هـ/1193م)[1] انتهت سياسة الجهاد والهجوم على الصليبيين، وهذه السياسة لم ينتهجها أبناء صلاح الدّين بسبب انشغالهم بنزعاتهم الداخلية التي أضعفت وحدتهم وكان للمماليك في هذه النزاعات دور بارز، حيث أن المماليك الصالحية والأسدية كان لها دور بارز في ترجيح كَفِّت هذا على ذاك فعندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر (595هـ/1199م)[2] تطلع عمه العادل للاستيلاء على مصر، ولكن تدخل المماليك حال دون ذلك حيث استدعوا الملك الأفضل وسلموه مقاليد الأمور، وسرعان ما انقلبوا عليه لصالح عمه الملك العادل الذي استطاع من خلال حنكته وحيله من إعادة جمع البيت الأيوبي مرة أخرى، وأعلن حينها الملك العادل بأن المُلك ليس بالميراث، وإنما هو لمن غلب وهذا الأساس سار عليه المماليك طيلة فترة حكمهم[3].

اتسمت فترة حكم العادل أبو بكر بن أيوب "شقيق صلاح الدين الأيوبي" (596–615هـ/ 1200–1218م) بالازدهار الاقتصادي والوحدة في البيت الأيوبي والمهادنة، وهذا ما دفع الصليبيين إلى توجيه حملة صليبية، وهي (الحملة الصليبية الخامسة) إلى مصر، واحتلوا فيها دمياط (616هـ/ 1219م)، وتوفي الملك العادل في ذلك الوقت[4] لينفك عقد البيت الأيوبي من جديد، ويتنازع الأبناء وأبناء العم على الحكم في الفترة (616–638هـ/1219–1240م) وعلاوة على التنازع فقد شهدت هذه الفترة مزيداً من التفريط في جهاد الصليبيين، وتعدى الأمر إلى أكثر من المهادنة، وهو التفريط في المقدسات والمدن التي حررها صلاح الدّين الأيوبي من الصليبيين مقابل حماية الصليبيين، والوقوف مع طرف ضد طرف أيوبي آخر للبقاء في الحكم، فهذا السلطان الكامل (623–625هـ/ 1226–1228م) يعقد اتفاق مع فريدريك الثاني سنة (627هـ/1230م) وعلى إثرها سلم مدينة بيت المقدس وبيت لحم وعمل ممراً من الأرض ما بين عكا وبيت المقدس للصلبيين، مقابل مساندته ضد خصومه الأيوبيين، وعدم نزول أي حملة صليبية جديدة على شواطئ مصر[5].

---

(1) الذهبي، العبر في خبر من غبر، (ج5/58).

(2) كرد علي، خطط الشام، (ص72).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج10/240–255)؛ ابن واصل، مفرج الكروب، (ج3/99).

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج5/77).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/340–390)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (82،202).

ودام هذا الاحتلال الصليبي لبيت المقدس ما يقارب 16 عاماً في الفترة (627–642هـ/ 1230–1244م)، حيث حررت في زمن الصالح نجم الدّين أيوب بن الكامل، حيث أنه بعد وفاة الأخير سنة (635هـ/1238م) آلت أمور الحكم في مصر والشام للملك الصالح نجم الدّين أيوب (637–648هـ/1239–1250م) بعد فترة نزاع شديدة بينه وبين أخيه العادل الثاني، وأبناء عمومته[1].

ويرجع أصول النزاع بين أولاد الملك الكامل إلى ما قبل وفاته وذلك عندما كان الملك الصالح نجم الدّين أيوب ولي العهد لأبيه على مصر سنة (625هـ/1228م) وهو الابن الأكبر لكامل، ولكن زوجة ابيه أم العادل قامت بالوشاية به للملك الكامل، حيث أنها ادّعت أن الصالح نجم الدّين أيوب يُدَبر انقلاباً على حكم أبيه، وبررت هذه الوشاية بكثرة شراء الملك الصالح للمماليك لاستخدامهم في هذا الانقلاب، فقام الملك الكامل بعزل الملك الصالح نجم الدّين أيوب من ولاية العهد، وأرسله إلى "حصن كيفا" نائباً عنه سنة (630هـ/1233م)، ثم جعله نائباً عنه في بلاد الجزيرة سنة (633هـ/1236م)[2].

وبعدة وفاة الملك الكامل أصبح الملك العادل[3] الثاني سلطان مصر، أما دمشق فحكمها الملك الجواد نائباً عنه، والتي سرعان ما طلبها منه العادل، فرفض الملك الجواد تسليمها للملك العادل الثاني بل سلمها للملك الصالح أيوب فأصبح الأخير حاكماً لدمشق، وولي ابنه تورانشاه[4] مكانه في حصن كيفا، وأقام نواب على ديار بكر وسلم حران والرها وجميع البلاد للخوارزمية الذين في خدمته[5].

ومجرد تولي الملك الصالح أيوب دمشق حتى بدأ يعد العدة ضد أخوه الملك العادل الثاني، ليستولي على مصر وكان يأمل أن يعقد حلفاً مع عمه الصالح إسماعيل، إلا أن هذا الأخير غدر بالصالح أيوب، وسيطر على دمشق بمساعدة شيركوه الثاني سنة (637هـ/1239م)[6]، وانسحب

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب من أخبار بي أيوب، (ج5/266–273).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق360/1).

(3) "الملك العادل الثاني": هو: محمد ابن العادل ابن أبو بكر ابن أيوب، تولى الديار المصرية، بعد وفاة والده سنة (615هـ/1218م، ومات سنة (635هـ/1238م)، بقلعة دمشق، فكانت مدة حكمه 20 سنة و45 يوماً. ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، (ج2/28–32).

(4) "تورانشاه": معناها: "ملك الشرق"، الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، (ص79).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج1/422)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق370/1).

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج5/207).

الملك الصالح أيوب بعد خسارة دمشق إلى نابلس، وهناك واجهه الملك الناصر داود الذي تحالف مع الملك العادل الثاني طالباً حكم دمشق والتقى جيش الملك الصالح أيوب مع جيش الملك الناصر داود في نابلس، وهُزِم الصالح أيوب وذلك بسبب خذلان أُمرائه له، وانتهى به الأمر بالاعتقال من قبل الملك الناصر[1]، ويقال بل بعث إليه من يأخذه بعدما سار لوحده، وأرسله على بغله في إهانة من غير مهماز ولا مقرعة[2]، فلما علم العادل الثاني باعتقال أخيه أرسل إلى الناصر، وطالب بتسليمه له مقابل إعطائه مبلغاً من المال، فرفض الناصر طلب العادل الثاني[3].

وبعد سبعة شهور من اعتقال الصالح أيوب قام الملك الناصر داود بفك قيده، وذلك بسبب تدخل الخليفة العباسي في بغداد، وكذلك بسبب اتفاق الطرفين على ان يعمل الملك الصالح أيوب على تملك مصر، وأن تكون الشام للناصر، وأن يدفع الملك الصالح للناصر مئتي ألف دينار[4].

ثم خرج الصالح أيوب من السجن وبعدها مباشرة قام بحملة عسكرية على أخيه في مصر، وكانت الظروف مهيأة لذلك، وذلك بمساعدة أمراء أخيه له على تسلم مصر، حيث كانوا مستائين منه لكثرة انشغاله باللهو واللعب فقبضوا على سلطانهم وسلموا أخيه الصالح أيوب مقاليد الحكم سنة (637هـ/1239م)، وبهذا يكون الملك العادل الثاني قد حكم مدة سنتين وشهرين وثمانية عشر يوماً[5].

وفي الفترة ما بين استلام الملك الصالح أيوب حكم مصر سنة (637هـ/ 1239م)، وسنة (641هـ/1244م) حدثت عدة معارك، وعدم استقرار في الوضع العام بين الملك الصالح وعمه الملك الناصر إسماعيل إلى أن انتهت هذه المعارك باستقرار الطرفين، فعقدا صلحاً بينهما أفضى إلى أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، وأن يفرج عن ابن الملك الصالح "المغيث" الذي اعتقله عندما دخل دمشق، وأن ينزع الكرك من المَلك الناصر داود[6]، أما الملك الصالح أيوب

---

(1) كرد علي، خطط الشام، (ص94).

(2) "المقرعة": وهي خشبة يُضرب بها الدابة، ابن منظور، لسان العرب، (ج76/12).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج171/29)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج308/6).

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج259/5)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج425/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج154/13).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج325/6).

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ص428)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص417).

فتكون له حكم مصر والخطبة والسكة في جميع البلاد وأن يُفرج عن الْأَمِيرُ حسام الدّين لؤلؤ[1]، وهذا الاتفاق أدى إلى اعتراف الشاميين بسلطنة الصالح أيوب على الديار المصرية وتوحيد البيت الأيوبي من جديد[2].

وقبل هذا الاتفاق وبعده عمل الصالح أيوب على توحيد حكمه في مصر، فشرع باعتقال الأمراء الذين سلّموا أخيه الملك العادل الثاني له، والشروع في بناء قلعة الروضة على جزيرة الروضة، وأمور أخرى فعلها من أجل ذلك[3]. وهنا نجد أن الملك الصالح باعتقاله لهؤلاء الأمراء أدرك مدى خطورتهم في صنع القرار وبالأخص في مَن يحكم، وهذا ما اتضح لنا فيما سبق في مدى تأثيرهم في هذا الجانب، لذا أراد الملك الصالح توطيد حكمه باستبعاد هؤلاء الأمراء وهي خطوة جيدة في هذا المجال.

ولم يدم هذا التوافق والصلح الأيوبي طويلاً، فسرعان ما عاد الخلاف مرة أخرى سيد الموقف فالناصر داود انقلب على الصالح أيوب بعد أن أخلف معه الاتفاق، فلم يتسلم الناصر داود دمشق كما وعده، واتفق على ذلك مع الصالح أيوب مما أثار حفيظته، وكذلك الصالح إسماعيل أصبح يخشى على نفسه بعد أن وطّد الصالح أيوب ملكه على مصر، واعتُرِفَ به في الشام، والتقت هذه المخاوف مع أطماع الفرنجة، وعلى اثر ذلك تشكل حلف خبيث عجيب بين الأيوبيين في الشام والفرنجة ضد الصالح أيوب، وذلك سنة (634هـ/1237م) ولقد أعطى الفرنجة، مقابل المشاركة في هذا الحلف بيت المقدس من جديد بعد أن حُرِّرَ من قبل الناصر داود في نفس العام، حيث تمكن الفرنجة من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها بالخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى[4].

وبمجرد أن تحركت قوات هذا الحلف نحو مصر لمحاربة الصالح أيوب أعلن الأخير النفير العام للجهاد في مصر والشام، وأرسل في طلب الخوارزمية[5] من الجزيرة ليحاربوا معه

---

(1) "حسام الدّين لؤلؤ": هو قائد الأسطول المصري، عُرف عنه الشجاعة والاقدام. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج28/282).

(2) ابن تغري بردي؛ النجوم الزاهرة، (ج5/259).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/319).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/155)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/407).

(5) "الخوارزمية": (شاهات خوارزم) تُنسب إلى أنوشتكين، كان مملوكاً تركياً لأمير سلجوقي (من سلاجقة خراسان) فقاد له عدة معارك، فقربه الأمير حتى ولاه على خوارزم ولقبه خوارزم شاه، فحكمها هو وذريته، ووسعوا نفوذهم، فاستولوا على دولة السلاجقة بخراسان والري وفارس وبلاد ما وراء النهر وكرمان والسند=

وعلى الفور تحرك الخوارزمية، وقطعوا الفرات ومقدمهم حسام الدّين بركة خان، وزين الدّين خان بردى وعز الدّين صاروخان، وهم زيادة عن عشرة آلاف مقاتل وسارت فرقة إلى بقاع بعلبك[1] وفرقة على غوطة دمشق، وهم ينهبون ويقتلون ويسبون ثم هجموا على القدس، وبذلوا السيف فيما كان منها من النصارى، حتى قتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال، وهدموا المباني ونبشوا قبور النصارى، وحرقوا رممهم ووصلوا غزة والتقوا بجيش الصالح أيوب الذي جهزه من الديار المصرية[2].

والتقى الجيشان: جيش التحالف الفرنجي الأيوبي مع جيش الصالح أيوب في غزة، وعرفت بمعركة غزة، وكما أسماها البعض (حطين الثانية) لما كان لها من نتائج مدمرة على الصليبيين، ومنها أعيدت القدس مرة أخرى للمسلمين، وكذلك أعاد الملك الصالح أيوب سياسة الجهاد ضد الصليبيين التي توقفت عقوداً كثيرة بعد وفاة صلاح الدّين الأيوبي وفي هذه المعركة ولى عسكر دمشق والصليبين منهزمين، وقُتِلَ من جيش التحالف خمسة آلاف جندي، وأُسِرَ ثمنمائة جندي، وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية، وحرر الملك الصالح غزة والقدس والساحل والخليل وبيت جبريل والأغوار، ولم يبقَ للناصر داود سوى الكرك والصلت وعجلون، ثم حاصروا دمشق فترة طويلة، حتى هلك الناس فيها وأكلوا القطط والكلاب، وقيل: إنه مات رجل في السجن فأكلوه مَن هم في السجن من الجوع[3]، ثم قام الصالح إسماعيل بتسليم دمشق سنة (643هـ/1245م) صلحاً مقابل أن يترك له بعلبك[4]، ومنع الصالح أيوب الخوارزمية من دخول دمشق، لما عرف عنهم من قتل وسلب، وهذا أثار حفيظة الخوارزمية، وكذلك لم يعطهم الصالح أيوب البلاد التي وعدهم بها ما دفع الخوارزمية للانقلاب على الصالح أيوب وتشكيل حلف ضده، حيث انضم إليهم الصالح إسماعيل وشيركوه الثاني وقائد جيش الصالح أيوب في معركة غزة، والتقوا مع جيش الصالح

=وغزنه، فوصلت بلادهم إلى أقصى اتساعها. قضى عليهم المغول سنة (628هـ/1230م)، وبعد قضاء المغول عليهم تفرقوا جماعات منهم مَن ذهب إلى الشام وعملوا كقوة عسكرية لمصالحهم الشخصية ولمن يدفع. العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، (ص248).

(1) "بعلبك": هي احدى مدن محافظة البقاع، لبنان وتمتد على مسافة (1170) متر شرق نهر الليطاني، وهي مركز قضاء محافظة البقاع، اشتهرت عبر العصور لموقعها على الخطوط البرية. الحموي، معجم البلدان، (ج303/2).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق417/1).

(3) المرجع السابق، (ج1/ق421/1).

(4) ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج170/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق423/1).

أيوب، وانهزموا هزيمة شديدة انتهى فيها الخوارزمية من المنطقة كقوة عسكرية، وذلك عام (644هـ/1246م)[1].

واستطاع الصالح أيوب بعد ذلك من ضم جميع المناطق تحت حكمه من دمشق وفلسطين في الفترة (642 – 644هـ/ 1244–1246م)، وأثناء وجود الصالح أيوب لإخضاع الشام كلها لسلطانه بدأ التجهيز من قبل الصليبيين لحملة صليبية سابعة تستهدف مصر، وبمجرد أن وصلت هذه الأنباء للصالح أيوب حتى عقد صلحاً مع الناصر يوسف صاحب حلب، وعاد إلى مصر للتجهيز للدفاع عن دمياط، وذلك سنة (645هـ/1247م) وشمل هذا التجهيز إعادة صيانة وتحصين للقلاع في مصر والشام، ثم عسكر في منطقة أشموم طناح[2] استعداداً للقاء الصليبيين[3].

وهنا نجد أن الملك الصالح أيوب أعاد مرة أخرى الوحدة للبلاد، سواء الوحدة الأيوبية كوحدة حاكمة أو الوحدة الجغرافية مصر وبلاد الشام، وكذلك انتقل من سياسة الدفاع ضد الصليبيين إلى سياسة الجهاد والهجوم على الصليبيين ليعيد مرة أخرى ما كانت عليه الدولة الأيوبية زمن جده صلاح الدين الأيوبي، وبهذا تكون خاتمة الدولة الأيوبية، خاتمة حسنة بعدما عانت من شر النزاع والخلاف على الحكم، وتكون بداية لإنهاء الوجود الصليبي الذي استكمله المماليك من بعده.

ثم عاود جهوده، بعد هذه الترتيبات ضد الصليبيين، إلى توحيد الشام حتى سنة (646هـ/1248م) فاستولى على حمص، وأخضعها لحاكمها السابق المنصور إبراهيم، ومن ترتيبات الصالح أيوب، في خضم هذا الصراع الأيوبي الأيوبي، وكذلك الأيوبي الصليبي، ومن خلال التجربة السيئة التي عاشها عندما تخلى عنه جيش الخوارزمية المرتزقة، لا بل انقلبوا عليه، وكذلك عندما تخلى عنه أمراؤه في مواجهته ضد الناصر داود في نابلس، فقد شرع الصالح أيوب في إنشاء قوة خاصة له من المماليك الأتراك[4].

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ص430)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج172/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق427/1).

(2) "أشموم" اسم بلدتين بمصر يقال لأحدهما أشموم طناح وهي قرب دمياط، وهي مدينة الدقهلية والأخرى أشموم الجريسات بالمنوفية، الحموي، معجم البلدان، (ج277/3).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق343/1).

(4) المرجع السابق، (ج339/1).

ومن أجل ذلك، فقد أكثر من شراء المماليك الأتراك، فأصبح معظم جيشه يتألف منهم وأصبح العنصر الكردي لا يشكل شيئاً من الجيش الجديد بعد أن كانوا هم معظم الجيش، وقد اشترى الصالح أيوب في سنة واحدة ألف مملوك دفعة واحدة، وبنى الصالح أيوب لمماليكه قلعة في جزيرة الروضة، وأسكنهم فيها كما اتخذها مقراً له وهؤلاء المماليك عُرفوا بالمماليك الصالحية نسبة للصالح أيوب، بعد أن عمل على تنشئتهم وتدريبيهم على الولاء الخالص له، كما عرفوا بالمماليك البحرية وإن سبب هذه التسمية لأنهم سكنوا جزيرة الروضة التي يحيط بها النيل[1].

هذه القوة من المماليك كانت أمام أول اختبار حقيقي لها من سنة (646هـ/1248م) عندما وصلت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى شواطئ مصر، وكانت المعركة الفاصلة فيها: موقعة فارسكور [2] والمنصورة، حيث أن الصليبين استولوا على دمياط سنة (647هـ/1249م) دون أي عناء[3]، وذلك بسبب انسحاب فخر الدّين يوسف بن شيخ الشيوخ ومن معه من عساكر بعد مناوشات بسيطة مع الفرنج استشهد على إثرها الْأَمِيرُ نجم الدّين ابن شيخ الإسلام، والْأَمِيرُ صارم الدّين أزبك الوزيري، وعلى إثرهم انسحبت بني كنانة من العرب، وكانوا في دمياط للدفاع عنها، وعندما رأى أهل دمياط انسحاب العساكر، خرجوا منها هائمين على وجوههم، فساروا أهلها وهم حفاة وعراة، وتركوا المدينة أبوابها مفتحة وخشيَ الصليبيون أنها حيلة، ولكن عندما تأكد لهم أمر الانسحاب دخلوها، واستولوا عليها بما فيها من آلات حربية، وأسلحة عظيمة والعدد الكثيرة، والأزواد والأقوات، والذخائر، والأموال، والأمتعة، وغير ذلك[4].

هذا الأمر ترك صدمة كبيرة لدى أهل مصر وهو سقوط دمياط بهذه الطريقة وكانت بداية غير موفقة للملك الصالح أيوب، ما كان منه إلا أن أعدم خمسين أميراً ممن انسحبوا من بني كنانة بعد أن استفتى القضاء في ذلك، ومما يروى أنه مَن بين الأمراء الذين شُنقوا أمير حشيم وله ابن جميل الصورة، فقال أبوه: بالله اشنقوني قبل ابني، فقال السلطان: لا بل اشنقوه قبل أبيه، فشنق الابن ثم شُنق الأب من بعده[5].

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج121/2).

(2) "الفارسكور": هي قرية تقع في الضفة الشرقية من الخليج فيها قصب وغلات مع معاصر، وحدثت بها معركة فارسكور الشهيرة في زمن الصالح أيوب لصد الحملة الصليبية السابعة، الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (ج339/1).

(3) أبو شامة، الروضتين، (ص183)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ص183).

(4) ابن اياس، بدائع الزهور، (ص278).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق110/1).

ونتيجة فعل السلطان هذا خاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله، فأشار عليهم فخر الدّين بالصبر حتى يثبت أمره، وسرعان ما نُقِلَ السلطان إلى المنصورة حيث اشتد عليه مرضه، وفي (15 شعبان 647هـ/ 22 نوفمبر 1249م)، مات الملك السلطان الصالح أيوب في المنصورة، وهو في مقابلة الفرنج عن أربع وأربعون سنة وكانت مدة حكمه عشر سنين إلا خمسين يوماً، فغسله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه لكي يُخفِي موته، وهذا ما أمرت به زوجته شجر الدر خشية اضطراب الجند في مواجهة الصليبين، وحُمِل في تابوت إلى قلعة الروضة، وأخفي موته فلم يشتهر إلا في ثاني عشر من رمضان، ثم نُقِل بعد ذلك بمدة بتربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة[1].

وأدارت شجر الدر زوجة الصالح أيوب، منذ لحظة اشتداد المرض على السلطان الأمور بحكمة عالية وبكل مسؤولية فبينما كان جيش المسلمين في مواجهة الصليبيين وكانت في البداية الكفة راجحة للصليبيين بعد سيطرتهم على دمياط، فعندما اشتد المرض بالصالح أيوب، قامت بنقله إلى المنصورة، وهناك توفي، فأخفي نبأ وفاته وأمرت العبيد أن يحملوا السلطان في محفة دون علمهم بموت السلطان، ونُقِل عبر النهر في قارب إلى قلعة الروضة، وبترتيب أمني محكم، وأصبحت تُدخل كبار الموظفين والأطباء إلى قاعة السلطان في قلعة الحكم في المنصورة، موهمة بذلك أن السلطان حي يرزق، وكانت تُوقِّع المراسيم، بتوقيع السلطان وكانت قد مهرت قبل ذلك في تقليد توقيع خط السلطان[2]، ومن ثم عملت من خلال هذه المراسيم على تعيين فخر الدّين لقيادة الجيش، وحثته على رفع الروح المعنوية للجند، واسترجاع دمياط وصد الغزاة من الصليبيين[3].

ولابد من الإشارة إلى أمر بالغ الأهمية وهو أنه لولا المماليك البحرية، وتلك الفرقة التي أنشأها الملك الصالح أيوب واشتهرت بولائها التام له لما نجحت شجر الدر في ترتيبها هذا، فكل الترتيبات بحاجة لأشخاص مخلصين أمينين على تنفيذها، فكانت المماليك البحرية، بذلك الترتيب الأمني أمام أول اختبار حقيقي لها، ومن الطبيعي أن يكون الظَّاهِر بِيبَرْسُ قائد الحرس الخاص للسلطان في تلك الأوقات له الدور الحقيقي والأبرز، كما كان له الدور البطولي فيما بعد بصد الغزاة الصليبيين عن قلعة الحكم في المنصورة، لا وبل دحرهم من المنصورة هو وفرقة المماليك كما سيتضح لاحقاً.

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج181/3)؛ المقريزي، السلوك (ج343/1).

(2) أبو شامة، الروضتين، (ص183)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج181/3).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق343/1)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج38/2).

وكما كان للأمير بِيبَرْسُ هذا الدور العظيم أوكلت شجر الدر مهمة في غاية الأهمية أيضاً لكبير أمراء المماليك البحرية، فارس الدّين أقطاي، تتمثل في إرساله إلى بلاد الشام، إلى حصن كيفا، حيث يتواجد المُعَظَّم تورانشاه ابن السلطان لإخباره بوفاة السلطان ولإحضاره على وجه السرعة، ليتولى مقاليد الحكم خلفاً لوالده ولكي يدير المعركة ضد الصليبيين[1].

وقد كلفت شجر الدر الْأَمِيرُ ركن الدّين بِيبَرْسُ بخوض عدة معارك جانبية لإشغال الصليبيين لحين وصول تورانشاه لقيادة المعركة الفاصلة، وبمجرد وصول تورانشاه أعلن النفير العام، وانضم العوام والفلاحون للجيش المملوكي، وفي ذلك الوقت أحسَّ الفرنج بموت السلطان فهاجموا المنصورة بعنف، وتراجع الجيش الأيوبي تراجعاً تكتيكياً لحين إعادة تنظيم الصفوف[2].

وفي تلك الظروف استطاع روبرت كونت قائد الصليبيين من اقتحام معسكر الجيش الايوبي فاخترقه من مقدمته إلى مؤخرته، وتمكن من قتل قائد الجيش الأيوبي فخر الدّين، مما شجع الجيش الصليبي على التقدم في المنصورة، وهنا برز الْأَمِيرُ بِيبَرْسُ القائد العسكري الفذ، فقد استخدم تكتيكاً وخداعاً عسكرياً استطاع من خلاله الانقضاض على عسكر الصليبيين وقتل بعضهم في شوارع المنصورة، حين أخلى الطرقات من الجنود المسلمين، وجعلهم يختبؤون، وبمجرد أن دخل الصليبيون الطرقات الضيقة انهال عليهم فرسان الإسلام بالضرب والقتل، حيث أنهم لا يستطيعون الخروج من تلك الطرقات الضيقة[3].

ولم يمنع القائد الصليبي "أرتو" من التقدم إلى القصر السلطاني في المنصورة بعدما لاقاه من القتل في جنوده، وقد تصدى له الْأَمِيرُ بِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي بصفته رئيس فرقة الحرس السلطاني الخاص وقام بقتل "أرتو" وعدد من جنوده فقام الجيش الصليبي بالفرار من المنصورة[4].

وبعدها توالت الهزائم على الجيش الصليبي وهنا كان للنيل وموعد فيضانه وعدم خبرة الصليبيين في جغرافية المنطقة دوراً هاماً أدى إلى تقهقر الجيش الصليبي وتراجعه وقام الجيش الأيوبي باستثمار ذلك والهجوم على مَن تبقى منهم نتج عنه هزيمة الجيش الصليبي، وقتل وأسر عدد كبير من جنوده بمن فيهم لويس التاسع القائد العام للحملة الصليبية السابعة، ثم أسره[5].

---

(1) ابن شاكر الكبتي، عيون التواريخ، (ج185/1).
(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج189/3)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ص87).
(3) أبو شامة، الروضتين، (ص183).
(4) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص62).
(5) ابن اياس، بدائع الزهور، (ص86–87).

بعد المعركة بدأ السلطان الجديد "تورانشاه" العمل على توطيد حكمه، ومن الطبيعي لشخص ليس لديه دراية بالحكم، – وذلك ما أقر به والد تورانشاه الملك الصالح أيوب، حيث أنه لم يُوصِ له بالملك من بعده بل أوصى أن يُتبع ملكه للخلافة العباسية، – أن يُخطئ أخطاء قاتلة فعندما رأى قوة المماليك البحرية وحُسن أدائهم العسكري من جهة، وحُسن التدبير السياسي من طرف زوجة أبيه شجر الدر من جهة أخرى، عمل على التضييق على زوجة أبيه شجر الدر، وابعادها عن التدخل في شؤون الدولة بل وتجاوز الحد في اتهامها بسرقة مال أبيه، وبدأ يطالبها بإرجاع هذا المال من خلال مراسلات كان يبعثها لها، وهي مقيمة في بيت المقدس، وهددها[1].

وفي نفس الوقت رأى في أمراء المماليك البحرية خطراً عليه لقوتهم ففي الوقت الذي كان ينتظر أولئك الأمراء العطايا والإكرام من جهة السلطان الجديد لما كان لهم دور مهم وبارز في التصدي للصليبيين في المنصورة والفارسكور، وجدوا غير ذلك، فذلك السلطان تورانشاه قرب الأمراء الذين كانوا معه في حصن كيفا، واستبعد أمراء المماليك البحرية ولم يقف عند ذلك الحد بل أصبح يهددهم.

راسلت شجر الدر أمراء المماليك البحرية تستنجدهم من تهديدات تورانشاه، وأعلمتهم بتهديده لها ما أثار حفيظة وغضب المماليك البحرية عليه، علاوة على فعله بهم من استبعادهم وعزل أكابرهم، وتولية أرذلهم عليهم، وفوق كل ذلك ما رأوه من سوء خلق من السلطان الجديد، حيث أنه كان لا يقبل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يراعي سالف ذمة لأحد، وكان شديد السطوة متجبراً، يشرب الخمر[2].

ولابد من الإشارة إلى أنه قد وضحت المعطيات والأحداث السابقة حيث عُقد اتفاق بين شجر الدر وأمراء المماليك البحرية على خطوات للتصدي لتورنشاه، كيف لا وقد عرف عن شجر الدر تدبيرها السياسي الجيد، وما عرف كذلك عن قوة المماليك البحرية، وخاصة في معركة المنصورة، بعدما بذلوه من جهد جبار في التصدي للصليبيين وكانوا ينتظرون الاحسان من سلطانهم، فيلاقون الظلم والاستعباد، لذلك بِتُّ متأكداً أن ما حدث بعد ذلك كان ضمن خطوات مدروسة ومتخذٌ فيها قرار مسبق.

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج117/1)؛ شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص66–68).
(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج186/2).

ففي حفلٍ أقامه تورانشاه في منطقة المعركة التي انتصر بها الفارسكور على شاطئ النيل حيث نصب الدهليز[1] ودعى كبار الدولة، ومن ضمنهم قادة المماليك البحرية: فارس الدّين أقطاي، وبِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي[2] وأخذت الخمر في رأس تورانشاه، وقام بصفِّ مجموعة من الشموع، ويضربها بسيفه، وقال: هكذا أفعل بمماليك البحرية وأصبح يَذكرهم بالاسم[3]، حتى وثب عليه بِيبَرْسُ وضربه بسيفه، فتلقاه بيده وقطعت أصابعه، واحتمى ببرج خشبي كان قد نصبه على شاطئ النيل بجوار مكان الاحتفال، احتمى به وهو يصرخ ويعتذر ويُطلق الوعودات بأنه سوف يتنازل عن المُلك، ويعود لحصن كيفا إلا أنَّ المماليك أحرقوا البرج الخشبي عليه، فسقط في النيل فضربوه بالنشاب، وقتلوه ولم يمضِ على حكمه سوى سبعين يوماً، وبمقلته يكون قد أسدل الستار على مُلك الدولة الأيوبية، وتنتهي هذه الدولة لتمر بعد ذلك في فترة انتقالية تحكم بها شجر الدر[4].

تولت شجر الدر الحكم بعد مقتل تورانشاه، كونها زوجة السلطان الصالح أيوب، والعقل المدبر لسياسة الدولة بعد وفاته، وكان ولاء الأمراء المماليك لها بعد وفاة السلطان الصالح أيوب، حيث أن ابنه المقتول لم يُفلح في كسب ولائهم نتيجة سياسته تجاههم، وكان تولية شجر الدر بدعم مطلق من المماليك، وعلى رأسهم أمراؤهم حسام الدّين لاجين، وفارس الدّين أقطاي، وعز الدّين أيبك، وبِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي[5].

وشجر الدر التي تسلطنت كانت تملك أسباب القوة التي تجعلها أهلاً لذلك فهي بجانب فضلها وحنكتها في إدارة الموقف بعد وفاة السلطان الصالح أيوب، تملك من رجاحة العقل والتدبير السياسي والقوة العسكرية بولاء المماليك البحرية لها ما يؤهلها لتكون سلطانة المسلمين.

وبمجرد تسلطنها أخذت تتقرب إلى العامة والعلماء، وتعطي العطايا لقادة الجند ولأمراء المماليك، لما قدموه لها من دعم ومكافأة لجهدهم في صد الصليبيين كما أدارت المفاوضات مع لويس التاسع الذي كان حينها في الأسر، وعدلت على بنود الاتفاق الذي كان تورانشاه، قد بدأه

(1) "الدهليز": هي خيمة سلطانية خاصة بركوبة في الموكب، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/46).

(2) "البُنْدُقْدارِي": نسبة إلى: البندقدار، وهو الذي يحمل قوس البندق خلف السلطان أو الْأَمِيرُ، وقد سميّ بِيبَرْسُ بذلك: لأنه كان أول أمره مملوكاً للأمير/ أيدكين البُنْدُقْدارِي، ثم اختاره الملك الصالح أيوب وهو من مماليكه البحرية، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (ج7/237).

(3) أبو شامة، الروضتين، (ص185)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/19).

(4) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص66–68).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/61)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/183).

بحيث وضعت شرطاً لفك أسر لويس التاسع والأسرى، وهو الانسحاب من دمياط وأن يُفدى لويس التاسع بملغ من المال(1).

ودعي لسلطانة المسلمين على المنابر بعدة صيغ منها: "اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدّين أم خليل أمير المؤمنين المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح"(2)، أو صيغة أخرى: "اللهم احفظ الجهة الصالحية، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدّين، ذات الحجاب الجليل والستر الجميل والدة المرحوم خليل"، وكذلك تم صك العملة باسمها، وكُتِبَ عليها المستعصية الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل(3).

ومع ذلك، ورغم كل ما ذكر رفض الشعب والعلماء، وحتى الخلافة العباسية تنصيب شجر الدر كونها امرأة ولا يجوز تولية المرأة المناصب السيادية العظمى، وهذا ما عليه إجماع العلماء، فخرجت المظاهرات وتكلم العلماء في دروسهم وخطبهم رافضين تولي شجر الدر، وعلى رأسهم الامام العز بن عبد السلام، فأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا في مصر يقول لهم: "اعلموا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال مَن يصلح للسلطنة فنحن نرسل إليكم مَن يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: **(لا يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)**"(4).

لقد أدركت الملكة شجر الدر، برجاحة عقلها صعوبة الموقف إزاء استمرارها في الحكم في ظل الرأي العام الذي كان ضدها، ومرة أخرى تُثبت حنكتها السياسية، فبعد التشاور مع أمراء المماليك الكبار قررت الزواج من أحدهم ومن ثم التنازل عن الحكم، وبالتالي تضمن استمرار وجودها في الحكم بشكل غير مباشر فاختار المماليك الْأَمِيرُ "عز الدّين أيبك الصالحي" ولم يكن أقواهم(5)، ولكن تم الاختيار على أساس أن السلطان الجديد يكون ذا شخصية تستطيع شجر الدر وكبار أمراء المماليك أن تُسيره كيف شاءوا، وما عُرف عن عز الدّين أيبك في ذلك الوقت عدم تدخله في الصراعات من أجل الحكم فخمنوا أنه الشخص المناسب، وفي جمادي الثانية سنة

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق361/1)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج286/1).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج374/6).

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج182/3).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج59/1)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق366/1).

(5) رافع، قطز قاهر التتار، (ص48).

(648هـ/1250م)، وبعد عشرة شهور من حكم شجر الدر، تنازلت عن الملك لعز الدّين أيبك التركماني الصالحي بعد الزواج منه[1].

وبهذا التنازل تكون الدولة الأيوبية قد انتهت تأييداً لمن ذهب في الرأي بأن شجر الدر هي آخر السلاطين الأيوبيين على اعتبارها زوجة السلطان الصالح أيوب[2]، ولمن ذهب لرأي أنها تعتبر من المماليك، فيعتبر تورانشاه عندها هو آخر ملوك بني أيوب، وشجر الدر هي أول سلاطين المماليك[3]، وهناك رأي ثالث ذهب إلى أن الملك الأشرف موسى الذي نصبه أيبك هو آخر الأيوبيين[4]. وأميل هنا إلى الرأي الذاهب بأن شجر الدر هي آخر السلاطين الأيوبيين وذلك على اعتبارها زوجة الصالح أيوب، رغم دعمها الشديد والمطلق للماليك وأثر ذلك الدعم على إنشاء دولتهم.

خامساً: نشأة الدولة المملوكية: [5]

بدأ عصر المماليك سنة (648هـ/1250م) عندما تولى الملك عز الدّين أيبك التركماني الصالحي "الملك المعز" السلطنة ورغم أن الملك عز الدّين أيبك هو أول سلاطين دولة المماليك إلا أن المؤرخين يعتبرون الظَّاهِر بِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، لما تم على يده وفي عهده من إرساء قواعد الدولة وعظيم الأعمال[6]، وكذلك يعتبر أعظم سلاطين المماليك[7].

وظل المماليك يحكمون حتى عام (923هـ/ 1517م) أي ما يقارب مائتين وخمس وسبعين سنة وانتهى عهدهم بالسيطرة العثمانية على دولتهم، وغطت هذه الفترة دولتين الدولة البحرية (648 – 784هـ/1250–1382م) واستمر حكمها قرابة مائة وثلاثين سنة وباقي الفترة من عمر الدولة حكمها المماليك البرجية أو الجركسية[8].

وكان تولي السلطنة من قبل عز الدّين أيبك قد تزامن مع تولي الناصر صلاح الدّين يوسف حكم دمشق، وعلى الفور قام الأخير بالتواصل مع بني أيوب، وتشكيل حلف أيوبي يرفض

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج4/7)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج286/1).

(2) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، (ص 350)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج1/ق286/1).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج392/29)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق361/1).

(4) الفرقاني، أخبار الدول وآثار الأول، (ص65).

(5) انظر ملحق رقم (06)، (ص155).

(6) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص32).

(7) فرغلي، الحركة التاريخية، (ص37).

(8) المرجع السابق، (ص28).

تولي المماليك[1] السلطنة على اعتبار أنهم هم أصحاب السلطنة، وهذا الحلف بدأ بالهجوم على المماليك على مرحلتين، المرحلة الأولى: تمثلت بالضغط لتشكيل رأي عام (ضد حكم المماليك، وارتكزوا على نقطتين: الأولى اتهام المماليك أنهم أطلقوا سراح لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة على مصر طمعاً بالمال، وكان من المفترض قتله، وردَّ المماليك على ذلك أن لويس التاسع كانت له شعبية كبيرة في أوروبا وخشوا لو قتلوه أن ينتقم الغرب بحملة صليبية لا يستطيع أحد صدها، والثانية: التقليل من شأن المماليك وقوتهم، وردَّ عليهم المماليك أنهم هم أصحاب اليد العليا في رد الحملة الصليبية السابعة ولولا ما بذلوه من بسالة في القتال في المنصورة وفارسكور لما تم النصر للمسلمين[2].

أما المرحلة الثانية من هجوم الحلف الأيوبي فقد كان يتمثل بالعمل العسكري، وقابله المماليك بقيادة عزالدّين أيبك بالمثل، وكذلك استخدم المماليك الخداع في صدهم فعندما شرع الأيوبيون بحلفهم خلص رأي قادة المماليك إلى سحب الذريعة من الأيوبيين وذلك بتولية أحد الأيوبيين سلطاناً وأن يكون عز الدّين أيبك أتابكاً له، وكان الاختيار على صبي لم يتجاوز العشر سنوات من نسل الأيوبيين وهو الأشرف مظفر الدّين موسى بن يوسف بن المسعود بن محمد بن الكامل بن محمد الأيوبي، ولكن هذا الاجراء لم يفلح في صد الأيوبيين وتراجعهم عن قرارهم، فأعلن أيبك[3] أن مصر تحت سلطنة الخلافة العباسية، وهو يحكم بصفته نائب الخليفة المعتصم، وقبل تلك الخطوة كان عز الدّين أيبك ينوي خلع الأشرف مظفر الدّين موسى، وينصب نفسه سلطاناً، ولكن لاقى معارضة من كبار أمراء المماليك، وعلى رأسهم الْأَمِيرُ فارس الدّين أقطاي الذي وصل به الخلاف مع أيبك إلى درجة أن ينسحب مع ألفي فارس من مصر إلى المغيث صاحب الكرك خوفاً من تسلط عز الدّين أيبك، ولكنه عاد عندما سوَّى الأمور، وتراجع أيبك عن خطوته تلك[4].

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج55/1)؛ أبو الفداء، المختصـــر في أخبار البشـــر، (ج192/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج4/7).

(2) يوسف، العدوان الصليبي على مصر، (ص216).

(3) أبو شـامة، الروضـتين، (ص86)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج55/1-57)؛ أبو الفداء، المختصـر في أخبار البشر، (ص192)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق369/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج5/7).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج55/1)؛ أبو الفداء، المختصـــر في أخبار البشـــر، (ج192/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص370).

وبعد ذلك الاستقرار الداخلي في مصر عاد عدم الاستقرار مرة أخرى بين مصر والشام، حيث قام الأيوبيون بقيادة الناصر صلاح الدّين يوسف بعدة مناوشات مع المماليك نحو سنتين، وتخلل تلك المناوشات حلف صليبي – مملوكي حيث تحالف عز الدّين أيبك مع لويس التاسع الذي كان لا يزال مقيماً في عكا، حيث أن أيبك قدم عرضاً للويس التاسع مفاده أن يقوم أيبك بالتنازل عن نصف الفدية المقررة على لويس في اتفاقية تحرير الأسرى، وكذلك تسليمه بيت المقدس بعد استيلائه عليه من الناصر يوسف كذلك قام الأخير بمحاولته عقد حلف صليبي أيوبي ولكنه فشل بسبب تهديد عز الدّين أيبك للويس التاسع بقتل ما لديه من أسرى صليبيين[1].

ونلاحظ أن تلك السياسة في التحالف مع الصليبيين ليست سياسة مملوكية والدليل أنه لم يُسجل في تاريخ المماليك مثل هذه الأحداث، كحلف عسكري، وإن كنا لا نعذر عز الدين أيبك على مثل هذا الحلف فإنه كان مضطراً له لتوطيد سلطته، وتطبيق سياسة اعتاد عليها الأيوبيين من قبل.

وبعد أن تم الحلف المملوكي – الصليبي عمد الحلف على القضاء على الأيوبيين نهائياً فاتفقا أن يخرج جيش المماليك من مصر إلى غزة وتحتلها ثم يتجه جيش الصليبيين إلى يافا ويحتلها، وبعدها يلتقي الجيشان، ويتوجهان للقضاء على الأيوبيين إلا أن الناصر يوسف كان ذكيا في تكتيكه العسكري حيث عمل على ترك لويس التاسع يدخل يافا دون مقاومة بينما سبق المماليك في دخول غزة فدخلها قبلهم، ومنع بذلك اتصال الجيش الصليبي والمملوكي وبذلك أفشل الحملة العسكرية التي كانت تنوي القضاء عليه، إلى أن تدخل الخليفة العباسي في حل النزاع بينهما من خلال البادرائي، كوسيط بينهم فانعقد الصلح سنة (651هـ/1253م)، على أن تكون مصر لعز الدّين أيبك والبحرية من جهة وبلاد الشام، ابتداءاً من غزة، للناصر صلاح الدّين يوسف من جهة أخرى[2].

وبهذه الاتفاقية قويت سلطنة عز الدّين أيبك وكانت خطوة من الخطوات نحو تمكين سلطنته، ومن ثم قام بحملة عسكرية سنة (651هـ/1253م) ضد الدولة العربية الإسلامية في مصر الوسطى، ومن بلبيس التي أقامها الشريف حصن الدّين بن ثعلب والذي اعتبر أن العرب أولى بالحكم من المماليك رافضاً حكمهم[3]، وتلاها خطوة تقريب الأمراء المخلصين له، والتخلص

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج194/3-195).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج10/7-23).

(3) المرجع السابق، (ج12/7، 23-30).

من خصومه، وكانت العقبة الكبيرة من الخصماء هو الْأَمِيرُ فارس الدّين أقطاي، الذي يعتبره المماليك البحرية كبيرهم، حيث كان يرغب في السلطنة ولا يقيم لعز الدّين أيبك وزناً، ويتصرف في خزينة الدولة كيف يشاء، وفي أيامه الأخيرة كان ينوي الزواج من ابنة أحد أمراء بني أيوب (بنت صاحب حماة)، وطلب من عز الدّين أيبك أن يخصص له قلعة الجبل ليسكن فيها هو وزوجته وبهذا الطلب قرر عز الدّين أيبك التخلص من فارس الدّين أقطاي بعد أن اتفق مع زوجته شجر الدر وبعض مماليكه، من بينهم سيف الدّين قطز وأوقعوا أقطاي في كمين من خلال استدراجه إلى القلعة ظهر يوم الأربعاء (3 شعبان 652هـ/17 سبتمبر 1254م) حيث تم قتله في قاعة الأعمدة، بعد أن أُغلِقت أبوابها عليه حتى لا يُسْمَح لمماليكه البحرية من إنقاذه وبعد أن شاع قتل أقطاي عمد المماليك البحرية إلى القلعة فوجدوا الأبواب قد أغلقت، ورُمِيَ برأس أقطاي من فوق أسوار القلعة لهم حينها أدرك المماليك البحرية خطورة الموقف، وأن الوقت قد فات لإنقاذ أقطاي وأنهم في خطر من بطش أيبك ففر المماليك البحرية من القاهرة في نفس اليوم الذي قُتل فيه أقطاي، ففر جزء منهم مع الْأَمِيرُ ظاهر الدّين بِيبَرْسُ إلى بلاد الشام وجزء آخر فر إلى بلاد السلاجقة[1].

ومن خلال الرجوع إلى المصادر المعاصرة لزمن المماليك[2] لم نجد أي اختلاف أو تضاد في الروايات لمقتل أقطايّ ولكن كان هنا تباين في الأسباب السالفة الذِّكر، في المقابل فإن المؤرخين المعاصرين في وقتنا الحاضر لم يُولوا الموضوع أي اهتمام أو تحليل سواء بنقلهم أسباب اقدام أيبك على قتل أقطايّ، ومن الملاحظ بلا شك فيه أن أقطايّ كان يُشكل عقبة أمام توطيد حكم أيبك لما له من مكانة عالية بين الأمراء وبين العامة ولما له من إنجازات عسكرية تؤهله لهذه المكانة، فمن الصعب أن يستقر أيبك في السلطنة من غير إزاحة تلك العقبة، ولذلك لا نبرر فعلته لقتل أقطايّ، ولكن ذلك ما كان عليه المماليك في تلك الفترة، فالحُكم للأقوى.

بعد هذه الخطوة التي قَتَل أيبك فيها أقطاي وتخلص من المماليك البحرية عمد إلى الخطوة التالية وهي خلع الملك الأشرف مستغلاً تقدم المغول نحو المشرق للقضاء على الإسماعيلية

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/58)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/194-195)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص389-391).

(2) ومن هذه المصادر: "كتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر للقاضي محي الدين ابن عبد الظاهر، وكتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري، وكتاب النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، لأبي المحاسن وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، وكذلك كتاب المواعظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار للمقريزي".

بفارس، وهدم الخلافة العباسية بغداد، كما عمد على اعتقال الملك الأشرف ووالدته وانفرد في السلطنة دونه، وشرع في جمع الأموال الكثيرة من العامة، وعيَّن سيف الدّين قطز نائباً له في مصر وأعاد ما أخذه أقطاي من بيت مال المسلمين، وأضاف أعمال الإسكندرية[1] إلى أعمال السلطان، حيث كانت من قبل إقطاعاً لأقطاي، كما صادر أملاك المماليك البحرية الفارين وتوج هذه الخطوات بعقد صلح مع الناصر داود سنة (653هـ/1255م) على أن يكون للمعز مصر حتى نهر الأردن، وللناصر داود ما وراء ذلك من بلاد الشام[2].

ولكن عز الدّين أيبك لم يتوقف عن خطواته من تعزيز سلطنته على مصر، واستطاع في خطوته التالية سنة (654هـ/1256م) من أن يُرسل للخليفة أن يُشَرِّفه بالسلطنة فمنحه إياها الخليفة[3].

وكانت الخطوة الأخيرة لعز الدّين أيبك، والذي كان يعتقد أنها سوف تمكنه من السلطنة، وهي إنشاء حلف مع بدر الدّين أبو الفضائل لؤلؤ صاحب الموصل بالزواج من ابنته ليطوق بذلك الناصر صلاح الدّين يوسف صاحب دمشق وحلب ولكن هذه الخطوة أودت بحياته لأنها أثارت غيرة زوجته شجر الدر التي دبرت لقتله مع عدد من أمراء البحرية، وقُتل عز الدّين أيبك في (14 ربيع أول 655هـ/ 31 مارس 1257م)، وهذا ما دفع المماليك المعزية للانتقام له بقتل شجر الدر بعد أيام[4] بالضرب بالقباقيب[5] ورمي الجثة من فوق أسوار القلعة، وبقيت أيام حتى دُفنت[6].

(1) "الإسكندرية": احدى الموانئ المهمة في مصر، وقد فُتحت سنة (20هـ/640م)، في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، وعلى يد عمرو بن العاص، الحموي، معجم البلدان، (ج182/1).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج59/1)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج192/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج34/7-37).

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج200/3).

(4) أبو شامة، الروضتين، (ص196)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج45/1-47، 61-62)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج200/3-201)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق395/1)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج92/1).

(5) قباقيب الخشب هو النعل المصنوعة من الخشب، ومصدرها اليمن، ويكون شراكه من الجلد وكان أحياناً يُطبع عليه الزخارف وترع بأصداف اللؤلؤ، ويستعمله في مصر الرجال والنساء على حدٍ سواء داخل الحمامات، ابن منظور، لسان العرب، (ج187/5).

(6) عدوان، المماليك، (ص40).

وبعد مقتل أيبك اجتمع أمراء المماليك لتعيين سـلطاناً جديداً، إلا أنهم اختلفوا في ذلك، وهذا الاختلاف جعلهم يعينون المنصور نور الدّين علي ابن عز الدّين أيبك سلطاناً رغم صغر سنه، على أن يكون سيف الدّين قطز نائباً له وفارس الدّين أقطاي المستعرب أتابكاً للعسكر، وكان ذلك يوم الخميس في (2 ربيع الآخر 655هـ/ 18 أبريل 1257م)[1].

إلا أن المنصور نور الدّين علي لم يدم طويلاً في السلطنة، حيث لاح خطر المغول، ففي (10 محرم 656هـ/ 16 يناير 1258م) سقطت بغداد بيد المغول خلال أربعين يوماً، وعاثوا في المدينة الخراب والقتل، حيث قُتِلَ خلق كثر، ومن بينهم الخليفة ومن معه من القضاة والفقهاء وأولي العقد والحل ببلاده، ولم يسلم من القتل سوى من استجار بدار الوزارة مؤيد الدّين العلقمي الذي كان له الجهد الكبير في مساعدة المغول على احتلال بغداد[2].

ونظراً لهذه الظروف وكذلك طيش المنصور نور الدّين علي، ولصغر سنه، حيث كان لا يجيد القيادة ويمضي وقته باللعب مع الحمام، يتفرج على مناقرة الديوك ومناطحة الكباش، ويركب الحمير[3]، قام قطز في (ذي القعدة – 657هـ/أكتوبر – 1259م) بعزله مستغلاً غياب كبار الأمراء في الصيد واعتقله وأخاه وأمه في قلعة الجبل.

وباعتقال المنصور نور الدّين علي بن أيبك بدأت سلطنة قطز، حيث أعلن نفسه ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر قطز وبرر فعلته هذه بأن غايته هي الاجماع على محاربة المغول بقيادة سلطان قوي، وأعلن أنه في حال انتهت هذه المهمة، فسوف يتخلى عن السلطنة وبعدها سَيُوَلّون من يشاؤون فقبل بعض الأمراء بذلك، ورفض البعض الآخر، فاعتقلهم قطز ثم حلف الجيش والأمراء بالولاء للسلطان الجديد[4].

وباشر سيف الدّين قطز بعدها خطواته لتمكين سلطنته وكانت هذه الخطوات مرهونة بصد الخطر المغولي عن مصر، فقام على الفور بجمع الأموال من الأهالي، ففرض ديناراً على كل رأس ذكر أو أنثى، وأخذ شهراً واحداً من أجرة الأملاك والأوقاف وأخذ زكاة مُعجَّلة من أموال

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/45-50)؛ المقريزي، السـلوك، (ج1/ق1/ص905)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/43-44).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/50)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/43-44).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص906).

(4) أبو الفداء، المختصـر في أخبار البشـر، (ج3/199-207)؛ الذهبي، تاريخ الإسـلام، (ج2/192)؛ المقريزي، السـلوك، (ج1/ق1/417-418)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/73،55)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج1/93).

الأغنياء والتجار، وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر، حيث بلغ مجموع ما جمعه من الأموال نحو ستمائة ألف دينار [1].

وكانت الخطوة التالية هي إعلان الحرب على المغول من خلال قتل رُسُل هولاكو الذي بعث بهم إلى القاهرة مهددين برسالة مليئة بالتهديد واستحقار المماليك[2]، وفي (15 شعبان 658هـ/ 25 يوليو 1260م) اجتمعت جيوش قطز مع باقي الجيوش التي أمر بتحركها من الصالحية معلناً الحرب على المغول[3]، وصادف هذا الوقت أن توفى منكو خان وحدث صراع على العرش فاضطر هولاكو للعودة لبلاده تاركاً فرقة عسكرية تتراوح من عشرة إلى عشرين ألف مقاتل بقيادة كتبغا[4].

وكانت الخطوة التالية من قطز لمحاربة المغول هي تحييد الفرنجة في القتال، فكان الاتفاق معهم عدم مساعدة المغول، وعدم القتال كذلك مع المسلمين، والسماح لقطز وجيشه بالعبور عبر الساحل متوجهاً إلى منطقة عين جالوت في شمال فلسطين، وبعد هذه الاتفاقية تحركت الجيوش في اتجاهين: الظَّاهِر بِيبَرْسُ الذي كان قد تصالح مع قطز، وعاد الظَّاهِر بعد تشرده هو ومماليك البحرية في الشام في زمن أيبك وذلك بُغية مقاتلة المغول، توجه مع مقدمة الجيش إلى غزة وقضى على الحامية المغولية هناك، ثم استدرج المغول إلى عين جالوت، فيما كان قطز مع باقي الجيش متوجهاً عبر الساحل لخداع العدو ومباغتته[5].

وفي (25 رمضان 658هـ/2 سبتمبر 1260م) كانت معركة عين جالوت، على أرض فلسطين، حيث وصل جيش قطز هناك الذي كان يضم كل أطياف المسلمين من مماليك وعرب، فقبائل الشام شاركت بنحو أربع وعشرين ألف مقاتل من بني مغير من آل فضل، وآل مُراء، وآل علي، وبني عطية، وبني مهدي، والعائذ وغيرهم وقبائل مصر شاركت بنحو أربعة عشر ألفاً من عرب هُوارة، وكذلك انضم إلى الجيش القوات الخوارزمية وعساكر الكرك الأيوبية، وبدأ المعركة الظَّاهِر بِيبَرْسُ بمن معه من قوات بسيطة من فرقة استطلاع، لتُخفي عن جيش المغول الحجم الحقيقي للجيش وتحركاته، وما أن استهان جيش المغول بالقوات الموجودة، فهجموا بكل قوتهم

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص417-437)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/55، 72-73).

(2) انظر ملحق رقم (1)، (ص148).

(3) أبو شامة، الروضتين، (ص207)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/36)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/214).

(4) حطيط، حروب المغول، (ص65).

(5) ابن اياس، بدائع الزهور، (ج1/93-95).

حتى خرج جيش قطز من وراء التلال، وصرخ قطز "وا اسلاماه[1] "وانقض على المغول وسحقوهم حيث أبلى الجيش وقطز بلاءً حسناً[2].

وفرَّت باقي القوات المغولية إلى الشام، حيث قام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بملاحقتهم وقضى عليهم، ثم لحق بهم قطز ووصل دمشق، وقام بتولية الولاة في دمشق وحمص وحماة وساحل فلسطين، وعاقَبَ مَن والى المغول وأعلن مصر والشام تحت سلطنته[3].

وكان من أبرز نتائج معركة عين جالوت هو فشل المشروع المغولي في احتلال مصر والشام، الذي كان سيؤدي إلى خراب بلاد المسلمين إلى المحيط الأطلسي[4]، وبالتالي فشل المشروع الصليبي وسياستهم في الشرق الأدنى، وكذلك إعادة توحيد مصر والشام[5]، وكذلك أصبحت سلطنة المماليك القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين[6]، وساعد هذا الانتصار على الاعتراف بهم[7].

ومن خلال ما سبق نجد أن قطز كان له دور كبير في وقف الزحف المغولي على الشرق الأدنى، وجلائهم عن بلاد الشام، وذلك رأيناه بوضوح منذ خطواته الأولى لتولي الحُكم وزهده فيه، عندما أعلن راياته وهي صد المغول، وبعها يولوا مَن شاءوا في الحكم من جهة، ومن جهة أخرى حرصه على توحيد جبهة المماليك وجهوده في ذلك من خلال العفو عن المماليك البحرية بقيادة بيبرس وإعادتهم إلى مصر، ليس ذلك فحسب بل عيَّن بيبرس قائداً للجيش، وأصبح بمثابة الرجل الثاني في الدولة وهذه إشارة قوية على مدى حرصه على وحدة المماليك وقوتهم، التي أدت إلى صد المغول، كما أنه جهَّز الجيوش وأرسلها إلى قتال المغول، بل وكان على رأسه، وكان له صولات وجولات أثناء الاشتباك مع المغول، مما رفع الروح المعنوية لدى الجنود المماليك وكانت سبباً في الانتصار... وبتلك الإجراءات التي اتخذها قطز في توحيد مصر والشام تحت حكم المماليك يكون قد أنهى فترة حكمه كسلطان، حيث قُتِل على يد بعض أمراء المماليك[8]، – الذي

---

(1) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، (ص74).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/82–83).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/366–381، 392)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/214).

(4) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، (ص247).

(5) الصيّاد، المغول في التاريخ، (ص315–320)؛ سالم، تاريخ مصر، (ص264).

(6) العسلي، مشاهير قادة الإسلام، (ص14).

(7) لبيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، (ص41).

(8) انظر (ص47).

سنتطرق له لاحقاً –، وتولى الظَّاهِر بِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي السلطنة بعده، في (ذي القعدة 658هـ/ أكتوبر 1260م)[1].

(1) أبو شـامة، الروضـتين، (ص207)؛ اليونيني، (ج361/1–367، ج17/2)؛ أبو الفداء، المختصـر في أخبار البشر، (ج214/3)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق431/1–441).

المبحث الثاني:
تعريف بالظَّاهِر بِيبَرْسُ

أولاً: نسبه ونشأته:

بِيبَرْسُ السلطان والْأَمِيرُ أُرّخَ له من قِبل كثير من المؤرخين، إلا أن بِيبَرْسُ الطفل والصبي لم يُعْلَم شيئاً عنه وعن طفولته سوى أصله وكيف وأين بيع، وذلك بسبب أن المؤرخين لم يهتموا بآحاد الناس والبسطاء، بل كانوا يبذلون جهدهم في السعي وراء السلاطين والملوك والحكام، إذ كانوا في معيتهم[1].

وما عُرِفَ عن بِيبَرْسُ[2] أنه كان تركياً[3] وقيل إنه: قفجاقي[4] أو (قبشاقي) الأصل وقيل أنه: من بَرْج أُغْلي من الترك[5]، وقد اختلف في سنة مولده حسب ما أورده المؤرخون فقيل إنها سنة (620هـ/1223م) وقيل إنها سنة (625هـ/1228م)[6].

وفي سنة (640هـ/1242م) أُسِرَ بِيبَرْسُ نتيجة الغزوات التي كانت في تلك الأوقات من قبل المغول وغيرهم لتلك البلاد وكان بِيبَرْسُ دون العشرين من العمر، وقيل: أنه كان في سن الرابعة عشر من عمره[7].

ونقل بعهدها عن طريق النخاسين إلى حماة لبيعه وتم عرضه على الملك المنصور صاحب حماة فرفض شراءه، وذلك ما أشارت به والدة المنصور على ابنها، حيث رأت في عيني بِيبَرْسُ ملامح شر، ثم نقل إلى مدينة دمشق، وبيع هناك لتاجر بثمان مائة درهم ولكن التاجر عَدَلَ عن شرائه لعيب في عينه (بياض في عينه) فرجع به التاجر إلى حماة مرة أخرى وباعه للعماد الضائع الذي باعه إلى الْأَمِيرُ علاء الدّين ايديكن البُنْدُقْدارِي الصالحي، وكان حينها

---

(1) قاسم، عصر سلاطين المماليك، (ص85).

(2) معناها باللغة التركية: أمير الفهد (بي أي "أمير"، برس أي: "فهد")؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج94/7).

(3) ابن عبد الظَّاهِر، تشريف الأيام والعصور، (ص2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص436)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج98/1).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج11/4)؛ وتورد أيضاً قبشاقي. المقريزي، السلوك، (ج1/ق637/1).

(5) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص376)؛ علي كرد، خطط الشام، (ص115).

(6) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، (ج159/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج95/7-96).

(7) خوري، سيرة الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص48).

محبوساً في جامع قلعة حماة من قبل صاحب حماة، بأمر من الملك الصالح نجم الدّين أيوب، ابن الملك الكامل صاحب مصر، وحينها كان مملوكاً للصالح، وربى عنده أربعة أعوام وبعدها انتقل إلى ملكية الملك الصالح أيوب سنة (644هـ/1246م)، وعُرف بعدها باسم: بِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي الصالحي النجمي الأيوبي التركي[1].

تزوج الظَّاهِر بِيبَرْسُ في حياته خمس نساء هن: امرأة من الشهرزورية[2] التي تزوجها في الكرك عندما كان فاراً من عز الدّين أيبك، ثم عاد وطلقها لما تسلطن[3]، ثم تزوج بنت الْأَمِيرُ سيف الدّين نوكبة التتاري[4]، ثم ابنة سيف الدّين كراي التتاري ثم أم الملك السعيد بركة خان[5]، ثم ابنة حسام الدّين بركة من دولة خان الخوارزمي[6].

وكان له ثلاثة أبناء وسبع بنات، وكان السعيد أكبر أبنائه الذكور، وقد أصبح السعيد سلطاناً خلفاً لوالده سنة (676هـ/1277م) ثم خُلِعَ سنة (678هـ/1279م)، حيث تولى السلطنة أخوه الثاني بدر الدّين سُلامش، ثم خُلِعَ في نفس السنة، وتسلطن قلاوون الألفي، ولم يتولَ ابنه الثالث نجم الدّين خضر السلطنة[7].

صفاته الخَلقية والخُلقية:

كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ ذا هيبة، طويل القامة، أسمر اللون، حَسَن الوجه، في عينيه زُرقة، وفي إحداها نقطة بيضاء، وكان مستدير اللحية تغلب عليها البياض، وكان جهوري الصوت[8].

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج4/11)؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، (ج1/160)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص436)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/95-96).

(2) "الشهرزورية": نسبة إلى مدينة شهرزور والتي تقع في الإقليم الرابع وهي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، ومعنى شهر بالفارسية المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد، الحموي، معجم البلدان، (ج3/375).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص640)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/179).

(4) النويري، نهاية الأرب، (ج30/368).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص640-641)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/179).

(6) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدرر الفريد، (ص291)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص640).

(7) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص615)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/179).

(8) المرجع نفسه، (ج1/ق1/ص637)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج1/110)؛ خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص211).

وكان الظَّاهِر بِيبَرْسُ شجاعاً مقداماً عالي الهمة معتنياً بأمور السلطنة، قصده واضح في نصرة الإسلام وأهله[1].

ثم إنه كان محباً للمخلصين له من الأمراء[2]، وحتى لأبنائهم بعد وفاتهم[3]، وكان للسلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ هيبة وحرمة في نفوس أمرائه وفي نفوس خصومه[4]، وقد شهد الأعداء، بذلك فقد أشاد بشجاعته القائد المغولي كِتبغا أثناء حديث له مع أمرائه[5] ويذكر أن تجار أعاجم مروا بسيس[6] في طريقهم إلى مصر، فاستولى صاحبها على بضاعتهم، فهدده بالظَّاهِر فأفرج عنها.

وكان بعض التجار يأخذون من الظَّاهِر بِيبَرْسُ تواقيع ليمروا بسلام في بلاد فارس وكرمان والقبجاق، وكانت هذه التواقيع تُحْتَرَم[7].

وكان الظَّاهِر بِيبَرْسُ ذا لياقة بدنية عالية وإن دل ذلك يدل من خلال ممارسته للقتال والجهاد، وكذلك حبه للصيد وممارسته للرياضة، حيث أنشأ الظَّاهِر بِيبَرْسُ ميداناً للعب الكرة عُرف بربع الملك الظَّاهِر وهو مكان ميدان قراقوش[8] فيما يعرف حتى يومنا هذا بالبولو والسباحة[9].

واشتهر الظَّاهِر بِيبَرْسُ بكثرة الجهاد والفتوحات، حيث لم يمضِ عام من سلطنته إلا وحقق بها إنجازات جديدة، ففتح في أيامه فتوحات كثيرة، منها: قيسارية[10] في الساحل وأرْسُوف[11]،

---

(1) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص376).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص637)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج180/7).

(3) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص595-598).

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج181/7).

(5) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص212).

(6) "سـيس": وهي سـيسـية وعامة أهلها يقولون سـيس وهو بلد من أعظم مدن الثغور الشـامية بين أنطاكية وطرسوس شمال الشام، الحموي، معجم البلدان، (ج297/3).

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج182/7).

(8) مبارك، الخطط التوفيقية، (ج66/9).

(9) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج337/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص601).

(10) "قيسـارية": بلد على سـاحل بحر الشـام تعدّ في أعمال فلسـطين وبينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وقيسـارية أيضاً مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم. الحموي، معجم البلدان، (ج421/4).

(11) "أرسـوف": مدينة على سـاحل بحر الشـام بين قيسـارية ويافا، في الإقليم الثالث. الحموي، معجم البلدان، (ج151/1).

ويافا[1]، الشقيف[2] وأنطاكيه[3] وبُغراس[4]، والقرانيص، وصافيتا[5]، وحصون كثيرة منيعة كانت بيد الفرنج وفتح جميع حصون الإسماعيلية في بلاد الشام[6].

وكذلك ناصف الفرنج على المرقب[7]، وبلنياس[8] وبلاد أنطرطوس[9]، وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون، وأخذ قيسارية الروم وخطب له فيها واستعاد من سيس بلاد كثيرة، واسترد من الخارجين على السلطان من المسلمين بعلبك[10]، بُصرى[11]، وصرخد[12]، وعجلون[13]،

---

(1) "يافا": مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا، في الإقليم الثالث. الحموي، معجم البلدان، (ج5/436).

(2) "شقيف أرنون": قلعة حصينة في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. الحموي، معجم البلدان، (ج3/356).

(3) "أنطاكية": تعد أهم مدينة من المدن المطلة على البحر المتوسط "بحر الروم"، وهي من أجمل المدن الشامية وتتبع بمائها العذب وكثرة الفواكه والهواء العليل، الحنبلي، مراصد الاطلاع، (ج1/124).

(4) "بغراس": مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، في البلاد المطلّة على نواحي طرسوس. الحموي، معجم البلدان، (ج1/467).

(5) "صافيتا": هي إحدى مدن محافظة طرطوس في سوريا، وتقع شمال شرق طرطوس، وتطل المدينة على عدة قمم جبلية. بن علي، خطط الشام، (ج5/221).

(6) شلبي، حياة الملك ظاهر بِيبَرْسُ، (ص377).

(7) "المرقب": اسم الموضع الذي يرقب فيه: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس. الحموي، معجم البلدان، (ج5/108).

(8) "بُلُنياس": كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر ولعلها سمّيت باسم الحكيم بلنياس. الحموي، معجم البلدان، (ج1/486).

(9) "بلاد انطرطوس": بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. الحموي، معجم البلدان، (ج1/270).

(10) "بعلبك": مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، في الإقليم الرابع بالشام. الحموي، معجم البلدان، (ج1/453).

(11) "بصرى": مدينة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً . الحموي، معجم البلدان، (ج1/441).

(12) "صرخد": بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، يُنسب إليها الخمر . الحموي، معجم البلدان، (ج3/401).

(13) "عجلون": مدينة تقع في شمال غرب الأردن، وهي محاطة بالجبال المرتفعة والتي تُعرف بسلسلة جبال عجلون. الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج48/402).

وحمص[1]، والصلت[2]، وتدمُر[3]، والرحبة[4]، وتل باشر[5]، والكرك[6]، والشوبك[7]، وأخذ بلاداً كثيرة من المغول منها البِيرة[8] وغيرها[9].

وأول فتوحاته قيسارية الشام بالسواحل، وآخر فتوحاته قيسارية الروم[10]، وأما عدد فتوحاته فقد تزيد على أربعين حصناً، وكان بيده مصر والشام وست وأربعون قلعة[11].

وكانت وفاة الظَّاهِر بِيبَرْسُ سنة (676هـ/1277م) بعد غزو آسيا الصغرى في معركة الأبلستين[12]، وهي آخر معارك الظاهر بيبرس التي غزا بها الأناضول التي كان يُسيطر عليها المغول، وانتصر فيها، ثم عاد إلى حلب، فدمشق، حيث توفي عصر يوم الخميس

---

(1) "حمص": بلد مشهور قديم كبير مسوّر، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تلّ عال كبيرة، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. الحموي، معجم البلدان، (ج302/2).

(2) "الصلت": مدينة بين البلقاء وعجلون، وهي في الأردن، وتكتب أيضاً: السّلط. الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج24/47).

(3) "تدمر": مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، وهي داخلة في الإقليم الرابع وهي من عجائب الأبنية، موضوعة على العمد الرخام. الحموي، معجم البلدان، (ج17/2).

(4) "الرحبة": قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة، فهي ناحية بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى. الحموي، معجم البلدان، (ج33/3).

(5) "تل باشر": قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة. الحموي، معجم البلدان، (ج40/2).

(6) "الكرك": اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض، والكرك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبكّ. الحموي، معجم البلدان، (ج452/4).

(7) "الشوبك": قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي، معجم البلدان، (ج370/3).

(8) "البيرة": بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرّوميةن وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. الحموي، معجم البلدان، (ج526/1).

(9) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص387).

(10) ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، (ج211/8).

(11) شلبي، حياة الملك الظَّاهِر، (ص377).

(12) "الأبلستين": وتسمى أَبُلُسْتَيْن وهي مدينة مشهورة في بلاد الروم، قريبة من آبسس مدينة أصحاب الكهف. الحموي، معجم البلدان، (ج75/1).

(28 محرم 676هـ/ 30 يونيو1277م) وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً، وقد تجاوز سِنَّهُ الخمسين سنة، وبعد مكوثه في السلطنة سبعة عشر عاماً وشهرين واثني عشر يوماً[1].

وفي حيثيات وفاته وأيامه الأخيرة يتفق المؤرخون أنه في نهار الخميس (14 محرم 676هـ/ 16 يونيو 1277م) بعد شربه القِمْز[2]، أحس بحرارة في اليوم التالي وتقيأ ثم ركب إلى الميدان وعاد إلى القصر الأبلق آخر النهار، وتناول دواء اجتهاداً من غير مشورة الطبيب، فزادت حرارته واسهال معدته، واستدعى الأطباء، فأعطوه دواء فلم يفده، فتضاعفت الحمى وتقيأ دماً ثم مات[3].

ولكن ما اختلف عليه بعض المؤرخون هو سبب الحمى، مع العلم أن المؤرخ ابن عبد الظَّاهِر الذي عاصر الظَّاهِر بِيبَرْسُ وكتب سيرته وكان بجانبه لم يَذكر شيئاً عن حكاية التسمم الذي ادّعاها بعض المؤرخون وكذلك ابن أبي الفضائل، وابن شداد، أيضاً لم يأتيا على حكاية التسمم[4] وقد وقف كلاً من ابن الفرات والمقريزي على الحياد في هذه الحكاية.

وفي حكاية التسمم يَروي بعض المؤرخون مثل اليونيني، أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ شعر بالحسد من القاهر بهاء الدّين عبدالمالك ابن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر أيوب الذي أبلى بلاءً حسناً في المعارك الذي خاضها بِيبَرْسُ في آسيا الصغرى في حملته العسكرية الأخيرة، فعلا صيته بين الناس فأراد بِيبَرْسُ التخلص منه فدعاه للشراب معه وأعد له سُماً، وكانت للظاهر بِيبَرْسُ ثلاث كؤوس يشرب بها وحده ولا يسقي منها معه إلا مَن يريد إكرامه، فبينما كان القاهر في قضاء حاجته دسَّ السلطان بِيبَرْسُ السم في كأسه، وأمسكها بيده إلى أن عاد القاهر فناوله إياها وشربها فقام السلطان لقضاء بعض حاجته وعاد للمجلس فكان الساقي قد أعاد ملء نفس الكأس الذي شرب به القاهر وأعطاه للسلطان الظَّاهِر فأخذها السلطان، وشربها من غير أن يفطن إلى أن

---

(1) الغوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، (293)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص636).

(2) "القمز": نوع من أنواع المخمور وهو لبن الفرس المحمض الذي كان معروفاً للمماليك في موطنهم الأصلي، لذا اقتصر شربه على طبقتهم. ماجد، نظم دولة السلاطين، (ج122/2).

(3) الغوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، (ص392–393)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج10/4)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدرر الفريد، (ص276–277)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص633)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج175/7–177).

(4) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص230).

يكون الساقي قد خلط بين الكأسين من غير أن يدري، وعلى الفور أحس الظَّاهِر بألم في بطنه، فعلم أنه شرب بقايا السم الذي كان في الكأس[1].

ويرى الباحث أن حكاية التسمم الذي وردت مستبعدة وذلك بسبب أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ اتهم بذلك، حاسداً القاهر على بطولته فأي حسد هذا بعد سبعة عشر عام جاهد فيها الظَّاهِر بِيبَرْسُ وله من الرصيد في فتح البلاد ما لا يناهزه أحد، فهل يُعقل أن قائد برز في حملة عسكرية واحدة يعلو نجمه على الظَّاهِر بِيبَرْسُ؟ وكذلك أسلوب الظَّاهِر بِيبَرْسُ مع خصومه كما سيتضح لنا لاحقاً ليس التصفية مباشرة وإن سلمنا أن هذا القائد (القاهر) أصبح خصماً، فالظَّاهِر بِيبَرْسُ يستعمل الحيلة، ويستخدم العطايا والأموال قبل كل شيء، فهل يُعقل أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ غيَّر أسلوبه الناجح في التعامل مع خصومه في آخر حياته؟؛ علاوة على أخلاق السلطان وخصاله الحميدة التي تمنعه من ذلك.

وعندما مات الظَّاهِر بِيبَرْسُ أُتخذ عدة إجراءات تحسباً وخوفاً من ردة فعل بعض الأمراء على تسلطن ابنه السعيد، حيث قام نائب السلطنة بكتم خبر وفاة السلطان، وكتب إلى ابنه السعيد يعلمه بوفاة أبيه ثم نُقلت الجثة في الليل كأن السلطان مريض إلى القصر الأبلق ونقله خاصة من الأمراء على رأسهم سيف الدّين قلاوون[2]، ثم غسلوه وحنطوه وتركوا الجثة بالقلعة، وأشيع أنه مريض ثم سار الْأَمِيرُ بدر الدّين بيليك الخازندار لابن السلطان بالجيش بمحفة فارغة يوهم أن السلطان فيها مريض إلى مصر[3].

وفي (26 صفر 676هـ/ 28 يوليو 1277م) وصل الخازندار إلى القاهرة ولما تسلم السعيد الخزائن والجيش أعلم خبر وفاة والده، وفي 27 صفر دعا الخطباء للملك السعيد، وصلّوا على السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ صلاة الغائب.

---

(1) الغوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، (ص392)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج10/4)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدرر الفريد، (ص276-277)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص635-636)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/177-179).

(2) هو الملك المنصور سيف الدّين قلاوون ابن عبدالله الألفي التركي الصالحي النجمي، سابع ملوك الترك بالديار المصرية، تولى الملك في رجب (678هـ/1279م)، وكان على يديه فتح معظم الحصون الصليبية في بلاد الشام عندما كان أميراً وقائداً في جيش الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وبعدها عندما أصبح سلطاناً، ومرض عند خروجه للغزو من القاهرة ومات في خيمته عند مسجد التبن في ذي القعدة سنة (689هـ/1290م)، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/293).

(3) الذهبي، العبر في خبر من غبر، (ج3/330).

كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ قد أوصى أن يُدفن على الطريق قريباً إلى داريا، لذلك كانت جثة الظَّاهِر لا تزال في دمشق فأمر السعيد بشراء دار العقيقي، وجعلها مدرسة للشافعية والحنفية وأنشأ فيها قبة لدفن الظَّاهِر، وتم البناء في آخر جمادي الآخرة من نفس السنة، وفي ليلة الجمعة 5 رجب حملوا جثة السلطان من القلعة على أكتاف الأمراء إلى جامع أمية حيث صلّوا عليه ثم دفن في قبة المدرسة[1].

---

(1) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدرر الفريد، (ص276–279)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص641–646)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/175–179)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج111/1).

ثانياً: دور الظَّاهِر بِيبَرْسُ في الدولة الأيوبية والمملوكية:

كان أول ظهور لبِيبَرْسُ المملوك زمن الملك الصالح نجم الدّين أيوب سنة (644هـ/1246م) عندما غضب الملك الصالح على علاء الدّين البُنْدُقْدارِي، وصادر أملاكه، وكان بِيبَرْسُ من ضمن هذه الأملاك[1]، وهذا هو أول ظهور، وهنا وجب التوضيح درءً للخلط الذي يحدث عند ذكر أول ظهور، فبعض المؤرخين يُرجعون أول ظهور لسنة (638هـ/1240م) عندما كان الملك الصالح نجم الدّين أيوب معتقلاً في الكرك بعد هزيمته من قبل الناصر داود في نابلس حيث اعتقل معه بِيبَرْسُ، وهذا بِيبَرْسُ هو غير بِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي لأن في هذا التاريخ كان بِيبَرْسُ مملوك لعلاء الدّين البُنْدُقْدارِي[2].

لقد أُعجِب الملك الصالح أيوب بِيبَرْسُ أثناء مشاهدته في التدريب للقتال، وقَرَّبَهُ إليه وأوكل له مهمة قائد الحرس الخاص به وقد شارك بِيبَرْسُ في الجيش الذي توجه به السلطان عام (646هـ/1248م) للرد على صاحب حلب الناصر صلاح الدّين يوسف، وهذه تُعد مشاركته الأولى الحربية بجانب الملك الصالح[3].

ومن ثم، كان الحدث الأبرز لظهور وشهرة بِيبَرْسُ في صد عدوان الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة كواحد من الفرقة البحرية بقيادة فارس الدّين أقطاي[4].

وبعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدّين أيوب، وتولي ابنه تورانشاه المُلك كان لبِيبَرْسُ الدور الهام في التصدي لتورانشاه عندما حارب المماليك البحرية، وتهددهم بالقتل فما كان من بيريس إلا وحرض على قتله، وبادر في الضربة الأولى في قتله[5].

وبعد هذه الحوادث أصبح بِيبَرْسُ اسم يتردد على لسان كبار زعماء البحرية مثل فارس الدّين أقطاي وعز الدّين أيبك، وبلبان الرشيدي[6].

وكان ظهوره في زمن عز الدّين أيبك يعد أول ظهور لبِيبَرْسُ في محنة تخصه وتخص المماليك البحرية وبرز دوره في القيادة الحكيمة لهذه المحنة فبعد أن قُتِلَ فارس الدّين أقطاي سنة

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/96).

(2) خوري، سيرة الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص50).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص230).

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/96).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص385)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/96).

(6) خوري، سيرة الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص52).

(652هـ/1254م)[1] من قِبَل عز الدّين أيبك الذي شعر الأخير أن فارس الدّين أقطاي يُشكل منافساً حقيقياً له في سلطنته، وللأسباب التي تم ذكرها سالفاً[2] فقد قام بِيبَرْسُ نتيجة لذلك وبعد أن شعر أن المواجهة ليست لصالحه بالفرار بجزء من البحرية من القاهرة[3]، وعندما وصل غزة التي اتخذها قاعدة انطلاق له[4] راسل الملك الناصر صلاح الدّين يوسف، وعرض عليه الدخول في طاعته، فوافق الملك الناصر، وحلف له بِيبَرْسُ بالطاعة والولاء، وأقطعه سنة (652هـ/1254م)، جنين وزرعين، وهما في فلسطين وقريبتين من مصر وبالتالي أسس قاعدة له للتحرك منها[5].

ولم يدم الدخول تحت طاعة الناصر يوسف طويلاً، حيث دخل الأخير في صلح مع عز الدّين أيبك بعد عام وبتدخل من الخليفة العباسي، وذلك بعد أن كان الناصر يوسف ينوي الهجوم على مصر بتحريض من بِيبَرْسُ، وبقيادته التي راح ضحية هذا الصلح، حيث اشترط أيبك عدم إيواء البحرية وكان له ذلك[6]، فقام بِيبَرْسُ بالنكاية بالناصر يوسف من دخول مدينة القدس والسيطرة عليها وخطب فيها للملك المغيث صاحب الكرك وكذلك هاجم الناصرة، واستولى على غلالها، واعتقل واليها، مما أدى لمواجهة مع الناصر يوسف في نابلس انتهت بهزيمة بِيبَرْسُ والبحرية، والذين انقسموا بعد الهزيمة إلى قسمين: قسم بقيادة الْأَمِيرُ عز الدّين أيبك الأفرم عاد إلى مصر، واستقبل استقبالاً حسناً[7] وقسم بقيادة بِيبَرْسُ حيث توجه للكرك، فأكرمهم المغيث، وذلك سنة (655هـ/1257م)[8].

هذا بِيبَرْسُ بعد فراره من مصر توجه إلى الشام تحت ولاء الناصر يوسف أسس بِيبَرْسُ قاعدة عسكرية له وللبحرية في جنين وزرعين وكانت قوة فرضت وهددت وجود أيبك لولا تدخل الخليفة العباسي، ولكن بِيبَرْسُ لم ييأس من الانتقام من عز الدّين أيبك، هو بعد فراره إلى الكرك يدخل في طاعة المغيث ويحرضه على احتلال مصر، فجهز المغيث حملتين من أجل ذلك،

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج199/3)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص392)

(2) انظر (ص28-31).

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج97/7).

(4) عطا الله، نيابة غزة، (ص186).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج88/7-89).

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص396-398، 406)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج208/7).

(7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج201/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج40/7-45).

(8) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص40)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج179/7).

وأنفق أموالاً طائلة وكانت الحملة الأولى سنة (655هـ/1257م) وكانت بقيادة بِيبَرْسُ والتقى الجيشان عند العباسية وأسفرت عن هزيمة بِيبَرْسُ وجيشه، وكانت الحملة الثانية (656هـ/1258م) حيث دارت معركة عند الصالحية بقيادة المغيث نفسه ومعه بِيبَرْسُ وأسفرت عن هزيمتها وبذلك لم يفلح بِيبَرْسُ في هاتين الحملتين وعاد إلى الكرك(1).

استغل الناصر يوسف هزيمة بِيبَرْسُ أمام قطز في معركة الصالحية وبعد عودة بِيبَرْسُ إلى الكرك هاجمه الناصر صلاح الدّين، لكن بِيبَرْسُ الذي كان يقود ما يقارب سبعمائة مملوك هَزَمَ الناصر يوسف ولحقه إلى محيط دمشق وتصدى له هناك الناصر يوسف ولكنهم لم يستطيعوا صدهم(2).

ونتيجة للصلح الذي عقد بين الناصر يوسف والمغيث صاحب الكرك، والذي اشترط به الناصر تسلم البحرية التي لدى المغيث، اضطر الظَّاهِر بِيبَرْسُ لمهادنة الناصر يوسف والدخول في طاعته مرة أخرى، وكان الناصر يوسف مضطراً لهذا بسبب ظهور خطر المغول الذين دخلوا بغداد، وأصبحوا على مشارف الشام(3)، ولكن سرعان ما خرج بِيبَرْسُ من هذه الطاعة بسبب موقف الناصر من مواجهة المغول، حيث أن الأخير كان متخوفاً من المغول(4)، ويُذكر أن الأَمِيرُ زين الدّين الحافظي أشار على الناصر يوسف مهادنة المغول فما كان من بِيبَرْسُ إلا أن ضربه، وخرج من طاعة الناصر يوسف(5).

واستعراضاً لما سبق نلاحظ ما واجهه بِيبَرْسُ بداية عند أسره من قبل المغول في صغره، مروراً ببيعه إلى أن أصبح مملوكاً للملك الصالح أيوب، وقوية شوكته وأصبح أميراً ذا شأن، ومن كبار أمراء البحرية إلى أن طورد، وطُرد من مصر خمسة سنوات بعد مقتل أقطاي، وشُرد بلا مأوى ولا مأكل هو ومن معه من البحرية، وتردد في الولاء تارة بين المغيث صاحب الكرك وأخرى مع الناصر يوسف ومن خلال التجربة أثبت الاثنان أنهما غير قادرين على مواجهة المماليك في مصر، ولا المغول حيث أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ في آخر فترته مع الناصر يوسف عرض عليه أن يقود أربعة آلاف فارس لمواجهة المغول عند الفرات، لمنعهم من العبور إلى الشام، لكن الناصر

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق406/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج45/7-46، 98-99).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج206/3).

(3) ابن شـــاكر الكتبي، عيون التواريخ، (ج161/1)؛ المقريزي، الســـلوك، (ج1/ق414/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزهرة، (ج57/7).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص410).

(5) المرجع السابق، (ج1/ق419/1-420).

يوسف رفض هذا الأمر(1)، وهذا كله جعل بِيبَرْسُ يغير حساباته بما يوافق الوضع الجديد، فالمغول على الأبواب والانتقام لأقطاي أصبح مستحيلاً مع حليف ضعيف وعندما علم أن مصر بقيادة قطز تعد العدة لمواجهة المغول قرر العودة لمصر والدخول تحت طاعة قطز، فرحب قطز بذلك.

وعند وصوله إلى غزة كاتب المظفر قطز صاحب مصر سنة (658هـ/1260م) وأرسل له الأخير صبري الوزيري يستحلفه، له فحلف له قطز، ووعده الوعود الكثيرة، فغادر بِيبَرْسُ غزة ودخل مصر يوم السبت (22 ربيع الأول 659هـ/ 23 فبراير 1261م)، فاستقبله السلطان بدار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها ثم عينه أتابكاً للعسكر وجعله نافذ الكلمة في تدبير أمور مصر وكان الرجل الثاني(2) في الدولة، بعد وقت قصير من عودة بِيبَرْسُ دخل المغول بقيادة كتبغا دمشق، وبعث بالرسل للقاهرة يتهددهم فما كان من بِيبَرْسُ إلا أن أشار على قطز بقتل رُسُل كتبغا، وكان هذا بمثابة إعلان الحرب(3).

وبدأ قطز الاستعداد للمواجهة مع المغول، وصدهم عن الديار المصرية، فيما عرف بمعركة عين جالوت وأوكل إلى بيرس المشاركة في وضع الخطط لهذه المعركة، وجعله مسؤولاً عن التسلح ورفع الروح المعنوية للجيش(4).

انطلق الجيش الإسلامي من الصالحية عابراً الساحل، وتحرك بِيبَرْسُ بقوة استطلاعية لمناوشة العدو، وقضى على الحامية المغولية في غزة، واستدرج عبر المناوشات المغول إلى عين جالوت، حتى وصل إلى هناك أيضاً المظفر قطز(5)، وهناك جرت معركة حامية على مراحل، فالمرحلة الأولى من المعركة توارى جيش المظفر قطز خلف التلال، وبرزت القوة الاستطلاعية بقيادة بِيبَرْسُ، وبدأ المعركة وكانت الغلبة في البداية للمغول، ودفعوا كل قوتهم مستهينين بجيش المسلمين، ظانين أنها القوة الرئيسية حتى اندفعت في المرحلة الثانية القوة الأساسية من الجيش بقيادة قطز، وتم الانقضاض عليهم كالأسود، وقضى على معظم جيش المغول، وأبلى قطز في

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج265/1).

(2) المرجع السابق، (ج365/1)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج309/3)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص426)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج101/7)؛ خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص58).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج365/1)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج96/1).

(4) الهمداني ، جامع التواريخ، (م2/ج313/1).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج365/1-366)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج101/7)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج96/1-97).

أرض المعركة بلاءً حسناً، وفرَّ باقي جيش المغول من أرض المعركة[1] لتبدأ المرحلة الثالثة وكانت مواجهة ثالثة في بيسان، وتلقوا هناك ضربة موجعة، وبعدها قام بِيبَرْسُ بملاحقة فلولهم إلى دمشق، ومن ثم حلب، ثم اصطدم معهم وهم محتشدون عند أفامية وانتصر عليهم هناك وبهذا استطاع بِيبَرْسُ أن يُطَهِّر بلاد الشام من المغول ويمهد للسلطنة المملوكية وكان ذلك بمعاونة ومقاومة السكان القائمين الذين ثاروا على المغول بمجرد وصول جيش المظفر قطز إلى هناك، حيث أجرى قطز الترتيب الإدارية اللازمة، فولى حلب لعلاء الدين بن بدرالدين لؤلؤ[2].

وهنا لابد من التوضيح أن قطز كما أثبتت الوقائع في المدة القصيرة التي لم تستغرق عام من الحكم، كان صاحب دور كبير وإنجازات كبيرة توجت بصد المغول عن بلاد المسلمين وتوسعهم، وذلك الأمر أثَّر إيجابياً في مجرى التاريخ الإسلامي فيما بعد لما هو أفضل، وأن قضية مقتلهم من بعض الأمراء هي خطيئة يتحمل وزرها مَن فعلها.

ثالثاً: أسباب ودواعي مقتل قطز:

تعددت الروايات في مَن يقف خلف مقتل السلطان قطز، ولكن جميعها أثبتت أنه قُتل من قِبل بعض أمراء المماليك في الصالحية أثناء عودته من بلاد الشام إلى مصر، بعد معركة عين جالوت، فيذهب اليونيني إلى أن بيبرس البندقداري، وسيف الدين الرشيدي، وسيف الدين بهادر المعزي، وبدر الدين بكتوت الجوكنداري المعزي، وسيف الدين بيدغان الركني، وسيف الدين بلبان الهاروني، وعلاء الدين أنص الأصبهاني، اجتمعوا جميعاً وقتلوا قطز[3]، فيما يذهب أبو الفداء والنويري أن بيبرس البندقداري اتفق مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي والهاروني وعلم الدين صنغ أغلي على قتل المظفر قطز، وساروا معه يتوقعون الفرصة، فما وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة، وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية، فبينما قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها، وساق هؤلاء المذكورين معه، فلما بعدوا، تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان، فأجابه إلى ذلك، فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها، فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحي حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص431)؛ خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص59).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج366/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج123/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص432)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/79-82، 101)؛ خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص59).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج434/1).

ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب[1]، وتتفق رواية ابن الوردي، مع رواية أبو الفداء والنويري، بأن صاحب الضربة الأولى في مقتل قطز هو بيبرس البندقداري الصالحي[2].

وتتفق رواية ابن تغري بردي مع الروايات السابقة، إلا أنه جعل الأمير أنص هو صاحب الذرة الأولى بعد أن قبض بيبرس على يدي قُطز وثبتهما.

ومما سبق يتضح لنا أن جميع الروايات التي جاءت في ذلك السياق تؤكد أن بيرس هو القاتل الفعلي والمباشر لقطز، علاوة على اعتراف بيبرس نفسه أمام أقطايّ المستعرب قائد الجيش بأنه هو القاتل، نتيجة نقاش حاد في مَن يخلف قُطز حيث كان الاختيار في البداية يتجه نحو الْأَمِيرُ بدر الدّين الرشيدي، وهو أحد كبار المماليك، وكان أيبك قد سجنه، وأطلقه قطز ليساهم في معركة عين جالوت، وكان الرشيدي بجانب كُبر سنه، يتمتع باحترام من قبل رفاقه، وكادوا أن يختاروه سلطاناً[3] لولا تدخل فارس الدّين أقطاي المستعرب الذي أعلن الْأَمِيرُ بِيبَرْسُ سلطاناً خلفاً لقطز، واستمد هذا الإعلان من مبدأ هو أن العادة في تلك الفترة أن تؤول السلطنة للملك القاتل وبِيبَرْسُ اعترف أمام أقطاي والأمراء أنه هو القاتل كما ذُكر، والثاني ما أعلنه أقطاي قائلاً: "اسمعوا يا أصحابنا والله لو كان المظفر حياً، أو له في عنقي بيعة لكنت قاتلتكم بسيفي، وإنما الساعة فقد فات فيه الفوت ولا شك أن الذي قتله وغرر بنفسه، وفعل هذا الأمر العظيم ما فعله لغيره فمن قتله فهو أحق بمكانته[4].

ورغم ما سبق مما يؤكد بشكلٍ جازم أن الأمير بيبرس البندقداري هو القاتل إلا أنه جاءت بعض الروايات تنفي دور بيبرس في قتل قُطز ومنها "رواية النويري" حيث قال: "إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله هم: الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي – خوشداشه – والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزي، والأمير سيف الدين بيغان الركني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، ومن ذكرنا، وكان الملك الظاهر يدعى أنه هو الذي قتله بيده، وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله، وإنما كان يدعى ذلك، افتخاراً"[5].

---

(1) أبو الفداء، المختصر، (ج453/1)؛ النويري: نهاية الأرب، (ج453/29).

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (ج203/2).

(3) حسن، تاريخ الأيوبيين، (ص164).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج370/1، ج1/2-2)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج216/3-217)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق436/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/7، 83-84، 101-102)؛ خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (63).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج305/29).

وكذلك رواية ابن العميد حيث قال فأما الملك المظفر قطز صاحب مصر لما عاد إلى الشام من الديار المصرية قُتل على منزلة القصير قريباً من الصالحية في أطراف الديار المصرية، وذلك أنه لما مضى إلى الصيد في نفق يسير من مماليكه، وكان قد اتفق على قتله جماعة من الأمراء، أمراء دولته فركبوا إليه وانتقوه وهو عائد من الصيد فتقدم إليه أنص الأصبهاني ليقبل يده وكان شديد القوة فقبض على يده وجذبه فأخرجه من سرج فرسه وتكاثروا عليه فأرموه عن فرسه وقتلوه يوم السبت (15 ذي القعدة 658هـ/ 21 أكتوبر 1260) [1].

وفي رواية اليافعي حيث يقول :"لما رجع الملك المظفر بعد شهر إلى مصر أدمر شراً إلى بعض أهل الدولة، وآل الأمر إلى أن رماه بهادر المعزي بسهمٍ قضى عليه بقرب قطية[2].

ونلاحظ مما سبق أن هذه الروايات التي تبرأ بيبرس من مقتل قُطز فهي تُبرّأه من باب عدم ذكر اسمه، كقاتل مباشر، رغم أن هذه الروايات لم تذكر أسماء تفصيلية للأمراء الذين كانوا مع القاتل المباشر، لذا أرجِّح إلى أن القاتل الرئيس ليس بيبرس، ولكن لا يوجد أي دليل بأنه لم يكن من ضمن الذين تآمروا على قتل قطز وقضية اعترافه أمام المستعرب أقطايّ أنه القاتل تأتي من باب أن الخيار القوي الذي كان سوف يُنادى به سُلطاناً هو الأمير بدر الدّين الرشيدي، فلو ترك بيبرس المفاضلة بين القاتل الحقيقي المباشر لقطز وبين هذا الأمير لأفضى الأمر إلى هذا الأمير اعتباراً لمكانته، فاجتهد بيبرس بإعلانه أنه القاتل، لتشكيل خيار قوي بطرح نفسه، وذلك لمكانته العالية بين الأمراء.

وفي (17 ذي القعدة 658هـ/23 أكتوبر 1260م) بايع الأمراء السلطان الجديد، وكذلك العسكر، فحلفوا له اليمين بعد أن وعد بِيبَرْسُ بعضهم بأنه يعطيهم من الخُلع والأموال ما تقع عليه يديه، وكذلك بايعه القاضي برهان الدّين عندما جاء على رأس جيش لاستقبال قطز فعلم بما حدث، فما كان منه إلا مبايعة بِيبَرْسُ[3].

---

(1) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، (ص55).

(2) اليافعي، مرآة الجنان، (ج113/4).

(3) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدرر الفريد، (ص208)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص436)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج102/7)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج98/1)، فيقولان أنه تسلم السلطنة في 15 منه ولعل فرق اليومين يعود للمشاورات التي جرت.

وبدأ بِيبَرْسُ بتعيين إدارته الجديدة على الفور، فعيّن فارس الدّين أقطاي المستعرب أتابكاً لعساكره، واستخدم الأمراء الذين كان الملك الصالح نجم الدّين أيوب قد اختارهم ثم تلقب بالملك القاهر وسرعان ما نصحه الوزير زين الدّين بن الزبير إلى تغييره إلى الظَّاهِر، ففعل[1].

وفي (9 ذي القعدة 658هـ/ 15 أكتوبر 1260م) دخل السلطان القلعة ونادى المنادي في القاهرة: ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدّين بِيبَرْسُ وقد كانت القاهرة قد تزينت لاستقبال المظفر قطز بعد نصره من عين جالوت، وبقيت على زينتها، واستقبلت السلطان الجديد وتوافدت الوفود من زعماء الناس وحلفوا اليمين للسلطان الجديد، ونودي آخر النهار في نفس اليوم باللقب الجديد: الملك السلطان الظَّاهِر ركن الدّين أبو الفتوح بِيبَرْسُ[2].

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج372/1، ج3/2)؛ أبو الفداء؛ المختصر في تاريخ البشر، (ج217/3)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدرر الفريد، (69–70)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص436–437)؛ ابن أبي الفضائل، يختلف عن الآخرين بجعل موعد وصول القلعة في 6 ذي القعدة .

(2) أبو شامة، الروضتين، (ص411)؛ ابن عبد الظَّاهِر، تشريف الأيام والعصور، (ص1–2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج94/2).

الفصل الأول:

الأسباب الإيمانية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ

المبحث الأول:
صفات الظَّاهِر بِيبَرْسُ الإيمانية

أولاً: أخلاقه وصفاته:

1- تعظيمه وتقديره للعلماء:

ومن أحوال الظَّاهِر بِيبَرْسُ الصالحة تعظيمه وتقديره للعلماء فقد كان يقيم للمشايخ وزناً كبيراً، وذلك من ناحيتين: الأولى أدبية، وذلك لمكانتهم الدّينية، والثانية: سياسية، إذ أدرك مدى سلطانهم على العامة ونفوذهم، لذلك كان يُدرك مدى خطرهم على سلطانه من جراء هذا النفوذ، لذلك كان يقوم بزيارة كبارهم تيمناً بهم، واحتراماً لهم[1].

ومن خلال الاطلاع على تعامل الظَّاهِر بِيبَرْسُ مع هؤلاء العلماء تبين لنا سياسته تجاههم، فهذا الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام يرفض مبايعة الظَّاهِر بالسلطنة قبل التأكد من أن الملك الصالح نجم الدّين قد أعتقه، فما كان من الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلا أن احترمه، وأذعن لطلبه، وأثبت ذلك من خلال الوثائق والشهود، وقد اعتبر الظَّاهِر بِيبَرْسُ شهادة العز بن عبد السلام بألف شهادة، واستشاره فيمن يوليه القضاء في مصر، ثم عندما مات الشيخ العز بن عبد السلام حضر جنازته سنة (660هـ/1262م)، ما يدل على مقدار خشية الظَّاهِر بِيبَرْسُ من الشيخ العز بن عبد السلام، وكذلك احترامه لرأيه، والأخذ به ما قاله بعد وفاته أن سلطانه لم يتوطد قبل موت ابن عبد السلام[2]، وذلك يدل على مدى احترام الظاهر بيبرس للعلماء وبالأخص للملك عز ابن السلام حيث كان يعتبر رأيه ملزماً له، لذا فقد قال مقولته السابقة.

وكذلك مما يؤكد سياسة الظَّاهِر بِيبَرْسُ تجاه العلماء القائمة على التعظيم والتقدير علاقته بالقاضي ابن بنت الأعز، وقد كان له منزلة كبيرة عند الظَّاهِر إذ ولَّاه قاضي القضاة، وأوكل إليه النظر في الدواوين الوزارية، ولم يقبل بوشايات الصاحب بهاء الدّين عليه حين تحقق من كذبها[3].

ثم الشيخ الإمام أبو محمد شمس الدّين عبد الله بن شرف الدّين محمد بن عطاء الحنفي

---

(1) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص27).

(2) كان ابن عبد السلام جريئاً، حيث لزم الملك الصالح إسماعيل في جامع دمشق حين سلم الفرنجة صفد والشقيف، واسقط عدالة الوزير لسماحه وضع طبلخاناة على سطح المسجد. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج505/1، ج174/2-175)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد ، (ص105).

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج413/3)؛ ولد سنة (614هـ/ 1217م)، وتوفي سنة (665هـ/1267م). اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/ص369-321).

وكان قد رفض مسايرة الظَّاهِر عندما أراد مصادرة أملاك أهل دمشق وبساتينهم تجهيزاً لحرب الصليبيين والمغول وأن قضاة آخرين من المذاهب الأربعة لانوا للظاهر بالكلام، ولكن ابن عطاء الحنفي قال: إنه لا يحل لمسلم أن يتعرض لأراضي مملوكة وغضب الظَّاهِر بحجة أنه نفى عنه صفة الإسلام، لكنه عاد فرضي عنه واستعظمه حين لم يلن، ولم يتراجع[1].

وكذلك محيي الدّين أبو زكريا النووي وقد بلغ منه أنه وافق الظَّاهِر بِيبَرْسُ غير مرة في دار العدل بسبب مصادرة بساتين دمشق وغير ذلك، وكان الظَّاهِر يقول: إنه يخشاه بمجرد رؤيته[2].

ويتضح لنا مما سبق حقيقة تعظيم وتقدير العلماء عند الظَّاهِر بِيبَرْسُ وهو السلطان والحاكم وصاحب القوة رغم ذلك كان يقبل معارضة العلماء لقراراته، ويأخذ بنصائحهم.

2- صحبته للصالحين.

فقد كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ ذا علاقة مع هؤلاء الرجال الذين عرفوا بصلاحهم، ورغم أن هذه العلاقة كانت في الأغلب علاقة رسمية قانونية إلا أنه كان يضم علاقة أبعد من ذلك مع البعض، ويتعلق بهم لصلاحهم ومنهم الشيخ خضر[3] وقد وصل هذا الأخير إلى درجة عالية من النفوذ بسبب هذه العلاقة مع السلطان، حيث صدرت منه أفعال لا يقدر عليها إلا أصحاب النفوذ، منها: هدم كنيسة بالقدس وقتل قسيسها، وهدم كنيسة أخرى بالإسكندرية، وبنى له السلطان زوايا كثيرة في القاهرة والقدس وبعلبك وحماة وحمص وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة[4].

ومع هذا التعلق من قبل الظَّاهِر بِيبَرْسُ بهذا الرجل الصالح لم يتوانَ عن معاقبته عندما زاغ عن طريق الصلاح، واتُّهم بقضايا فساد كثيرة حقق بها الظَّاهِر بِيبَرْسُ بنفسه سنة (671هـ/1273م)، وعندما تبين له صحتها أودعه السجن إلى أن مات فيه سنة (676هـ/1277م)[5]، وهذا إن دل يدل على أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ كان تعلقه بصلاح هذا الرجل وأمثاله من الصالحين، وليس بشخوصهم، وهذا خُلق عظيم يمتلكه الحاكم أمثال الظَّاهِر بِيبَرْسُ،

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/246-247).

(2) ولد سنة (631هـ/1235م)، وتوفي في (676هـ/1277م). ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/277-278).

(3) الشيخ خضر ابن أبي بكر ابن موسى المهراني العدوي، توفي سنة (676هـ/1277م). المقريزي، الخطط، (ج2/431).

(4) المرجع السابق، (ج2/430-432).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج7/1-10)؛ ابن شاكر الكبتي، عيون التواريخ، (ج1/200)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص608).

امتثالاً وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[1].

3- التواضع:

فقد برز خلق التواضع جلياً في شخصية الظَّاهِر بِيبَرْسُ رغم ما عرف عن شخصيته من شدته، ولكنها على الأعداء، وعرف هذا التواضع في جميع المجالات، فعلى صعيد بِيبَرْسُ الحاكم ففي سنة (660هـ/1262م) مَثُلَ أمام القضاء مطالباً باسترداد بئر مياه كان حفرها في عهد عز الدّين أيبك وتواضعاً منه لم يسمح للقاضي أن يقف له لأنه جاء متقاضياً، ووقف بجانب خصمه[2].

وعلى الصعيد العسكري كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ من التواضع الحقيقي بين جنوده فها هو في فتح قيسارية سنة (663هـ/1265م) يشترك بنفسه في الهجوم حيناً، ويرابط مقابل القلعة حيناً آخر، ويعتلي دبابة ذات عجل، ويسير على السور ليرى الثقوب ثم يقاتل حيناً أخرى[3]، فلم يمنعه كونه قائداً أعلى للقوات المسلحة من القيام بالمهام، وإن دنى شأنها، أو يقف بكل تواضع لتحصيل حق له من بئر مياه أمام القضاء، رغم أنه يستطيع لكونه سلطان أن ينتزع حقه بقوة سلطانه، ولكنه التواضع الذي تَخَلَّقَ به وجعل ذلك أسلوباً عملياً من حياته كسلطان، وحاكم مسلم، امتثالاً لقوله تعالى على لسان نبيه عيسى عليه السلام ﴿ ...وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾.[4]، فالتواضع يرفع صاحبه، فقد قال رسول الله ﷺ: "...وما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ"[5]، ومن رفعة الله نصره وتمكينه في الأرض.

ثانياً: الإنجازات التي حققها الظاهر بيبرس من خلال أعماله الصالحة:

1- إعمار وترميم الأماكن المقدسة وبناء المساجد:

كانت الناحية الدّينية هامة عند الظَّاهِر بِيبَرْسُ لما تحقق له من أغراض واحتياجات على جانبين: الجانب الأول يتمثل في الوازع الدّيني، أما الجانب الآخر فكان تدعيماً لموقعه السياسي والعسكري، والظَّاهِر بِيبَرْسُ كان حسن الإسلام شديد التمسك بكل جوانبه حتى أنه أمر ببناء جامع من خيام قرب خيمته للصلاة بها في حال تنقله[6]، وإن دل هذا فيدل على مدى اهتمام الظَّاهِر

---

(1) سورة يونس، آية (62-63).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج488/1، ج154/2).

(3) أبو شامة، الروضتين، (ص233-234)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج318/2-319).

(4) سورة مريم، آية (32).

(5) [مسلم: صحيح مسلم، باب استحباب العفو والتواضع، ج2001/4: رقم الحديث 2588].

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص445).

بِيبَرْسُ كسلطان وعلى إقامة شريعة الصلاة، لما لها أهمية في توفيق الله له بالنصر والتمكين علاوة على كونها ركن من أركان الإسلام العظيم، وإقامة هذا الركن حتى في أوقات الجهاد.

ومن أعماله الدائمة الذي عرف بها بهذا الصدد: الإعمار والاهتمام بالأماكن المقدسة ومنها مكة المكرمة والمدينة المنورة، ففي سنة (659هـ/1261م) أرسل الأموال والمعدات لعمارة الحرم النبوي بالمدينة المنورة، وفي شعبان سنة (661هـ/1263م) قام بكساء الكعبة المشرفة[1].

وفي رمضان من السنة نفسها قام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بإصدار أوامره بتجهيز البنائين والنجارين والآلات والأخشاب وإرسالهم إلى المدينة المنورة لبناء الحرم النبوي بعد حريق أصابه، وكان حريصاً أن يعرف هذا العمل عنه، فأمر بأن تُحمل الأدوات والأخشاب على بغال ويطاف بها في مصر والقاهرة، وأن يركب معها أرباب الدولة والقضاء والمدرسون والصوفية والقُرَّاء[2].

وفي سنة (662هـ/1264م) خُطِبَ للظاهر بِيبَرْسُ بمكة المكرمة[3]، وفي رمضان من نفس العام صنع كسوة قبر النبي ﷺ في المدينة المنورة، وأرسلت لها الشموع وضمخت بالبخور والطيب والزيت[4].

ثم قام بحملة إعمار بمكة والمدينة لمدة خمس سنوات ما بين عام (663-667هـ/1265-1269م)، حيث أرسل كل ما يلزم هذا الإعمار من أخشاب ورصاص وحديد ومهندسين، يرأسهم نائب دار العدل[5].

كذلك اهتم الظَّاهِر بِيبَرْسُ بترتيب الشؤون السياسية في مكة والمدينة بنفس الدرجة التي اهتم بها بترتيب شؤون الإعمار، فتدخل في الخلاف الناشب بين أمراء مكة بين مالك بن منيف بن شيحة الحسيني وعمه عز الدّين جماز، وسوى الأمر بينهم؛ بحيث يكون مالك والي المدينة، وعمه غادر إلى مكة، وقرر لهما الظَّاهِر بِيبَرْسُ مبلغاً من المال على أن لا يأخذا فلساً واحداً من الحجاج، وأن لا يمنعا أحداً من زيارة الأماكن المقدسة وأن لا يتعرض أحد لتاجر، وأن تكون

---

(1) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص108).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/534-535، ج2/195)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص502).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص504-505).

(4) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص512).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/325-346).

الخطبة والسكة باسمه[1]، وعيَّن الْأَمِيرُ شمس الدّين مروان نائباً عنه بالحجاز[2]، وبهذا بسط نفوذه السياسي والأمني على مكة والمدينة.

وقبل الشروع بحملته العسكرية على آسيا الصغرى سنة (667هـ/1269م) ذهب للحج متخفياً[3] وهناك استغل هذه الزيارة، حيث دعا بني رسول[4] صاحب اليمن الذي التقاه في الحج وحثّه على محاربة المغول، وأحسن إلى أمراء ينبع وأكابر الحجاز[5].

أما على صعيد الجامع الأزهر[6] في مصر، ففي (18 ربيع الآخر 665هـ/ 15 يناير 1267م) أعاد صلاة الجمعة والخطبة إليه بعد مناقشة بين الفقهاء واتخاذ القرار بذلك بعد أن كان الحاكم بأمر الله الفاطمي قد نقل الخطبة إلى الجامع الأنور[7].

وكذلك حظيت مدينة القدس والخليل بالاهتمام من قبل الظَّاهِر بِيبَرْسُ، ففي سنة (659هـ/1261م) أرسل عمالاً ومعدات لبناء قبة الصخرة، واستعاد ما كان الأمراء قد استولوا عليه من أوقاف الخليل، وفي جمادي الآخرة سنة (661هـ/1263م) زار القدس، وأوصى بحماية قبة الصخرة، وتأمين نفقات القائمين عليها، وفي صفر سنة (662هـ/1264م) أوقف فيها خاناً

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/387، 408-409)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/510، 579-584).

(2) عبدالمنعم، المجتمع الحجازي، (ص12).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/409-410)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج4/605)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص86-87، 90-95)؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج1/107).

(4) "بنو رسول": يرجع نسبهم إلى جدهم الأكبر محمد ابن هارون ابن أبي الفتح، وأما سبب تكنيته برسول فترجع إلى أن الخليفة العباسي آنس فيه رشده وعقله، فاختصه لسفارته إلى السلطان في مصر والشام، لأنه كان يتمتع بصفات شخصية ممتازة، ما أكسبه ثقة الخليفة العباسي، فقد كان يُرسل ويستقبل الرسائل عبره مشافهة، وهذا يدل على الثقة فيه، وقد حكم بنو رسول اليمن من سنة (630هـ/1233م حتى 855هـ/1451م)، يحيى ابن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، (ج1/419).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/581-584)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص91-92).

(6) "جامع الأزهر": أنشأه جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي، المعز لدين الله الفاطمي، شرع ببنائه سنة (359هـ/966 م)، أكمل بنائه سنة (361هـ/971م)، حيث استغرق بناؤه عامين، وهو أول مسجد بني في القاهرة، ولا يزال حتى يومنا هذا قائماً، المقريزي، الخطط، (ج2/273)؛ فراج، الدولة الإخشدية، (ص192).

(7) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/434).

كبيراً عرف بخان[1] الظَّاهِر، كما قام بتجديد قبة السلسلة[2]، وأوقف لهذا الخان نصف قرية لفتا[3]، وبعض القرى الصغيرة بأعمال دمشق، وجعل في الخان فرناً وطاحونة[4]، وجعل للمسجد الذي فيه إماماً، وشرط فيه أشياء من فعل الخير وتوزيع الخبز على بابه وإصلاح حال النازلين إليه[5]، وكذلك أنشأ مدرسة بيت المقدس التي سُميت "دار الحديث" على طريق باب السلسلة[6]، ورتب لمدينة الخليل سُماطاً[7] ورواتب للمقيمين والواردين، وفي سنة (665هـ/1267م) أمر بالتنقيب عن الماء في القدس، وحفر بئراً فيها[8].

وكانت من سياسات الظَّاهِر بِيبَرْسُ الإكثار من الصدقات، وخاصة في رمضان[9] حيث أمر المطابخ بإطعام المساكين وتوزيع صدقات عليهم، وقد بلغ عدد المطعمين من هذه المطابخ خمسة آلاف نفْس في اليوم الواحد[10].

وهكذا نجد أن سياسة الظَّاهِر بِيبَرْسُ الدّينية كانت مبنية على احترام المظاهر الدّينية

---

(1) "خان": كلمة فارسية أصلها خانا، وتعني البيت أو الدار، ثم استعملت اللفظة بكثرة في مصر والشام، والخان عبارة عن مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الصغيرة والكبيرة ومستودعات للبضائع، ويتوسط الخان فناء ضخم على هيئة رواق مغطى، حيث يحتفظ التجار ببضائعهم، ويجدون في الخان مأوى لهم ولدوابهم، فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، (ص213).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص445، 560).

(3) "لفتا": هي أرض كنعانية أول من عاش بها كان اليبوسيين، تعاقبت عليها الأمم مثلها كسائر المدن العربية الفلسطينية، قبل احتلالها عام 1948 من قبل عصابات الحركات الصهيونية، وكان يعيش بها سكانها العرب، ومنذ ذلك التاريخ خلت منازلها من سكانها الأصليين، فاندرج اسم لفتا ضمن القرى الفلسطينية المهجرة، في الإحصاءات العامة تعتبر لفتا قرية ولكن بالواقع هي بلدة لأراضيها الشاسعة ولعدد سكانها ولأهميتها الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية. صيام، القدس بلدتي ولفتا قريتي، (ص50).

(4) النقر، تاريخ بيت المقدس، (ص58).

(5) عاشور، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص160).

(6) فوزي، الوسيط في تاريخ فلسطين، (ص227).

(7) "سُماطاً": هو ما يُبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين، ويطلق أحياناً على المائدة السلطانية، دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (ص 92).

(8) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص504).

(9) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص505، 513).

(10) المرجع نفسه، (ج1/ق215/1)؛ عاشور، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص170).

والقيام بما يتطلبه الدّين من طقوس وعبادات، وعلى إنشاء الجوامع والمزارات والخوانق[1] والزوايا[2] والأوقاف، وعلى العناية بالمدن المقدسة، ونلاحظ أنه كان حريصاً أن تُعرف أعماله وتذاع بين الناس تشجيعاً للغير، وأن يكون بمثابة القدوة الحسنة في هذا الجانب وغيره...

2- رعاية الأيتام:

فقد عني الظَّاهِر بِيبَرْسُ بالأيتام على صعيد سن القوانين التي تكفل لليتيم حقه، وعلى صعيد كفالته وسد حاجته، ففي سنة (661هـ/1263م) حضر الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلى دار العدل في القاهرة، وأوصى بعدم استيلاء الوصي على أموال خشداشيته، حتى لا يضيع مال اليتيم، وأمر بضبط أموال اليتامى والتحقيق مع الأوصياء[3].

وفي سنة (662هـ/1264م) سامح الظَّاهِر بِيبَرْسُ بنات الْأَمِيرُ حسام الدّين الجوكندار مما يجب لبيت المال من تركة أبيهن، وكما فعل بابن شهاب الدّين القَيمُري إذ أبقى عليه إقطاع أبيه[4]، فكيف يغفل هذا السلطان العظيم عن أجرٍ يُقربه إلى النبي ﷺ في الآخرة، يُكسبه بركة في الدنيا التي توصله إلى النصر والتمكين حيث أن هديّ النبي ﷺ في الأيتام يتمثل في قوله: " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما"[5].

3- الاهتمام بالفقراء وذوي العاهات الخاصة:

فالظَّاهِر بِيبَرْسُ لم يغفل عن هاتين الفئتين رغم انشغاله في الجهاد في سبيل الله، فقد كان أيضاً همه بناء الدولة التي هي الرافد الحقيقي لجهاده، والاهتمام بمثل هذه الفئات هي من صلب عمل الدولة، وحتى لا يقع ظلم على مثل هذه الفئات.

وحيث كثر الفقراء في تلك الفترة، وكذلك أصحاب العاهات في المجتمع المملوكي، فكان الظَّاهِر بِيبَرْسُ يوليهم عنايته، ويجمعهم في أمكنة خاصة، لاسيما في أوقات المجاعات، وهذا ما

---

(1) "الخوانق": مفردها خانقاه وهي بقعة يسكنها أهل الصلاح والصوفية، الزبيدي، تاج العروس، (ص260).

(2) "الزوايا": مفردها زاوية وهي ركن الدار، وهي تُطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لبضع أشخاص وهي مقر للصوفية وفقراء العجم والأيتام وغيرهم، ويصلح لهذا المكان للتعبد فيه لشخص واحد حتى عشرة، الطويل، التصوف في مصر ابان العصر العثماني، (ص42).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص500).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/483).

(5) [البخاري: صحيح البخاري، باب اللعان، ج7/54: رقم الحديث 5304].

جعل الظَّاهِر بِيبَرْسُ يكثر من إنشاء الخوانق والأوقاف[1]. ويذكر أن مصر في زمن المماليك تعرضت لعدة مجاعات ففي سنة (660هـ/1262م) اشتد الغلاء ببلاد الشام عامة، ومات الكثيرون من الجوع[2]، وفي ربيع آخر سنة (662هـ/1264م) غلت الأسعار في مصر، فلجأ السلطان إلى خطة لتسعير السلع، إلا أنها لم تُجدِ نفعاً، فعمد إلى بيع خمسمائة إردب[3] يومياً من المونة بأسعار قليلة ما أجبر باقي التجار لخفض أسعارهم، وكذلك جمع الفقراء ووزع بعضهم على الأمراء لإطعامهم[4]، وفعل مع نفسه الشيء نفسه، كما قام بضبط النقود الناصرية المزيفة، وخفض مبلغ ضمان ضرب النقود، ثم أمر بإلغاء الضرائب[5].

وهذا كله يدلل على أحواله الصالحة وكذلك أعماله، وأنه رجل دولة وسلطان بمعنى الكلمة، يدير الأزمات ويقف عند مسؤولياته كسلطان، حيث أدرك أن معية الله تأتي من خلال الأعمال الصالحة، وهذه المعية حرص عليها الظَّاهِر بِيبَرْسُ في كل تصرفاته وقراراته، حيث أنه أدرك أن النصر والتمكين من عند الله، فلابد من معيته ليتحصل عليها، وأدرك معنى حديث رسول الله ﷺ: " الخلقُ عيالُ اللهِ فأحبُّهم إلى اللهِ أحسنُهم لعيالِه"[6].

4- محاربته للفساد:

فقد عمد الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلى كبح هذه الآفات المدمرة للمجتمع؛ فحاربها، ولذلك أصدر عدة مراسيم سنة (662-663هـ/1264-1265م)، فقد حرم الحشيشة والخمور والمخدرات وشربها لأسباب دينية وعسكرية، وكذلك حرم المذر[7]، وأغلق بيوته، ومنع النساء من التزين بأزياء الرجال، وفي ذي القعدة من نفس السنة التالية ألغى ضمان الحشيشة، وأدَّب آكليها[8] وأعاد إعلان هذه المراسيم سنة (665هـ/1267م)، ومنع النساء من العمل في الخانات حتى أنه أمر بصلب

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص553).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/499، ج2/162).

(3) "إردب": مِكْيالٌ ضَخْمٌ بِمِصْرَ، أو يَضُمُّ أربعةً وعشرينَ صاعاً (أو سِتُّ وَيْباتٍ). الفيروز أبادي، القاموس المحيط، فصل الراء، (ج1/89).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص506-508).

(5) المرجع السابق، (ص506).

(6) [الطبراني: المعجم الأوسط، من اسمه محمد، ج5/356: رقم الحديث 5541].

(7) "المذر": أو المِزْر نوع من الجعة (البيرة) يصنع من الذرة أو الشعير أو الحنطة. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، (ج1/137).

(8) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص550-553).

ابن الكارزوني في حالة سكره، وعلق الكأس والجرة في عنقه[1] وخاف الناس، وامتنعوا عن الشراب، حتى قال الشاعر:

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه رَبْعَه المأنوس

وفي سنة (667هـ/1269م) أمر بإزالة الخمور[2]، وفي سنة (668هـ/1270م) قام بحملة تفتيشية على حانات الشراب والخمور، وفي سنة (669هـ/1271م) أعاد إعلان المراسيم المحرمة السابقة، وفي سنة (670هـ/1272م) أمر بإراقة الخمور وإزالة المنكرات، وفي سنة (671هـ/1273م) رفض أن يمنح المغنين خُلعاً وهدايا، وفي نفس السنة شنق مملوكاً شَرِبَ الخمر[3]، وإن هذا الفعل العظيم من قبل حاكم مسلم يسعى للقضاء على المنكرات والمحرمات في بلاده، امتثالاً لأوامر الله، ليستحق النصر والتمكين من عند الله عزّ وجل.

5- اهتمامه بالحركة العلمية:

لم يكن الظَّاهِر بِيبَرْسُ ليغفل أهمية أثر المدارس من تثبيت سلطانه، وفي القضاء على المذاهب الدّينية المعارضة، ففي سنة (662هـ/1264م) دشن المدرسة الظَّاهِرية بباب القصرين يوم الأحد 5 صفر من نفس السنة، وفي هذه المناسبة ألقيت قصائد كثيرة، وأقيم احتفال مهيب. ثم بُنيَ بجانبها خزانة كتب[4]، كما قام ببناء مدرسة ثانية عرفت بالظَّاهِرية أيضاً، وهي المعروفة بالمدرسة الظَّاهِرية الجوانية بجوار الجامع الأموي، وقد كانت بالأساس دار والد صلاح الدّين الأيوبي، ثم صارت داراً للعقيقي فمدرسة وتربة للسلطان الظَّاهِر[5].

ومن دلائل حبه للعلم ودعمه له بروز مجموعة من العلماء والمؤلفين في زمن الظَّاهِر بِيبَرْسُ في شتى المجالات، منهم محيي الدّين بن عبد الظَّاهِر، فقد نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه وبرع في نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ، ومن مؤلفاته: "السيرة الظَّاهِرية" وتشمل تاريخ الظَّاهِر بِيبَرْسُ وهو من المراجع المهمة التي يُعتَمد عليها في الاطلاع على تاريخ هذا السلطان[6].

---

(1) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج1/104).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص578).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج2/129-130)؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، (ج1/170-170)؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج1/104-107).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص504)؛ محمد، أضواء على آثار وحضارة مصر، (ص221).

(5) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، (ج1/348-349).

(6) سرور، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص158).

وكذلك ابن خلكان، حيث نشأ في مدينة إربيل[1]، ثم انتقل إلى القاهرة سنة (635هـ/1238م) بعدما تلقى علومه في حلب ودمشق، ومن مؤلفاته: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، وهو يحتوي على معلومات قيمة في الأدب والتاريخ[2].

ومن العلماء زمن الظَّاهِر بِيبَرْسُ جمال الدّين بن واصل، ولد في حماة، وبها تعلم وتأدب، ثم انتقل إلى القاهرة سنة (659هـ/1261م)، وبرع في كتابة التاريخ ومن مؤلفاته "مفرج الكروب في أخيار بني أيوب"[3]، وكذلك عبدالرحمن ابن أبي بكر الكركي، حيث ذكره ابن الجوزي حين قال: "وتصدَّرَ بالكرك وكنت قد سمعت به بالكرك فقصدت الرحلة إليه"[4].

وكذلك برز عدد من الشعراء منهم الشيخ عبد العظيم بن الجزار، وكان من كبار الشعراء[5]، والشاعر مجاهد بن أبي ربيع سليمان بن مرهقة المصري، وقد كان شاعراً وأديباً[6]، ومنهم كذلك الشاعر شرف الدّين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري (608-695هـ/1211-1296م)، وهو من بني سويف في مصر، نشأ فيها ثم انتقل إلى القاهرة، وفيها تعلم علوم العربية والأدب، واشتغل في الكتابة والشعر، وولي الكتابة بالدواوين، وعمل في مناصب كثيرة في القاهرة[7].

ولا شك أن ما حدث ببلاد العالم الإسلامي في المشرق على أيدي الصليبيين والمغول كان سبباً للجوء العلماء إلى دولة المماليك وازدهار العلم في هذه الدولة، وهذا يعد سبب ذات أهمية ولكن لولا دعم وتشجيع سلاطين المماليك وعلى الأخص الظَّاهِر بِيبَرْسُ للعلم، لما ازدهر بهذه الصورة[8]، وبروز مثل هؤلاء العلماء والمؤلفين في مجالات شتى ألفوا كتباً يستفاد منها في زمننا الحاضر إن دل فهو يدل على دعم واهتمام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بهؤلاء العلماء وتوفير كل ما يلزم لعلمهم، وهذه من الأعمال التي تسجل في صفحات من نور في سيرة الظَّاهِر بِيبَرْسُ، الذي امتثل لقوله تعالى: ﴿ . . .يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[9].

---

(1) "أربيل": هي مدينة تقع في شمال العراق وهي مجاورة للموصل. المكي، التاريخ القويم، (ج1/26).

(2) سرور، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص159).

(3) المرجع السابق، (ص160).

(4) غوانمة، التاريخ الحضاري، (ص199).

(5) ابن اياس، بدائع الزهور، (ج1/108).

(6) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، (ج21/31).

(7) عطوي، البوصيري، (ص79).

(8) رمضان، تاريخ مصر الإسلامية، (ص134).

(9) سورة المجادلة، [آية 11].

المبحث الثاني:

حماية المذهب السنِّي ومحاربة المذاهب الأخرى والحفاظ على المجتمع الإسلامي

أولاً: حماية المذهب السُّنِّيّ:

من مآثر الظَّاهِر بِيبَرْسُ الحفاظ على المذهب السني، فقد كان المذهب الحنفي هو السائد في مصر حتى أواخر القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وبعده انتشر المذهب المالكي ولكن ما أوقف انتشاره هو قيام الدولة العبيدية فقضت على المذاهب السنية، واكتفت بالمذهب الشيعي، إلى أن جاء صلاح الدّين الأيوبي في القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، فقضى على المذهب الشيعي وأحل مكانه المذهب السني على المذهب الفقهي الشافعي[1]، حتى جاء الظَّاهِر بِيبَرْسُ وعزز الوجود السني، في مصر، وسار على ما سار عليه صلاح الدّين الأيوبي وزيادة في تعزيز المذهب السني في مصر[2]، ففي سنة (658هـ/1260م) قضى على تمرد بقيادة رجل شيعي اسمه الكوراني، والذي سكن في جبل المقطم بجانب القاهرة، وجمع حوله بقايا الجنود الذين كانوا موالين للشيعة، وأخذ يحرضهم على الإطاحة بحكم بِيبَرْسُ، وإقامة حكم شيعي، وانسابوا في شوارع القاهرة وهم يهتفون: "يا آل علي"، وكسروا أبواب حوانيت السيوفيين واستولوا على ما بها من أسلحة، كما استولوا على عدد من الخيول من اسطبلات المدينة فتصدت لهم فرقة من المماليك بأمر من بِيبَرْسُ وقضت عليهم، وقام بِيبَرْسُ بصلب الكوراني والمتمردين على باب زويلة[3] في القاهرة[4].

وكانت هذه الخطوة العسكرية من قبل الظَّاهِر بِيبَرْسُ في قمع التواجد، أو بقايا التواجد الشيعي كفيلة في تعزيز التواجد السني، وما إن انتهى من هذه الخطوة حتى عززها بخطوة إدارية قضائية أخرى، ففي سنة (663هـ/1265م) أمر الظَّاهِر بِيبَرْسُ بإنشاء القضاء المستقل على المذاهب السنية الأربعة بعد أن كان على المذهب الشافعي، وهذا سَهَّل على الناس أمور حياتهم، وذلك لأن الظَّاهِر بِيبَرْسُ عندما عزز الوجود السني في مصر كثر أعداد الناس من أهل السنة

---

(1) النويري، نهارية الأرب، (ج28/ق1/8-12).

(2) قاسم، عصر سلاطين المماليك، (ص88)..

(3) هو أحد أبواب القاهرة القديمة في سورها القبلي أنشأه أمير الجيوش/ بدر الجمالي، سنة (485هـ/1091م)، وكان يواجه تقريباً باب زويلة الذي كان في ســــور القائد/ جوهر، وهذا هُدِم وباب زويلة يعتبر أكبر أبواب القاهرة وأضـــخمها ويعلوه مأذنتي جامع الملك المؤيد شــيخ، ويســـميه البعض باب المؤيد أو باب المتولي، المقريزي، الخطط، (ج380/1)؛ زكي، موسوعة مدينة القاهرة، (ص21/)

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق440/1).

على المذاهب الأربعة مما كثر عدد القضايا، فوجب الإكثار من عدد القضاة، هذا من جانب ومن جانب آخر أن بعض الأمراء الظَّاهِرية لم يكن يرق لهم أن يكون على رأس القضاء رجل واحد كابن بنت الأعز، وبالتالي استفراد الشافعية بالقضاء وتقوية نفوذهم على حساب المذاهب الأخرى، حيث يذكر أن الْأَمِيرُ جمال الدّين أيدغدي العزيزي، هو من أشار على الظَّاهِر بِيبَرْسُ بجعل القضاء على أربع مذاهب[1]، من ضمنها الحنفية الذي أبطل ممارستها الفاطميون منذ أكثر من ثلاثمائة سنة قبل قيام الدولة الأيوبية[2].

وبعد هاتين الخطوتين: العسكرية والإدارية القضائية أتبعهما الظَّاهِر بِيبَرْسُ بخطوة إيمانية في الحفاظ على المذهب السني، حيث قام الظَّاهِر بِيبَرْسُ في (18 ربيع الآخر 665هـ/15 يناير 1267م) إلى إعادة الخطبة، وتفعيل دور الجامع الأزهر الشريف في مصر، وهذا القرار كان بعد مناقشة بين الفقهاء أفضى إلى هذا القرار، وكان الحاكم بأمر الله الفاطمي قد نقل الخطبة إلى الجامع الأنور في زمنه، وعطل عمل جامع الأزهر، وبعد هذا القرار عمل الجامع الأزهر على تعزيز ونشر المذهب السني في مصر وما حولها[3].

ومن الواضح مما سبق أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ يعود له الفضل الحقيقي في إعادة المذهب السني إلى مصر، وتعزيز وجوده على مذاهبه الأربعة، ولولاه لكانت هذه المذاهب السنية كمعظم الطوائف الباطنية التي استمرت تعمل في السر فترة، وفي العلن فترة أخرى، دون أن يكون لها نفوذ واسع كالذي تتمتع به الطوائف الإسلامية السنية في عصرنا الحالي، وهذا إنجاز يسجله التاريخ لهذا القائد العظيم، وله الأجر في ذلك إلى يوم الدّين.

ثانياً: الحفاظ على المجتمع الإسلامي من الجماعات المنحرفة دينياً "وفكريا":

الإسماعيلية فرقة من الشيعة تعرف بالسبعية، إذ اعتبر أصحابها الإمامة منتهية عند الإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق الذي توفي في المدينة المنورة سنة (143هـ/760م)، وحاربهم الخلفاء العباسيون، واستعانوا بالتقية، وتلمسوا الملاجئ في المراكز البعيدة، فلجأ علي أصغر أولاد إسماعيل إلى بلاد الشام، فالمغرب، بينما انتقل ولده الأكبر محمد إلى الشرق، ومنه أسست الإسماعيلية الهندية[4]، وتكمن خطورة الإسماعيلية أن مبدأهم الرئيسي الذي يعتبر جوهراً

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص640).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (172، 121-122).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج360/2).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص277).

لمذهبهم هو إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً، لذلك اشتهروا بالباطنية[1].

وقد بنى وامتلك الشيعة الإسماعيلية في الشام العديد من الحصون القوية، والتي كان من أشهرها المصياف والقدموس والعليقة والكهف والرصافة والخوابي والينقة وأَلَموت[2]، حيث أن هذه القلعة الأخيرة أسسها الحشاشون، وأطلق عليهم الباطنية الحشيشية[3]، وهم من الشيعة بالشام كانوا من أتباع الحسن بن الصباح الذي ظهر في أواخر القرن الخامس الهجري[4]، وهذه الفرقة لعبت دوراً هاماً حيث أجبرت الخلفاء والملوك أن يدفعوا لها ضريبة ما بين سنة (483-654هـ / 1090-1256م) حيث كانوا يتمتعون بقوة عسكرية، وقوة حصونهم، واعتمادهم على الاغتيالات[5]، حيث نجحوا في اغتيال العديد من القادة، منهم: جناح الدولة أمير حمص سنة (446هـ/1103م)، وصاحب فامية سنة (499هـ/1106م)، وقائد جيش الموصل الْأَمِيرُ مودود (507هـ/1113م)، وحاولوا اغتيال صلاح الدّين الأيوبي بعد أن اقتحموا خيمته، وكذلك اغتيالهم الْأَمِيرُ ريموند الثاني صاحب طرابلس (547هـ/1152م)، والْأَمِيرُ كونراد مونفيراتو أمير صور، والعديد من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[6].

أما عن تقويض ومحاربة هذه القوة العسكرية الباطنية فكانت البداية زمن صلاح الدّين الأيوبي لمّا أدرك خطورتهم وتعاونهم مع الصليبيين، ففي سنة (572هـ/1176م) حاصرهم صلاح الدّين الأيوبي في قلعة الباطنية، وقتل منهم خلقاً كثيراً، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم شهاب الدّين الحارمي خال صلاح الدّين الأيوبي[7].

وفي سنة (654هـ/1256م) حاصر جيش هولاكو ركن الدّين خورشاه بن علاء، ثم أسره، واضطره أن يُقَبِّلَ الأرض بين يديه، ويعطيه أمراً للباطنية في بلاد الشام بتسليم قلاعهم للمغول، ثم قتله[8].

ثم جاءت جهود الظَّاهِر بِيبَرْسُ في القضاء عليهم، بشكل نهائي، حيث نقم عليهم لأنهم

---

(1) رافع، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص103).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (ج157/1)؛ رافع، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص104).

(3) رافع، هولاكو، (ص22)

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج247/1).

(5) الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، (ص63)؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (ج12/2).

(6) حطيط، قضايا من تاريخ المماليك، (ص27).

(7) أبو شامة، الروضتين، (ج240/1).

(8) منصور، المجتمع العربي بين التاريخ والواقع، (ص363).

حاربوا صلاح الدّين الأيوبي، حيث إنهم اصطفوا مع الصليبيين ضده، وتولد قناعة لدى بِيبَرْسُ أنهم "باطنية ملاحدة" لابد من تطهير البلاد منهم، وحقد عليهم الظَّاهِر بِيبَرْسُ لسببين، أحدهما: سياسي، وثانيهما: ديني مذهبي[1].

ففي سنة (659هـ/1261م) أرسل صاحب قلاع الإسماعيلية رضي الدّين أبي المعالي ونجم الدّين إسماعيل ابن الشعراني رسولاً حمل للظاهر في دمشق هدية ورسالة، وكان في الرسالة تهديد ومطالبة باستعادة إقطاعات ورسوم كانت لهما في عهد صلاح الدّين، وكان الظَّاهِر في بداية سلطنته، وأمامه أولويات ومشاكل لتوطيد حكمه فقرر استعمال الحيلة في القضاء عليهم، وكانت خطته مبنية على تفريق كلمتهم، وزرع النزاع بين قادتهم، ثم كسر هيبتهم، ومن ثم إخضاعهم، والقضاء عليهم[2].

فبدأ المرحلة الأولى، وهي: تفريق كلمتهم، وزرع النزاع بينهم من خلال الرسول الذي جاءه بالتهديد والمطالبة؛ حيث أجاب الرسول إلى ما كان في الرسالة، ولكن أخبره حين أراد العودة أنه علم أن رضي الدّين قد توفي، وعرض عليه توليته مكانه، ثم كتب له منشوراً بذلك، فقبل الرسول، وهكذا نجح الظَّاهِر بِيبَرْسُ في إحداث خلاف بين الرسول والمرسلين له[3].

وعاد الرسول إلى مرسليه، فوجد رضي الدّين حياً يرزق، فاضطر إلى كتم الخبر، ثم مات رضي الدّين بعد عشرة أيام فقام الرسول بإبراز المنشور الظَّاهِري، ورضي نجم الدّين بالمنشور، لكن صارم الدّين مبارك بن رضي الدّين رفض الخضوع لأمر الظَّاهِر، فأعلن العصيان في قلعة العليقة، فازدادت نقمة الظَّاهِر على الإسماعيلية، وقرر ضربهم عسكرياً، فأرسل علاء الدّين أيدكين البُنْدُقْدارِي في رجب سنة (660هـ/1262م) لضرب سرمين[4]، فثار أنصار نجم الدّين في الإسماعيلية تأييداً لوالي سرمين، وجرحوا الْأَمِيرُ البُنْدُقْدارِي وهو مار على جسر عند حماة، فأمسك الظَّاهِر نواب الإسماعيلية تأديباً لوالي سرمين في مصر، فاضطر نجم الدّين للتنصل من المسؤولية ومسايرة الظَّاهِر[5].

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص543، 557).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج458/1، ج114/2، 154-155، 162-163)؛ ابن الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص91-92).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج114/2).

(4) "سَرمين": بلدة مشهورة من أعمال حلب، قيل إنها سميت بسرمين ابن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام. الحموي معجم البلدان، (ج315/3).

(5) ياقوت، معجم البلدان، (ج103/1).

ومن ثم بدأ الظَّاهِر مرحلته التالية، وهي كسر هيبتهم، وتجفيف مواردهم، ففي ذي القعدة سنة (664هـ/1266م) جاء رسول الاسبتار إلى الظَّاهِر، وطلب منه المصالحة على بلادهم من منطقة حمص وبلاد الدعوة، فاشترط الظَّاهِر لذلك تخلي الاسبتار عما كانوا يأخذونه من الإسماعيلية من قطائع على حماة وبلاد أبو قبيس، ومناصفتهم الضرائب التي يأخذونها من بلاد الدعوة فقبل الاسبتار بذلك، وعقد الصلح[1]، وبالتالي أصبحت الإسماعيلية تدفع الضرائب لبِيبَرْسُ بطريقة غير مباشرة، وهذه الخطوة فيها إذلال لهم وإخضاع.

واستكمالاً لإذلالهم وكسر هيبتهم جاء رسول الإمبراطور البيزنطي والإشبيلي ورسل وملوك الفرنجة وملك اليمن سنة (665هـ/1267م) بالهدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية، فرفض الظَّاهِر بِيبَرْسُ السماح للرسل بالمرور من غير أن يدفعوا ما يترتب على الهدايا والأموال من حقوق ديوانية، فخافت الإسماعيلية، فأرسلت له أموالاً لينفقها في الجهاد، وفي رمضان من السنة نفسها ألغيت قطائع الإسماعيلية عن حماة وشيزر وأفامية وعَنْتاب[2]، وهكذا استطاع الظَّاهِر بِيبَرْسُ من إنهاء مرحلته الثانية خلال بضع سنوات، وحقق فيها ما أراد من إذلال وكسر هيبة الإسماعيلية من خلال فرض ضرائب وأموال عليهم.

وانتقل الظَّاهِر بِيبَرْسُ بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة والنهائية في القضاء على الإسماعيلية، ففي سنة (668هـ/1270م) وجد صارم الدّين أنه لابد من طلب العفو من الظَّاهِر بِيبَرْسُ، فأرسل له هدية، وشفع له عنده صاحب صهيون[3]، وصاحب حماة، فرضي عنه الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وكتب له منشوراً باستنابته على حصون الإسماعيلية: الكهف، والخوابي، والمنيقة، والعليقة، والقدموس، والرصافة، واستبقى المصايف له وحده وبالتالي بدأ ينزع من الإسماعيلية ملكهم، ويولي من أراد، وفي رجب من السنة نفسها أرسل إلى القلاع والياً من قبله شريكاً لصارم الدّين[4]، فثار على الوالي، لكنه اضطر إلى الرضوخ، ثم عاد لبِيبَرْسُ واعتقل صارم الدّين في ذي القعدة من نفس السنة، وسجنه في القاهرة[5].

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص550).

(2) القاسمي، العلاقات الخارجية في العصر الإسلامي، (ص138).

(3) "صهيون": هو حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص، وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل، خنادقها أودية واسعة عميقة، ولها ثلاث أسوار. الحموي، معجم البلدان، (ج3/436).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج4/6).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/431-432).

وفي شوال سنة (669هـ/1271م) تسلم السلطان حصن العليقة[1]، وفي صفر من نفس السنة التالية تسلم عدداً من القلاع، وثارت عليه القلاع الأخرى، واغتنم الفرصة للانقضاض على مواقع الإسماعيلية، وتسلمها جميعاً، وأرسل إليها نوابه، ونقل زعماءهم إلى مصر[2].

وكان قضاء الظَّاهِر بِيبَرْسُ على الإسماعيلية كقوة عسكرية بشكل نهائي قد أمَّن له الحيلولة دون تحالفهم مع المغول والأوروبيين في حملاتهم الصليبية، ومهد له السبيل لمهاجمة آسيا الصغرى، وقويت شوكة الإسلام في مصر وبلاد الشام.

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص593).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج12/451-473)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ص7).

الفصل الثانـي

الأسباب الإدارية والحضارية والسياسية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ

المبحث الأول:

الإدارة الحكيمة

أولاً: اختيار البطانة السليمة:

كان يواجه الظَّاهِر بِيبَرْسُ خطران كبيران يتهددان حكمه كسلطان للبلاد، أولهما داخلي متمثل في عدم رضى جميع أمراء المماليك عنه ويسعون للسلطنة بدلاً عنه، أما عامة الشعب فقد أخذوا فكرة عن المماليك البحرية أنهم مفسدون ومترفون، لذلك كانوا يرفضونهم، أما الخطر الثاني فكان متمثلاً في خطر المغول والفرنجة، ومخططاتهم في الاستيلاء على مصر والشام[1].

لذا فقد عمد الظَّاهِر بِيبَرْسُ على السير في تنظيم إدارته في مسارين، وهما: المسار العسكري الذي يعتمد على قوة الجيش المملوكي لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية والضرب بيد من حديد، وكذلك المسار الدّيني ويعتمد على الخلافة العباسية، واستمداد شرعية الحكم منها ومن أهل العمامة[2] لما لهم من سلطة دينية على عامة الشعب[3].

1. الإدارة الجديدة:

بدأ الظَّاهِر بِيبَرْسُ تعيين إدارة وأركان دولته في القُصـير بعد مقتل قطز مباشـرة، وعين فارس الدّين أقطاي المستعرب[4] أتابكاً لجيشه، وعين بعض أمراء الملك الصالح نجم الدّين أيوب معاونين له، وعندما وصل جبل القلعة في القاهرة تابع على الفور تعيين أعضاء إدارته الجدد، فأقر ما فعله في القصير، واستبقى الصاحب زين الدّين يعقوب بن الزبير على الوزارة الذي عزله فيما بعد سنة (659هـ/1261م)، وعين مكانه الصاحب بهاء الدّين ابن حنا[5]، ثم عين أقوش التجيبي أستاذ الدار وعز الدّين الأفرم أمير جاندار، وحسام الدّين الأيدمري الملقب

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/3).

(2) "أهل العمامة": تطلق على أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والكُتّاب، وتطلق عليهم بعض المصادر "المعممون"، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/205).

(3) قاسم، عصر المماليك، (ص94)

(4) "فارس الدّين أقطاي المستعرب": من مماليك الملك الصالح نجم الدّين أيوب، صار أتابكاً لقطز، ثم استمر أتابكاً للظاهر حتى توفى في (جمادي الأول 672هـ/ نوفمبر 1273)، ابن كثير، البداية والنهاية (ج13/266)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص613)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/242).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ، (ج1/322)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (ج8/103)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج1/99).

بالدرفيل، وسيف الدّين بلبان الرومي في الدوادارية، وبهاء الدّين الشهرزي أمير أخور[1]، وبدر الدّين بيسري الشمسي[2]، وسيف الدّين قلاوون، وبدر الدّين بكتوت، وسيف الدّين بيدغان، المعروف بسم الموت، وسيف الدّين بلبان الهاروني في رتبة مقدمي ألف، وركن الدّين أباجي وسيف الدّين بكجري حاجبين[3].

وكتب كتبه إلى الملوك والأمراء يخبرهم بسلطته الجديدة على البلاد، وقد خاطب أمراء الشام والإسماعيلية، فأجابه الجميع بالطاعة عدا الاسماعيلية وعلم الدّين سنجر نائب دمشق[4]، وذلك لأن الإسماعيلية كانت بمثابة قوة عسكرية لا تخضع لأحد، ولطمع علم الدين سنجر بالحكم.

ثم تواصل مع أفراد البحرية المشردين، وأعادهم إلى القاهرة[5]، ونفى الملك المنصور نور الدّين علي بن عز الدّين بن أيبك وأخاه إلى الأشكري، - حتى لا يُرتب بعض الأمراء انقلاباً على الأمير بيبرس مستغليين أحقية علي ابن أيبك في الحكم كسلطان معزول - وقد كانوا معتقلين بالقلعة من أيام قطز[6]، وعمد إلى إلغاء الضرائب والمكوس[7] على الشعب التي فرضها قطز في زمن حكمه لتمويل حملته العسكرية على المغول، ثم أطلق سراح المساجين من أصحاب الجرائم، وأنعم على الأمراء ووهبهم الخلع[8].

---

(1) "أمير أخور": اسم مركب أوله عربي وهو أمير، الثاني فارسي وهو أخور يعني: المعلف، يعني أمير المعلف وهو يتولى أمر ما في الأسطبل من الخيول والابل وغيرها، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (ج433/2)؛ السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، (ص 37).

(2) "بدر الدّين بيسري": هو الْأَمِيرُ شمس الدّين الشمسي الصالحي النجمي، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدّين أيوب البحرية، تنقل في الخدم، حتى صار من أجلّ الأمراء في أيام الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، مات في 19 شوال سنة (698هـ/ 20يوليو 1299م، المقريزي، الخطط، (ص69).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ، (ج372/1)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد ، (ص67)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص438)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج99/1).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج454/1)، المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص462).

(5) ابن اياس، بدائع الزهور، (ج100/1).

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج353/1).

(7) "المكوس": جمع مكس ومعناها في اللغة: "الضريبة التي تُؤخذ من باقي السلع في الأسواق، وكما تُطلق على ما يُؤخذ من المعشار وقد غلب في استخدام المكس في الإصلاح الفقهي على الضرائب غير الشرعية؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج536/3)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق267/1).

(8) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج372/1)، ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص68).

ومن يوم الاثنين السابع من (صفر 659هـ/ يناير 1261م) ركب الظَّاهِر بِيبَرْسُ شعار السلطنة[1]، وخرج من قلعة الجبل في هيبة الملك يطوف القاهرة متزينين له، وابتهج به الناس[2]، وهنا نجد أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ قد امتلك من خبرة في سنوات التشرد السابقة وهو فار من عز الدّين أيبك، قد أهلته هذه الخبرة لأن يكون صاحب تدبير سياسي ناجح، وحنكة سياسية أهلته للنصر والتمكين.

ثانياً: الرقابة على عمل القادة:

كان السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ شديد المراقبة والمتابعة لموظفي دولته ونوابه، ويخضعهم للمحاسبة في حال التقصير والتجاوز، وكان يرفع له تقرير يومي من الولاة، يُذكر فيه الحوادث التي مرت في ذلك اليوم، ومن شدة اطلاعه على أحوال أمرائه وموظفي دولته لدرجة أنه لم يخفَ عليه من أحوالهم شيء، وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ. . . ﴾[3].

وكان يخشاه الأمراء وكبار الموظفين، حتى أنه عندما مرض لم يدخل عليه أحد إلا بإذنه، وقد عرف بحزمه وشدته في هذا الجانب[4].

وعرف عنه من طرق متابعته التنكر والتجوال بين عامة الناس، ليتعرف على أحوال الناس وعمل موظفيه، ففي سنة (662هـ/1264م) كثرت الجرائم في القاهرة، إذ اختفى عدد من الناس، ثم تبين أن المتسبب في تلك الجرائم امرأة حسناء تدعى غازية، حيث تقوم بالاحتيال على الشباب حتى يتوافدوا إلى بيتها، فتقتلهم، وتستولى على ما معهم، فمسمرها[5] السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ ومسمر معاونيها[6].

---

(1) "شعار السلطنة": موكب مجهز للأمير بيبرس، وفيه يركب الأمير على فرس مُسَرَّج بالذهب، ويحمل فيه سنجق: لواء العلم أو الراية، وتُرفع فيه الغاشية، والكنبوش: الثوب الذي يوضع تحت سرج الفرس، ويتقدمه العساكر والأمراء في الموكب. العيني، عقد الجمان، (ج1/195).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/437)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص444).

(3) سورة النساء، آية (135).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص521).

(5) "التسمير في الأخشاب": هو أن يُعرَى المحكوم عليه، ثم يُربط على خشب على شكل صليب، ويُطرح على ظهر جَمَل وإشهاره في شوارع المدينة، والمناداة عليهم بأنهم فعلوا كذا وكذا، المقريزي، السلوك (ج1/404).

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/ص552-553)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص125-126)، المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص521).

وفي سنة (663هـ/1265م) تبين للسلطان من خلال متابعته وتنكره أن نواب الوالي في القاهرة لم يُسجلوا في التقرير اليومي حوادث سرقة ونهب، فشنق المسؤولين عن هذا الإهمال[1].

وكان يراقب ويحاسب جميع المستويات في وظائف الدولة، وفي سنة (660هـ/1262م) أمر باعتقال الْأَمِيرُ علاء الدّين الطيبرس[2] الوزيري نائب السلطنة بدمشق، لأنه قام بإثارة البلبلة والإشاعة بقرب هجوم المغول على دمشق من أجل أن يبيع بضاعه له في السوق بأسعار عالية[3].

ولم تكن جولاته السرية تقتصر على القاهرة، فكثيراً ما كان ينتقل بين القاهرة والاسكندرية ودمشق وحماه سراً للاطلاع على حقيقة الحال فيها[4] حتى سنة (662هـ/1264م)، فقد خرج لجولة تفتيشية في الجهات الغربية من مصر[5]، وفي سنة (667هـ/1269م) غادر دمشق إلى خربة اللصوص فالقاهرة سراً على خيول البريد، ثم عاد إلى دمشق سراً، والناس يظنونه مريضاً[6]، وفي هذا الجولة ارتدى ملابس بالية، وتعمم بشاش دخاني عتيق، حتى لا يعرفه أحد، وأخذ السلطان ينتقل من مدينة إلى مدينة أخرى في طريقه إلى القاهرة، فكان في كل مكان يتعرف على أخبار الولاة وسياستهم في الحكم ولم يشعر أمراء السلطان في القاهرة وابنه السعيد إلا وبِيبَرْسُ وسطهم[7].

ومع ذلك، فقط اعتمد بِيبَرْسُ سياسية الثقة والمكافئات، والإبقاء في الوظيفة لفترة طويلة للموظفين الجيدين فلم يغير أتابك العسكر طيلة فترة حياته حتى توفي في سنة (677هـ/1278م) ولم يولِّ الوزارة غير واحد، وهو الصاحب بهاء الدّين بن حنا[8]، وعلى النقيض من الموظفين غير

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج318/2)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص131).

(2) علاء الدّين الطبرسي المنصوري، والي باب القلعة، والملقب بالمجنون، وكان عفيفاً له أحكام قراقوشية من تسلطه على النساء، ومنعهن من الخروج إلى الأسواق وغيرها، توفي سنة (708هـ/1308م، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (ج230/8).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/ص490-491، ج2/ص153-155، 191)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج224/2).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق583/1).

(5) المرجع السابق، (ج1/ق505/1، 521)..

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج5/4).

(7) عاشور، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص129-130).

(8) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج439/1، ج92/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج103/7-108، 179).

الجيدين فقد قيل إنه أمر بكتابة ثمانين مرسوماً[1] لإجراء تنقلات بين نوابه والقادة العسكريين وموظفيه في يوم وليلة، سنة (670هـ/1272م)[2].

لقد كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ يلعب الدور الأول في إدارته، ففي زمن السلم كان يقوم إلى صلاة الفجر، ثم يخرج إلى باب دهليزه، فيأتيه الناس ليحكم بينهم في قضاياهم[3]، وفي زمن الحرب كان يشرف بنفسه على الاستعدادات الحربية، ويقود الحملات العسكرية[4]، وهكذا نجد أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ استطاع أن يدير إدارته بعناصره الثلاث، وهي: حُسن اختيار الموظفين، والثقة بهم، ومراقبتهم، ومحاسبتهم، وهذا سبب مهم من أسباب نصره وتمكينه.

ثالثاً: إرساء العدل:

أرسى الظَّاهِر بِيبَرْسُ العدل من خلال إدراكه لأهمية القضاء منذ اللحظة الأولى لإنشاء إدارته، وأدرك أن تثبيت سلطانه وتمكينه يقتضي أن يكون هناك نظام راقٍ في القضاء، وكان لرجال القضاء نفوذ كبير على عامة الناس وعزة من الدولة، وقد دل ذلك من موقف القاضي ابن عبدالسلام عند مبايعة بِيبَرْسُ[5].

ومن مظاهر اهتمام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بالقضاء العناية بإسناد القضاء إلى علماء بارزين، ففي سنة (659هـ/1261م) أسند القضاء إلى تاج الدّين عبد الوهاب المعروف بابن بنت الأعز، وبقي في القضاء حتى وفاته سنة (665هـ/1267م)[6] وفي دمشق من نفس السنة عين محسن الدّين بن خلكان قاضياً على دمشق[7].

---

(1) "المرسوم": هو القرار الذي يُصدره السلطان والمرسوم يكتبه مستوفي الصحبة، يوقع عليه السلطان، وفي ديوان الصحبة يُثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/29).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص599).

(3) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص482).

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/145).

(5) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص108)؛ انظر الرسالة نفسها، (ص52).

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص561-562).

(7) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين، (ص215)؛ أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/220).

ومن مظاهر اهتمامه بالقضاء أنه أنشئ داراً للعدل سنة (661هـ/1263م) تحت القلعة في القاهرة[1]، ثم جعل دار السعادة في دمشق داراً للعدل[2]، وكان يرأس دار العدل في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، يقضي في القضايا التي يستأنف بها أصحابها، وكان يجلس في دار القضاء وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد، وكبار موظفيه الماليين والإداريين، وصاحب ديوان الانشاء[3]، ليسرع بتنفيذ الحكم.

ومن مظاهر اهتمامه أيضاً بالقضاء أنه كان شديد المراقبة على القضاء، ففي سنة (660هـ/1262م) اعتقل القاضي برهان الدّين السنجاري، ثم عزله[4]، وفي سنة (670هـ/1272م) أجرى تحقيقاً مع قاضي أتهم بإنكار ودائع لتاجر مات وثبت صدق الاتهام، فعزل القاضي، وصادر داره[5].

وبعد كل هذا الاهتمام بالقضاء الذي هو رأس الحكم كيف وألا يُمَكَّن ويُنصر الظَّاهِر بِيبَرْسُ وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [6].

وهذا الاهتمام بالقضاء الذي يفضي إلى العدل هو نقيض الظلم الذي إن حل فيحول دون النصر ويكون سبباً في زوال الملك الذي يبنيه الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وهذا مصدر اهتمامه بإرساء العدل من خلال اهتمامه بالقضاء.

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص401).

(2) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص538-549).

(3) المقريزي، الخطط، (ج2/208-209)؛ "ديوان الإنشاء": وكان هذا المصطلح يستخدم في العصر المملوكي، وكان رئيسه يُلقب بصاحب أو رئيس ديوان الإنشاء، وقد كان أحياناً يجمع لفظ الديوان فيقال صاحب دووابن الإنشاء. الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، (ص11).

(4) المرجع السابق، (ج2/ص596).

(5) المرجع نفسه، (ج2/ص603).

(6) سورة محمد، آية (7).

المبحث الثاني:
الاهتمام بالحركة العمرانية

أولاً: عمارة الأماكن المقدسة والدّينية:

اهتم الظَّاهِر بِيبَرْسُ بإعمار المدن والاهتمام بالمرافق العامة، وكان هذا الاهتمام يوازي اهتمامه بالجهاد في سبيل الله وتجهيز المعدات العسكرية، فكان يحب سماع رنة مواد البناء كحبه سماع قرع طبول الحرب، فهو في توازن تام في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)﴾[2] فقد بنى ما لم يُبنَ في أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب من الرباع والخوانق والدور والمساجد والحمامات[3].

حتى انتشرت عمائره من قرب مسجد التبن إلى أسوار القاهرة، إلى الخليج وأرض الطبالة، واتصلت العمائر إلى باب المقسم، إلى اللوق، إلى البرجي، ومن الشارع إلى الكبش إلى تحت القلعة، ومشهد السيدة نفيسة، إلى السور القراقوشي، وكذلك اعتنىَ بالبناء في بلاد الشام بنفس الأهمية[4].

فقد قام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بالاهتمام بإعادة إعمار المدن المقدسة وأماكنها المقدسة، كمكة المكرمة والمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم والقدس الشريف[5].

فقد اهتم بإعمار مكة والمدينة عدة مرات ولسنوات متعاقبة من حكمه كما سبق وأوضحنا[6]، وإرسال كل ما يلزم الإعمار من أدوات بناء وبنائين، كما اهتم بكسوة الكعبة التي

---

(1) سورة الأنفال، آية (60).

(2) سورة النور، آية (36–38).

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج195/7).

(4) المرجع السابق، (ج196/7–197).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ص325، 346).

(6) انظر (ص55).

أرسل لها كسوة عدة مرات[1]، وكان لمدينة القدس والخليل حظ وفير في اهتمام الظَّاهِر بِيبَرْسُ من بناء وترميم لقبة الصخرة والمسجد الإبراهيمي في الخليل[2].

وفي سنة (665هـ/1267م) أجرى ترميمات هامة في جامع الأزهر الشريف[3]، وفي سنة (663هـ/1265م) شرع بتبليط الجامع الأموي، وجدد بعضه، وأمر بترميم حائطه الشمالي[4].

وفي سنة (664هـ/1266م) أمر بالبدء ببناء جامع الظَّاهِر من ميدان قراقوش بالحسينية، بجوار مدرسته، وأنفق عليه ما يزيد عن مليون درهم، وكان سبب البناء في هذا المكان هو كثرة الزوار لزاوية الشيخ خضر[5]، وجلبت لبناء هذا الجامع الأخشاب والحجارة والرخام وغيرها من أدوات البناء من سائر أنحاء السلطنة، وزين بالنقوش حتى أصبح أحسن ما بني من المساجد في عهد المماليك البحرية[6].

وفي سنة (671هـ/1273م) جدد جامع الرملة، وقبر جعفر الطيار، وقبر نوح عليه السلام في الكرك[7]، وحَوَّلَ كنيسة صفد إلى جامع، وأنشأ فيها رباطاً[8] وهذا كله يؤكد لنا بوضوح مدى اهتمام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بهذه الأماكن التي يُصنع بها الرجال الأتقياء الذين هم عدة النصر والتمكين.

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص612).

(2) المرجع السابق، (ص608).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج361/2).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص561).

(5) "زاوية الشيخ خضر": أنشأها السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ خارج باب الفتوح من القاهرة، تُشرف على الخليج الكبير، عُرفت باسم الشيخ خضر ، وسبب إنشائها أن هذا الشيخ أخبر الْأَمِيرُ سيف الدّين قشتمر العجمي أنه لابد أن يتسلطن الْأَمِيرُ بِيبَرْسُ البُنْدُقْدارِي فأخبر الأخير قشتمر بِيبَرْسُ بذلك، فلما صارت له السلطنة قربه إليه وبنى له هذه الزاوية، وأضاف إليها زوايا أخرى، وأوقف عليها أراضي تغل في السنة نحو ثلاثين ألف درهم، وصار يستشيره في أموره، ويصطحبه معه في أسفاره حتى أصبح ذا نفوذ كبير حتى سنة (671هـ/1273م)، حيث قُبض عليه واعتقل لتهم وُجِّهت له تحقق من صحتها الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وتوفي سنة (676هـ/1277م)، وظلت زاويته قائمة من بعده باسمه، المقريزي، الخطط، (ج431/2).

(6) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص161، 42).

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج276/13)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج194/7-196).

(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج195/7).

ثانياً: عمارة القصور والأماكن العامة:

كان أول اهتمامات الظَّاهِر بِيبَرْسُ بجانب البدء في تشكيل إدارته هو الاهتمام بالعمارة في بلاده، فقد عهد إلى الْأَمِيرُ جمال الدّين بن يغمور بترميم ما تهدم من قلعة جزيرة الروضة، فقام الْأَمِيرُ جمال الدّين بهذه المهمة على أتم وجه، ورمم ما كان تخرب من قاعاتها، ثم وزع أبراجها على الأمراء: قلاوون، وعز الدّين الحلبي، وعز الدّين أوغان، وبدر الدّين بيسري، وأوصى كل واحد منهم أن يبني فيها اصطبلاته ومنازله[1].

وقد امتاز عصر المماليك بشكل عام بالعمارة وحسنها، وفي عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ بشكل خاص، فقد تعددت وجوه الجانب العمراني من مدارس وجوامع ومكتبات وزوايا وربط[2] وغيرها، وهي منارات للعلم ونشر الدّين والحضارة، وقد أحصى الباحثون بناء خمسٍ وأربعون مدرسة في القاهرة في عهد المماليك مقابل خمس وعشرين مدرسة في عهد الأيوبيين[3]، وكان الكم لا يغلب على الكيف في جودة البناء وتحسينه، فكان البناء والهندسة والزخرفة في غاية الإتقان[4]، فباب المدرسة الظَّاهِرية بالقاهرة مشهد من مشاهد عظمة البناء والزخرفة، بما يمثل شاهداً واقعياً على عظمة البناء وجودته، كما ظهر الفن في تركيب النوافذ حيث كان من قطع الحديد الملفوف يتلاقى في كرات مركزية[5].

ومن المنشآت أيضاً في زمن الظَّاهِر بِيبَرْسُ والتي تشكل مثالاً على مدى اهتمامه بالعمارة كعنصر هام لبناء الحضارة، والتي هي سبب هام في تمكين سلطانه إنشاء القصر الأبلق سنة (665هـ/1267م) في ميدان الأقصر على نهر بردى، وكان بناؤه بالرخام الأبيض والأسود، وكانت البساتين تحيط به من كل جانب[6]، لتعبر عن روعة الفن والذوق في التصميم في ذلك

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص446).

(2) "ربط": مفردها رباط، وهي في أصل اللغة الخيل المربوطة، وعرفت أيضاً بملازمة ثغر العدو، بعد ذلك أصبح يُطلق عليها في العصر المملوكي، وتعرف بالمؤسسات التي تُشبه الملاجئ في العصر الحديث، لتكون مأوى لفقراء المسلمين والصوفية، ابن منظور، لسان العرب، (ص303)؛ أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية (ص220).

(3) الفقي، الأدب في العصر المملوكي، (ص43).

(4) الأيوبي، آفاق الشعر العربي، (ص68).

(5) يوسف، أشغال المعادن، (ص72).

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص561).

العهد، وفي سنة (670هـ/1272م) كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ في حلب فبنى داراً شمالي قلعتها، ثم أضاف داراً أخرى إليها[1].

ويعد أروع ما بناه الظَّاهِر بِيبَرْسُ في مصر المدرسة المعروفة باسمه بين القصرين، وبدأ بناؤها سنة (660هـ/1262م)، وانتهى من بنائها سنة (662هـ/1264م)، وكان لهذه المدرسة أربع إيوانات[2] وفيها خزانة كتب تحتوي على أمهات الكتب في مختلف العلوم، ثم بنى بجوارها مكتباً، ليتعلم فيه الأيتام القرآن، وبنى فيها ساقية ماء[3]. وكان قد بنى في دمشق مدرسة أخرى على غرار هذه المدرسة عرفت باسمه أيضاً[4].

كما قام ببناء مكتبة حَوَتْ مجموعة ضخ05مة من الكتب في مدينة غزة عُرفت باسم مكتبة الظاهر وهي الآن معروفة باسم مكتبة المسجد العمري الكبير في مسجد العمري الكبير بغزة[5].

ومن ناحية اهتمام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بالمرافق العامة ففي سنة (664هـ/1266م) كلف والي نابلس الْأَمِيرُ محمد بن رحال ببناء جسر الشريعة سلطاني[6] على نهر الأردن بطريق الشام وطوله

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج195/7).

(2) "إيوانات": مفردها ايوان وهو مجلس كبير على هيئة طبقة واسعة لها سقف محمول وثلاثة جدران لاستقبال الناس، وفيه مجلس لكبار القوم، دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (ص28)؛ أنيس، المعجم الوسيط، (ص33).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج551/1-552، ج230/2)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص466).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج276/13)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج195/7-196)؛ ابن اياس، بدائع الزهور، (ج111/1).

(5) طباع، اتحاف الأعزة، (ص234)؛ حيث استفاد الباحث من هذه المكتبة من خلال ما حَوَتْ من مصادر ومراجع تخص الدراسة.

(6) الجسور نوعان: سلطانية وبلدية، الأولى جامعة للبلاد ينفق عليها من الديوان السلطاني، تحت إشراف كاشف الجسور، والبلدية يتولاها المقطعون من خلال أموال اقطاعاتهم، (القلقشندي، صبح الأعشى، (ج448/3)؛ المقريزي، الخطط، (ج165/3).

مائة وعشرون ذراعاً في عرض عشرون ذراعاً[1]. وكذلك تم إنشاء جسور أخرى في الساحل[2]، وكذلك بنى جسراً في كل من القليوبية ودمياط[3].

وفي سنة (665هـ/1267م) بنى قنطرة على بحر المينا فكان عجيباً من البناء من ناحية الاتقان[4].

وحفر خلجاناً كثيرة، منها: خليج الإسكندرية، وبحر أشموم، وترعة الصلاح، وبحر الصمام وسردوس، وبعض ترع أبي الفضل[5]، وفي سنة (666هـ/1268م) أمر ببناء قرية الظَّاهِرية عند العباسية[6].

ومما سبق يظهر لنا أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ كان لديه اهتمام بمظهر الدولة السيادي من ناحية بناء القصور بشكل متوازٍ، وكان يهتم بالمرافق العامة، وهذا التوازن بين الأمرين سبب مباشر في نصر وتمكين هذا القائد الكبير فحق له التمكين في سلطنته طيلة مدة حكمه المليئة بالإنجازات، ومنها العمرانية.

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج291/11).

(2) المرجع السابق، النجوم الزاهرة، (ج195/7).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص638-639).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج432/7-433)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص639).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج170/7).

(6) المقريزي، الخطط، (ج374/1).

المبحث الثالث:

الإدارة السياسية الحكيمة

أولاً: سياسة الظَّاهِر بِيبَرْسُ في إدارة دولته:

كما هو معلوم أن البلاد التي حكمها الظَّاهِر بِيبَرْسُ كبيرة، وقد قسمها المؤرخون إلى أربعة أقسام: قسم ملكه، وقسم حرره من الصليبيين، وقسم آخر حرره من غير الصليبيين، كالإسماعيلية، وكانت له فيها السلطنة الكاملة، وقسم رابع لم يتمكن من تحريره ففضل المشاركة في حكمه والمناصفة على غلاله. وهذا الملك امتد من تخوم آسيا الصغرى من الشمال إلى الجزيرة العربية والنوبة جنوباً، أما شرقاً فكانت الأراضي التي احتلت من المغول حداً بينه وبين إلياخانات فارس، ولم تخضع له الجزيرة العربية كلها، ولكن كانت له صداقة مع صاحب اليمن، وسيطرة على المدينة ومكة لتأمين حماية الكرك والشوبك والطريق إلى اليمن[1].

واستمرت مدة حكم الظَّاهِر بِيبَرْسُ سبع عشرة سنة واثنين وتسعين يوماً من توليه السلطنة بتاريخ سبعة عشر من ذي القعدة سنة (658هـ/1260م) إلى وفاته في ثماني وعشرين محرم سنة (676هـ/1277م)[2].

والمماليك والظَّاهِر بِيبَرْسُ ورثوا إدارة الحكم من السلطة التي ورثوها من الأيوبيين، ولكنه عمل على تطويرها واستحداث وظائف جديدة فيها، ما كان له أهمية بالغة من تمكين حكمه وهذا التطوير على طريقة إدارة الحكم اقتضته الظروف التي أحاطت بفترة حكم بِيبَرْسُ وكذلك كونه من أصل تركي، فتأثر بنظام المغول التي كانت تحكم بلادهم، وقد تأثر إنشاء هذه الإدارة بأحكام جنكيز خان من قانون (الياسا Ysa) [3]، كما استحدث الظَّاهِر بِيبَرْسُ وظائف جديدة، فقد عدَّل على صلاحيات بعض الوظائف السابقة محتفظاً بأسمائها السابقة[4].

---

(1) ابن أبي الفضـــائل، النهج الســـديد والدر الفريد، (ص28–29)؛ المقريزي، الســـلوك، (ج1/ق1/ص638)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/186–190).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ص186–190).

(3) "الياسا": عُرف القانون الذي وضعه جنكيز خان بـ(الياسا)، وهو يحدد حقوق وامتيازات زعماء العشائر المغولية، وحقوق الخان نفســـه، ومن الخدمات التي تؤديها له أتباعه، النظام الضـــرائبي في الإمبراطورية، ونظام الخدمة العسكرية، وهكذا وضـع جنكيز خان دستوراً أدى إلى ترابط دولة المغول الشاسعة التي لم تكن عاداتها السابقة تفي باحتياجات المجتمع المغولي والدولة المغولية الجديدة، عطية، امارة أنطاكية، (ص407).

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج6/ص268– 269 ،ج2/182–183).

كانت الإدارة في عهد الأيوبيين ترتكز على نظام سلطاني وراثي مركزه مصر ويتبع له الأمراء الإقطاعيون من سلالته وكان هؤلاء الأمراء ذوي صلاحيات واسعة في أقاليمهم وظلت الإدارة المملوكية تحت سلطان مركزه مصر، لكنها اختلفت عن سابقتها في أنها كانت أكثر حزماً وأكثر مركزية، فقد كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ يطلب تنفيذ أوامره بسرعة وبدون تردد، ومنذ سنة (666هـ/1268م)، لم يعد هناك أية إمارة مستقلة في بلاد الشام، وبذلك استطاع أن يمنح إدارته القوة والسيطرة الكاملة على مقاليد الحكم[1].

ثم إن السلطنة المملوكية لم تكن وراثية بشكل عام بل كانوا يفضلون أن يستلم الحكم الرجل الأقوى[2]، (سوى محاولة الظَّاهِر بِيبَرْسُ في هذا الصدد بشأن جعل ابنه الملك السعيد ولياً للعهد) وجعل الأمراء سنة (660هـ/1262م) يُقسمون يمين الطاعة له وأعطى ابنه من الصلاحيات التي تمكنه من الحكم وتقويته، وقد ولّاه عهد السلطنة عندما جاءت أخبار المغول سنة (662هـ/1264م) بقدومهم للشام، فخرج لهم بِيبَرْسُ لحربهم، وجعل ابنه السعيد مكانه في السلطنة، وأقام لذلك احتفالاً عظيماً، بل إنه أوصى ابنه لتكريس مبدأ الوراثة قائلاً: "إنك صبي، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك، وتحققت ذلك عنه، فاضرب عنقه في وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً في هذا، وافعل ما أخبرتك، وإلا ضاعت مصلحتك"[3] إلا أن هذه المحاولة من التعديل على نظام الحكم ليصبح وراثياً باءت بالفشل بعد وفاة الظَّاهِر بِيبَرْسُ، ولم يصمد ابنه السعيد بالاستمرار في الحكم، وسرعان ما عاد الأمر إلى ما اعتاد عليه المماليك من أن الذي يحكم هو الأقوى بين الأمراء[4].

ومن حيث ترتيب الإدارة فقد عمد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، على ترتيب إدارته بحيث يكون السلطان على رأس الإدارة المملوكية، وكانت له صلاحيات واسعة[5]، وكان السلطان يعين كبار موظفيه كالنواب والوزراء وكتاب السر[6] والمحتسبين ونظار الدواوين، كما استخدم وظائف جديدة منها

---

(1) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص126).

(2) عيسى، العالم الإسلامي، (ص108).

(3) ابن واصل، مفرج الكرب (ج440/2).

(4) المقريزي، الخطط، (ج375/1).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص637).

(6) "كاتب السر": وظيفته التوقيع عن الملك والاطلاع على أسراره التي يُكاتب بها، وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل، وعليه تفهيم الملك القصص وعادة ما يتولى كاتب السر ديوان الإنشاء، السبكي، معيد النعيم ومبيد النقم، (ص30).

رأس الدولة ومهمته رئاسة المماليك السلطانية والفصل في خصوماتهم، وكان له الحق من عزل من يشاء من أصحاب هذه الوظائف، وله حق النظر في المظالم، وكان إلى جانبه أمراء أرفعهم أمراء المئة[1]، وأمراء الأربعين، أو أمراء الطبلخاناه[2]، وأمراء العشرة[3]، وأمراء الخمسة.

ونجد أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ هنا قد تفطن لنقطة مهمة جداً في قضية أحقيته في عزل من يشاء من أصحاب الوظائف وهذا إن دل يدل على أن الظَّاهِر بيرس حرص أن يكون لديه بطانة صالحة لا يعكر صفوها الفاسدين، فيحول وجود هؤلاء الفاسدين دون توفيق الله بالنصر والتمكين.

أما لقبه فقد كان يُلقب السلطان وكان أول من لقب بذلك صلاح الدّين الأيوبي بمصر، ثم تبعه المماليك، واتخذ الظَّاهِر بِيبَرْسُ لقباً له بعد قتل قطز، أمير المؤمنين، فصار اسمه السلطان الملك الظَّاهِر السيد الأجل الكبير، العالم العادل، المجاهد المرابط، المؤيد المظفر، المنصور، ركن الدنيا والدّين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، قاتل الكفرة والمشركين، ناصر الحق، مغيث الخلق، ملك البحرين، صاحب القبلة، خادم الحرمين الشريفين، محيي الخلافة المعظمة، ظل الله في الأرض، قسيم أمير المؤمنين، بِيبَرْسُ بن عبد الله الصالحي[4].

أما الدولة فسميت "المملكة الإسلامية" حيناً، أو "المماليك الإسلامية" حيناً أخرى، أما نيابة السلطنة فأبقاها الظَّاهِر بِيبَرْسُ لكثره تغيبه عن القاهرة في أعمال الجهاد والتفتيش على موظفي الدولة[5]، وسميَ بنائب الغيبة[6].

وأولى بِيبَرْسُ لديوان الإنشاء عناية خاصة لكثرة التحالفات والمعاهدات التي عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم وكان هذا الديوان يتكون من طبقتين من الكتاب، تعرف الطبقة الأولى بكتّاب الدست، (سموا بذلك لجلوسهم بين

---

(1) "أمراء المئة": عددهم "24" أميراً وأمير المئة مرتبه خاصة فيقال أمير مئة مقدم ألف، أسماهم الفاطميون الأمراء المطوقين نسبة لأطواق الذهب، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج2/ص476)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص239)؛ الخطط، (ج139/3).

(2) "أمراء الطبلخاناة": أمراء لهم الحق بدق الطبول، أسماهم الفاطميون "أرباب القضب" كان عددهم ثلاثون أميراً، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج472/2، ج5/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج139/3)؛ "الطبلخاناة": هي في الأصل لفظ فارسي، تعني: الفرقة الموسيقية السلطانية، دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، (ص106).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ج139/3)، ومنهم صغار أولاده والموظفين.

(4) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص130).

(5) حمزة، أدب الحروب الصليبية، (ص5).

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج17/4).

يدي السلطان)، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل، وكانوا في عهد الظَّاهِر بِيبَرْسُ ثلاثة: أرفعهم قدراً محي الدّين بن عبد الظَّاهِر أما الطبقة الثانية فتعرف بكتّاب الدرج، وهؤلاء كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وكتاب الدست عن القصص، وغير ذلك من الكتابات والمراسيم[1].

كما أن ديوان الإنشاء من الوظائف الهامة التي أولاها بِيبَرْسُ الاهتمام، فقد أولى كذلك الوزارة وديوان المالية[2] اهتماماً كبيراً، فكان منصب الوزارة الأول بين المناصب، وكان للظاهر بِيبَرْسُ وزيران أحدهما وزير دائم يبقى في القاهرة، وآخر يُدعى وزير الصحبة يرافقه في حملاته ورحلاته وكان الوزير محترماً، حتى أن رؤساء مصر والقاهرة والأمراء كان يمشون في خدمته عندما يعين في منصبه[3].

وكان لكل موظف شعار خاص يدعى رنك[4]، يُحفر على تحفة أو زجاجة أو قطعة معدن، وكان للظاهر رنك صورة أسد[5]، وعلامة يضعها على مناشيره هي المستعان بالله[6]، فكان هاذان الشعاران مبدأين حقيقين كان لهم حضور واضح في سياسة وحكم الظَّاهِر بِيبَرْسُ.

وقد عني الظَّاهِر بِيبَرْسُ بالبريد في إدارته، وكانت الأخبار تصله من سائر المملكة مرتين في الأسبوع، وكان على كاتب الإنشاء أن يبلغه أخبار المغول والفرنج كل صباح ومساء، حتى استطاع أن يسيطر على المملكة من قلعة الجبل، وكان البريد سريعاً وآمناً سواء برياً عن طريق الخيول أو جوي عن طريق الحمام الزاجل، وحقق ذلك من خلال توفير خيل كانت تربط في مراكز بين القاهرة والمدن الكبرى الأخرى، وكان في كل مركز بريد سواقون لا يتحركون إلا بمرسوم سلطاني، ووضع في كل مركز جميع ما يحتاجه المسافرين، وقد كانت أخبار البريد هذه حلقة الوصل بين أجزاء السلطنة، بحيث استطاع أن يسير موكباً من القاهرة ودمشق في اسبوع واحد[7].

---

(1)القلقشندي، صبح الأعشى ، (ج1/137-138).

(2) المرجع السابق، (ج16/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص642).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/439، ج2/92)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص421).

(4) "الرنك": شـعار للملوك والأمراء والأتراك والمماليك في مصـر، وهو كلمة فارسـية. الزيات، باب الراء، (ج1/376).

(5) حسن، دراسات في تاريخ المماليك، (ص168)؛ وقد اتخذ الأسد شعاراً له بسبب أنه يرمز إلى القوة، ويعتبر أسد بيبرس أشهر شعار مملوكي. مجلة الفيصل، (ع 112/94).

(6) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص134).

(7) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص446-447).

وكان الظَّاهِر بِيبَرْسُ يستطيع الانتقال بين دمشق والقاهرة مرتين في الأسبوع، وكانت هذه الرحلة لا تستغرق أكثر من يومين وسبع ساعات فقط، وقد جاءه خبر انتصار قواته من البِيرة سنة (663هـ/1265م) في أربعة أيام[1].

وكذلك اهتم في إدارته بالاستخبارات والتجسس والعناية باستطلاع الأخبار، حيث كانت ترد بالبريد، وهناك عدة قصص تدلل على دقة استطلاعه على ما كان يحدث في سلطنته، أو على حدودها[2]، ومن هذه القصص استطلاعه على اجتماع عدد من الأمراء في دار أحدهم لانتقاد السلطان فسمر أحدهم وكحل عيني آخر، وقطع يده ورجله ثم منع الاجتماعات قطعياً[3].

ومن القصص الدالة على قوة استخباراته أنه علم برسل المغول إلى المغيث، واستطاع أن يعلم مجيئ جواسيس للمغول إلى مصر عن طريق سيس فاعتقلهم[4]، وكذلك علم أن ملك الكرخ تنكر في زي راهب، وجاء إلى سيس، فعكا، فيافا، فقبض عليه من قبل بدر الدّين الخازندار وأرسله إلى القاهرة[5].

بقي أن ننوه إلى أن هذه الوظائف التي تطرقنا لها هي من الوظائف الكبرى والحساسة، ولكن كان هناك العشرات من الوظائف التي تعتني بجميع مناحي الحياة، سواء السلطانية أو أمور الدولة بشكل عام داخلية وخارجية، ومنها على سبيل المثال كانت هناك وظيفة الدكان خان، ومسؤوليتها الاهتمام بخيول البريد والبغال والسباع والفيلة، وكذلك وظيفة الشراب خان، ومسؤوليته عن شراب القصر، وكل ما يتعلق بذلك[6].

وقد جدد الظَّاهِر بِيبَرْسُ منصب الحاجب بحيث يحكم بين الجند في شؤون الإقطاع، ويأمر فيهم، ويقف مع السلطان عند النظر في المصالح، وكذلك جعل وظيفة جديدة، وهي المهمندار، ومسؤوليته استقبال الضيوف والسفراء والوفود، وتعيين مركز لكل منهم[7]. وكذلك

---

(1) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص135).

(2) المرجع السابق، (ص135).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج317/2).

(4) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص136).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج164/7).

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج119/4)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج83/7-84).

(7) المرجع السابق، (ج480/3).

ظهرت وظيفة الولاية، وهي تقابل ما يعرف في العصر الإسلامي الأول بالشرطة، ومسؤولية هذه الوظيفة حفظ النظام، والقبض على الجناة والمفسدين وسلامة الجمهور[1].

ثانياً: مسايرة أهل دولته بالصبر واستعمال الحيلة مع العصاة:

ومن أسباب نصر وتمكين الظَّاهِر بِيبَرْسُ أنه عمل في خدمته عدد من الأمراء المخلصين القادرين عسكرياً، وكان يُحسن اختيار هؤلاء من جهة، ويحسن معاملة أمرائه من جهة أخرى حتى كسب قلوب البقية، وقد كانت سياسته نحو أمراءه مبنية على العناية بأحوالهم، والاطلاع على سائر شؤونهم، وعلى العطف عليهم[2]، كما فعل عند استلامه السلطنة بالأمراء المشردين، وكذلك كما عمل بأتابكه فارس الدّين أقطاي، إذ ترك له إقطاعاته على كثرتها[3] وكما فعل ببنات الْأَمِيرُ حسام الدّين الجوكندار سنة (662هـ/1264م)، إذ سامحهنَّ بما يجب عليهن لبيت مال المسلمين من تركة أبيهنَّ، وكما فعل بابن الْأَمِيرُ شهاب الدّين القَيمُري، إذ أبقى عليه إقطاع أبيه، وترك أرض لعائلة والي سرمين في سرمين يستغلونها عند أسر الوالي[4].

ومن سياسته في مسايرة وإكرام أهل دولته أنه زَوَّجَ الْأَمِيرُ بدر الدّين بيليك الخازندار بابنة بدر الدّين لؤلؤ صاحب الموصل سنة (660هـ/1262م)، واحتفل له بعرسه وتكفل له بجميع النفقات[5]، وكذلك فعل مع سيف الدّين قلاوون سنة (661هـ/1263م) حين تولى الإنفاق على عرسه، وأهداه الهدايا الوفيرة[6].

وفي سنة (666هـ/1268م) استطاع أن يفك شَمْسُ الدِّينِ سُنْقُر الْأَشْقَرُ من الأسر إذ اشترط على "هيثوم" إطلاق سراح شمس الدّين مقابل إطلاق سراح "ليو ابن هيثوم" ملك أرمينيا[7]. وفي سنة (667هـ/1269م) منح أحد أمراءه أربعين فارساً، وترك له موجودات كثيرة[8]، وقد كان يُرَقِّي عدداً من المماليك بين سنة وأخرى، كما فعل في رجب سنة (670هـ/1272م)[9].

---

(1) المقريزي، الخطط، (ج223/2).

(2) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص211).

(3) المرجع السابق، (ص25).

(4) المرجع نفسه، (ص25).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج483/1).

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص542).

(7) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج385/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص570).

(8) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص580).

(9) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج597/1، ج470/2)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج7/4).

هذا من ناحية سياسة المسايرة، ولكنه كان يستخدم سياسة أخرى مع من لا يفلح معه ذلك، وهي سياسة العقاب، وفي سنة (661هـ/1263م) غضب على أحد خواصه، لأنه قتل أحد منادي سوق الخيل[1] وكثيراً ما كان يعتقل الأمراء، لكنه كان يعود إلى الإفراج عنهم إذا لم تكن أخطاؤهم خطيرة على سلطانه، وإذا كان يلمس منهم القدرة على خدمته[2].

وأخيراً، فإنه كان لا يأنف من مخاطبتهم بتواضع، فقد كتب لهم: أخوكم أو والدكم، وإذا ذكرنا كيف عامل بعض أمرائه في حصار صفد، إذ جلد بعضهم لتهاونهم، ثم ذهب إليهم، ليحدثهم بلطف بلغ حد الاعتذار بعد النصر، وكيف وزّع الأراضي والإقطاعيات بعد فتح قيسارية؟ وكيف كان القدوة لهم؟ ويشترك معهم في كل عمل مهما كان شاقاً، وبهذه السياسة كانت معاملته سخية ودقيقة، ولكنها تستتبع الطاعة وحسن الخدمة من أتباعه[3].

ثالثاً: إعادة الخلافة العباسية وإقامة التحالفات الإسلامية:

أحيا الظَّاهِر بِيبَرْسُ الخلافة العباسية سنة (659هـ/1261م) بعد شغور هذا المكان 3 سنوات نتيجة تغلب جيوش هولاكو على جيوش المستعصم بالله في بغداد وقضت على الخليفة والخلافة معاً عام (656هـ/ 1258م) [4].

وكان ذلك عندما خرج رجلاً وسيم الطلعة شديد القوة ذا شجاعة وإقدام يدعى أنه أحمد بن الإمام الظَّاهِر بن الإمام الناصر في غوطة دمشق، بعد أن وصلها من بغداد، حتى أفرج عنه المغول، فأصدر بِيبَرْسُ تعليماته بضرورة الاهتمام بهذا القادم وتسييره إلى مصر، وفي يوم الخميس من رجب وصل أحمد[5] إلى المطرية بالقاهرة، فتلقاه السلطان والوزير وقاضي القضاة والشهود والمؤذنون والقراء والأئمة وأعيان الدولة واليهود بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، وأهل المدينة ورحبوا به، ودخل أحمد من باب النصر مرتدياً السواد بشعار بني العباس، حتى خرج من باب زويلة، ثم صعد إلى القلعة راكباً[6].

---

(1) ابن الفرات، تاريخ الفرات، (م6/ج71/1).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص607).

(3) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص96).

(4) شبارو، السلاطين في المشرق، (ص55).

(5) هو محمد ابن أحمد أبو النصر الظَّاهِر بن الناصر المستضيء العباسي، من خلفاء الدولة العباسية، بُويع له بعد وفاة أبيه بالخلافة ببغداد، سنة (622هـ/1225م)، وكانت خلافته تسعة أشهر وأيام، ثم أصبح الخليفة الأول لمصر، ولقبه الظَّاهِر بِيبَرْسُ بالمستنصر، المقريزي، السلوك، (ج1/ق529/1).

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج411/1، 441-442، ج2/94-95).

فقام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بجمع مجلس ضم الوزير، وحضره الشيخ عز الدّين بن عبدالسلام، وبعض من الفقهاء والأئمة والعلماء والأمراء والصوفية وجمع كبير من الناس، وتثبت من نسب الخليفة، وشهد العربان بصحة نسبه أمام قاضي القضاة تاج الدّين عبد الوهاب بن بنت الأعز، فقبل هذه الشهادة، فثبت نسبه، ثم قام على قدميه، وبايعه بالخلافة، وتلقب باسم المستنصر ثم بايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها، وصرفها إلى مستحقيها، ثم ركب الخليفة والسلطان وشقا القاهرة في وجوه الدولة والأعيان والناس وهم محتشدون يتفرجون على هذا الموكب[1].

وفي يوم الجمعة 17 رجب كانت الخطبة الأولى للخليفة في جامع قلعة القاهرة، وفي 19 رجب أرسل الظَّاهِر في طلب الناس لمبايعة الخليفة والخطبة له على المنابر، وأقطع مماليك الخليفة اقطاعات واسعة في نابلس، ومنح مقدمهم طبلخاناه[2].

وفي (4 شعبان 659هـ/ 3يوليو 1261م) ألبس الخليفة السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ الخلعة السوداء التي صنعت له بأمر من الخليفة وعليها طوق وقيد من ذهب، وحض الناس على طاعة السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ، ثم بايع الناس الخليفة وكتب السلطان الكتب إلى الأقاليم المختلفة يدعو أهاليها لمبايعة الخليفة، والخطبة باسمه على المنابر، ولضرب السكة باسمه.

وبعد ذلك رتب السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ كل ما يلزم الخليفة من حاشية وإدارة ومساعدين، وعيّن له أتابكاً بألف فارس، وشرى له بيتاً، ومعه خمسمائة فارس وخازندار[3] بمئتي فارس، وأستاذ دار بخمسمائة فارس، وداودار[4] بخمسمائة فارس، وقاضياً وكاتباً وإماماً ومؤذناً وكاتب

---

(1) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، (ص81-82).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص448-467).

(3) "خازن دار": هو المسؤول عن خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/21).

(4) "الداودار": وظيفته القيام بتبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على مَن يحضر إلى الباب الشريف، وتقديم البريد، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتوقيع والكتب، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/19).

إنشاء وأطباء ومماليك صغاراً وكباراً ليتولوا خدمته، وجعل ذلك على حسابه، وفي 19 رمضان خرج الخليفة والسلطان من القاهرة إلى بركة الحَب، حيث لبس السلطان لباس الفتوى على يدي الخليفة، وفي يوم العيد ركبا معاً، وصليا العيد، وفي 6 شوال واصلا السير نحو بلاد الشام، فدخلا دمشق في 7 ذي القعدة، ونزل الخليفة التربة السلطانية الناصرية بقاسيون أما السلطان فنزل في قلعة دمشق، وصلى الخليفة صلاة الجمعة في جامع دمشق يوم الجمعة 10 ذي القعدة، والتقى بالظَّاهِر بِيبَرْسُ وخرجا بشكل احتفالي أمام الناس، وهم يدعون لهما بالنصر على الأعداء[1].

بعد ذلك قرر الخليفة التوجه إلى بغداد على رأس حملة عسكرية لتحريريها من المغول، ورصد له الظَّاهِر بِيبَرْسُ لذلك مبلغاً من المال، لكي يُجهز عشرة آلاف جندي، وأخذ الظَّاهِر بِيبَرْسُ التدابير الكفيلة لنصرة الخليفة، فأرسل معه ابني صاحب الموصل، وسيّر قوات إلى الرحبة لمنع المغول من دخول الفرات، وبعث سيف الدّين بلبان الرشيدي وسيف الدّين سنقر الرومي إلى حلب، لينجدوا الخليفة إذا استدعاهما[2].

وفي 21 ذي القعدة سار الخليفة نحو بغداد، ومعه نحو ثلاثمائة فارس، حتى وصل الرحبة، وهنا رفض ابني صاحب الموصل متابعة السير معه بحجة أن السلطان لم يعطهما مرسوماً بذلك، وانضم اليه ستون مملوكاً من مماليك صاحب الموصل، وبعض العربان من آل فضل، وأمير من حماه بثلاثين فارساً، حيث بلغ جيش الخليفة نحو ألف جندي، وانضم له أبو العباس أحمد، ومعه سبعمائة فارس بعد مفاوضات للانضمام ومناصرة الخليفة المستنصر، ثم تابع الخليفة سيره إلى المدينة، ففتحها أهلها له، ورحبوا به ثم انتقل إلى الناموسة، فإلى هيث، فدخلها عنوة في 29 ذي الحجة[3].

وفي أواخر ذي الحجة سنة (659هـ/1261م) وأوائل محرم سنة (660هـ/1262م) جرت معركة مع الخليفة والمغول، حيث خرج له المغول من بغداد إلى هيت[4] بعسكر بلغ عددهم خمسة

---

(1) أبو شامة، الروضتين، (ص213–214)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص82–83، 425–426)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص449–450، 351، 454، 459، 460).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص154).

(3) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص154).

(4) "هيت": بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وهي مجاورة للبرية في الإقليم الثالث. الحموي، معجم البلدان، (ج5/420).

آلاف جندي، وانتصروا عليه، وفر أبو العباس أحمد، فأما الخليفة فلم يعثر له على أثر بعد ذلك[1].

وبمقتل المستنصر عمد الظَّاهِر إلى إقامة خليفة آخر، والخليفة الجديد هو أبو العباس أحمد[2] الذي فر من معركة هيت، ثم دخل دمشق مع جماعة من الأعراب في (22 صفر 660هـ/ 15 يناير 1262م)، ثم سافر إلى مصر في 26 منه، ولقيه الظَّاهِر في الريدانية، ودخلا القاهرة في ربيع الأول من السنة نفسها، فاحتفل به الظَّاهِر وأنزله بالبرج الكبير داخل القلعة، ورتب له ما تدعو له الحاجة[3] وتلقب بالحاكم بأمر الله.

وفي 16 محرم خطب للخليفة بجوامع مصر، أما في دمشق فبعد ذلك بقليل، ثم رتب له الظَّاهِر نفقات تكفيه هو وعياله ومماليكه، وأوجب عليه الصعود إليه في أول كل شهر لتهنئته، وأمر بنقش الدنانير باسميهما، ففي ليلة الأربعاء 3 رمضان علم السلطان أن الخليفة لم يلبس لباس الفتوى، فألبسه إياه في احتفال كبير حضره رُسُل بركة خان[4].

ولم يكن بِيبَرْسُ أول من فكر بإحياء الخلافة بعد زوالها، فقد كان الناصر يوسف فكر بإحيائها، واستدعى أميراً عباسياً ورد على دمشق لتنصيبه خليفة، لكن وصول المغول بلاد الشام شغله عن ذلك، ثم إن قطز علم من عيسى بن مهنا لما جاء دمشق بوصول أمير عباسي، فأمره أن ينفذه إلى مصر، لينصبه خليفة، وقبل قطز مبايعته بدمشق، وسار، وافتتح عانة والحديثة

---

(1) أبو شامة، الروضتين، (ص214-215)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/454-455، 457، 483، 500، ج2/ ص109-110)؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، (ج2/125)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص88-96)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص462-463، 467)، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/115-117)، السيوطي، الخلفاء، (ص477-478)؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، (ج1/102).

(2) كان قد اختفى بعد دخول المغول بغداد ثم ظهر في أوائل سنة (657 هـ/ 1259م)، عند أمير خفاجة، فأرسله هذا إلى نور الدّين زامل بن حذيفة أمير الأعراب، فإلى ابن مهنا، أمير آل فضل حين طلبه الناصر صلاح الدّين يوسف لتنصيبه خليفة، لكنه انشغل بوصول المغول ثم بايعه قطز خليفة وأرسله لاستعادة بغداد في سنة (658هـ/1260م) ثم عاد إلى دمشق فإلى مصر حيث وجد الإمام أحمد قد سبقه فعاد إلى الشام وبايعه البرلي ثم التقى بالمستنصر. أبو شامة، الروضتين، (ص215)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/483-486).

(3) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص92)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/118).

(4) أبو شامة، الروضتين، (ص216-221)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/483-484، 53)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج3/223-224).

وهيت والأنبار، وانتصر على المغول ثم كاتبه علاء الدّين الطيبرس الوزيري أن يقصد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، فامتنع حين علم أن أميراً عباسياً آخر يقصدها، وقصد حلب، وبايعه شمس الدّين البرلي[1].

ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظَّاهِر إن تأسيس خلافة قوية الأركان في بغداد قد تكون خطراً عليه، فأوغر ذلك صدره على الخليفة، وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك.

وذكر خوري في كتابه: (سيرة الملك السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ) تعليل ر. هارتمان R Hartman إحياء الخلافة العباسية في القاهرة عام (659هـ/1261م) بما يلي:

أن زوال الخلافة العباسية ببغداد أوجد فراغاً سياسياً لم يؤثر على الفقهاء مقدار ما أثر على الحكام الذين كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة إلى سلطة تكسبهم الشرعية. وكان أبو نمى[2] شريف مكة قد منح حاكم تونس الحفصي الاعتراف الرسمي بخلافته، وبلقب المستنصر سنة (650هـ/1252م)، ولم يكن هذا الإجراء متمشياً مع معنى الخلافة في مفهومها السني، لكن هذا الاعتراف كسب قيمة جديدة حيث قام المماليك بعد معركة عين جالوت بإرسال خبر النصر[3] لأبي عبدالله الحفصي، وتسميته بأمير المؤمنين، أما بِيبَرْسُ، وهو أقوى في سلطته فقد فَضَّل أن لا يمنح اعترافه إلى جار قوي قد يكون خطراً عليه. بل حل مشاكل الشرعية والاستمرار بتنصيب لاجئ عباسي خليفة من القاهرة، وتلقيبه بالمستنصر أيضاً[4]، ونتيجة لذلك أعلن أبو نمى شريف مكة، ولائه للسلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ، الذي اتخذ لقب "خادم الحرمين"[5].

ولا ريب أن عمل بِيبَرْسُ هذا كان ذا أثر في نفوس المسلمين حتى قيل له:

أيا أسـد التـــــرك يا ركنـــهم	**ويا آخـــــذاً بالثأر بعد المخافة**
كسرت الطغاة جبرت العفاة	**قطعت الفرات وصلت الخلافة[6]**

---

(1) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص93-94)؛ السيوطي، الخلفاء، (ص317).

(2) وهو محمد بن حسـين بن علي بن قدادة ابن ادريس ابن مطاعن الحسـني أبو نمى، من أشـهر أمراء مكة، وتولى أمرها قرابة خمســين عاماً، وكانت فترة حكميه مليئة بالحروف والفتن، وقد تخللها أيضــاً فترات أمن وهدوء واســـتقرار، وعُرف بالشـــجاعة والحزم، توفي ســـنة (701هـ/1301م، الفاســـي، العقد الثمين، (ج1/ص456-466)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (ج422/3).

(3) انظر ملحق رقم (2)، (ص149).

(4) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص93).

(5) الدوري، أوراق من التاريخ والحضارة، (ص268).

(6) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، (ج103/1).

وقد استفاد بِيبَرْسُ من غزو العراق بحملة الخليفة أن جاءه بعض شيوخ عبادة وخفاجة، وأعلنوا ولاءهم له، وكانوا عيونا للمماليك على المغول[1].

وأفاد من إحياء الخلافة أنه جعل السلطنة المملوكية ذات صفة شرعية[2]، وجعل القاهرة مركزاً للخلافة، بيد أن النفقات كانت كثيرة، ولقد استهدف توطيد سلطانه بإحيائه الخلافة، ولكن سلطانه في الحقيقة لم يكسب قوة فعلية، لأن الخلافة كانت جثة هامدة لا حياة فيها، وقد يُحمل هذا على القول أن محاولته بشقيها لم تكن ناجحة[3].

وزد على هذا أن إحياء الخلافة هذا قد فتح المجال أمام المدّعين، ففي رمضان سنة (665هـ/1267م) جاء دمشق رجل زعم أنه ابن المستعصم[4].

إقامة التحالفات الإسلامية:

عندما تسلم الظَّاهِر بِيبَرْسُ السلطنة وجد نفسه أمام عناصر مختلفة تتحد للقضاء عليه، وهي القوات الصليبية والقوات المغولية وما يتبعهما من قوات محلية مسايرة لها أو خوفاً منها، أو حقداً على الظَّاهِر، كدولة السلاجقة وكدولة الأرمن، وطالما عملت هذه القوى في الاتحاد في محاربة السلطان بِيبَرْسُ، وكان طبيعياً أمام هذا الواقع أن يتبع السلطان الظَّاهِر سياسة تؤدي إلى شق صفوف الخصم من ناحية، وإلى إنشاء كتلة من المؤيدين تناصره، وإلى تقوية جيش له يكون الدعامة الأولى في هذا الصراع، أما الجيش فقد أسسه الظَّاهِر بِيبَرْسُ بشكل قوي ومتين يضاهي جيوش المنطقة في ذلك الحين، وأما شق صفوف الخصم فواضح من محالفته مع القفجاق ومحاولة التحالف من الأشكري، وأما كتلته التي أنشأها فكانت القوات المملوكية محورها ولتأمين هذه الكتلة، فقد ساير بعض المواقع الصليبية حتى بلاد الشام في البداية، ثم أنشأ صداقة مع صاحب اليمن، وأخيراً احتل بلاد النوبة[5].

والسلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ بحنكته السياسية وجد أن الوسيلة الفضلى لمقاومة المغول هي في الجمع بين الوسائل الدبلوماسية والعسكرية معاً، حيث كان للمغول ثلاث دول متنافرة من الصين والقبجاق وفارس، وقد كانت عداوته موجهة إلى إيلخانات فارس فلا بد إذاً من مصادقة

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص476).
(2) العيد، أصول الفقه، (ص26).
(3) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص94).
(4) أبو شامة، الروضتين، (ص240).
(5) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص145).

القفجاق، وقد استمرت المفاوضات بين الظَّاهِر وبركة خان نحو سنين أدت إلى التحالف بينهما، ووضع الاليخانات بين فكي كماشة[1].

وبركة خان[2] (654هـ-664هـ/1256-1266م) أول السلاطين المشهورين، وقد اعتنق الإسلام، واختلف مع هولاكو وكانت عاصمته سراي شرقي ستالينغراد[3] فولغوغراد حالياً وهي إحدى مدن روسيا، وفي سنة (659هـ/1261م) كان بركة خان قد أعلن إسلامه، وفي سنة (660هـ/1262م) وقعت الحرب بين بركة خان وهولاكو لاستياء بركة من تأسيس دولة الاليخانات بفارس، والامتناع عن إعطاء القفجاق نصيبهم من الأسلاب[4]، فكان طبيعياً بعد هذا أن يتصل السلطان بِيبَرْسُ ببركة خان للتعاون معا على هولاكو.

كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ يمهد لكل عملية من عملياته العسكرية باستمرار من خلال المعاهدات الدولية التي كان يعقدها مع القوى الدولية المعاصرة له.

وظل الصراع قائماً بين الطرفين (بركة وهولاكو) إلى أن توفي هولاكو يوم الأحد من (19 ربيع الثاني 663هـ/7 فبراير 1265م)، وله من العمر 48 سنة، ثم توفي بركة خان عام (665هـ/1267م)، إلا أن الصراع بين القبيلة الذهبية وإيلخانات ايران من سلالة هولاكو لم ينته بل امتد حتى نهاية القرن (السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي)، وفي محرم سنة (661هـ/1263م) أرسل السلطان الظَّاهِر رسالة وهدية إلى بركة خان، وفي الرسالة حض على الجهاد، وعرض لما يقوم به في سبيل الإسلام، وإخباره بإحياء الخلافة[5].

والتقى وفد الظَّاهِر في القسطنطينية بوفد من قبل بركة خان، فعاد مجد الدّين مع وفد بركة خان إلى السلطان الظَّاهِر، وتابع سيف الدّين سيره إلى بركة خان، ووصل بركة خان القاهرة في رجب سنة (661هـ/1263م) عبر الإسكندرية، ومعه رسالة مضمونها أن بركة خان محب للدين، وأن هذا العدو، يعني هولاكو، قد تعدى على المسلمين، واستولى على بلادهم، وقد رأيت

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص479-480).

(2) "بركة خان": كان خفيف اللحية، كبير الوجه، في لونه اصـفرار، يلف شـعره عند أذنيه، في أذنه حلقة فيها جوهرة ثمينة، وفي وسـطه سـيف، وفي حياصـته قرون معوجة معممة بالذهب، يجلس على تخت مرخى الرجلين على كرسـي حيث أنه يعاني من آلام النقرس، وقد كان يسـتقبل السـفراء ولديه من 50-60 أميراً ومعه زوجته، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج542/1)؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (م6/ج104/1).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص561).

(4) الذهبي، تاريخ الاسلام، (ج126/2)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص101-104، 120).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص479-480).

أن تقصده من جهتك، وأقصده من جهتي، فنصدمه صدمة واحدة فنقتله، أو نطرده عن البلاد، وإن كانت واحدة من هاتين أعطيناك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها[1].

واستمر التفاوض بينهما عامين كاملين أفضى إلى التحالف وتخلله محاولة الأشكري حاكم القسطنطينية التشويش على هذه المفاوضات من خلال المراوغة، واحتجازه وفد الظَّاهِر بِيبَرْسُ برئاسة الْأَمِيرُ فارس الدّين أقوش المسعودي لمدة عامين، وكان هذا الأشكري يُظهر أنه يريد التحالف مع بِيبَرْسُ، ولكنه كان يماطل ويراوغ بغية التحالف مع المغول، وبقي الوفد محتجزاً لديه حتى هاجم بركة خان القسطنطينية، وأفرج عن وفد بِيبَرْسُ، وفرض غرامة سنوية معينة على الأشكري مقابل الصلح[2].

واستمر هذا الحلف بين الظَّاهِر بِيبَرْسُ والقفجاق حتى بعد وفاة بركة خان في رجب (665هـ/1267م) فخلفه ابن أخيه منكوتمر[3].

وفي سنة (668هـ/1270م)، هاجم "منكوتمر" القسطنطينية[4]، وفي السنة التالية جاء إلى الظَّاهِر برسالة من زعماء القفجاق يؤيدونه، ويعلنون الولاء له، فأجابهم السلطان مؤكداً على استمرار الجهاد[5].

وفي (رجب 666هـ/ مارس 1268م) عاد رسول الظَّاهِر من بلاد الكرج، حيث كان أرسله لجواب مضمونه تأييد الظَّاهِر القفجاق وعداؤه لاليخانات فارس[6].

أما السلاجقة فقد استنجد عز الدّين بن غياث بالظَّاهِر بِيبَرْسُ على أخيه ركن الدّين الذي أيده المغول في سنة (659هـ/1261م)، وبعث الظَّاهِر جيشاً لنصرته[7]، ولكن عز الدّين لم يستطيع مع ذلك الوقوف أمام أخيه الذي يناصره المغول المحتلون، فهرب عز الدّين إلى انطاكية، ثم إلى القسطنطينية[8].

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/533-534)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص110-111).

(2) المرجع السابق، (ج1/538، ج2/197)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص114).

(3) المرجع نفسه، (ج2/363-364)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج4/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص517، 561-563).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ج4/6).

(5) ابن الفرات، تاريخ الفرات، (م6/ج1/60-65).

(6) المرجع السابق، (م6/ج1/60-65).

(7) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص470).

(8) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/458، ج2/114، 160-161)؛ المقريزي، السلوك،(ج1/ق1/ص470).

أما بخصوص الأشكري حاكم القسطنطينية فقد حاول بِيبَرْسُ إحراز اختراق بمصادقته، ولكن الأشكري كان مراوغاً وأبدى حسن النية تجاهه وأخفى عكس ذلك لكسب الوقت، ليتحالف مع المغول حتى سنة (660هـ/1262م)، حيث أرسل الظَّاهِر بِيبَرْسُ إليه وفدين، وكان أولهما: بطريك وأساقفة كان الأشكري قد طلبهم للنصارى الملكانيين في بيزنطية، وعاد هذا الوفد في رجب، وثانيهما: يحمل هدية فيها زرافة وتحف غريبة، ورسالة قرأها الأشكري احدى عشرة مرة، وعاد هذا الوفد في شعبان، وأرسل الظَّاهِر الأدوات والآلات اللازمة لترميم جامع بيزنطية الذي بني في سنة (51هـ/671م)[1] وبقي هذا الحال بين الأشكري، وبِيبَرْسُ من تبادل للرسل والهدايا، حتى انتهت علاقة هذا الود عندما هاجم بركة القسطنطينية، وتدخل الظَّاهِر في التفاهمات والصلح بينهما، وكان السبب الرئيسي في تأخير الأشكري لوفد الظَّاهِر بِيبَرْسُ أنه في طريقه للتفاهم مع هولاكو[2]، وانتهت هذه التفاهمات مع هولاكو، إلى تحالف بينهما وإلى تزويج ابن الأشكري ببنت هولاكو لتوطيد هذا التفاهم ما جعل العلاقات مع الظَّاهِر سيئة[3]

وبهذا التفاهم بين الأشكري وإليخانات فارس من جهة، والتفاهم بين الظَّاهِر وبركة من جهة ثانية أخذ القفجاق يهاجمون القسطنطينية، ودخلوها سنة (668هـ/1270م) ما حمل الأشكري إلى أن يكون أشد حذراً في علاقته الخارجية، ومن سنة (667هـ/1269م) اتصل بالظَّاهِر، ثم لم يعد يتدخل في الحروب التي جرت بين الظَّاهِر والمغول والسلاجقة والأرمن، حتى أنه في سنة (670هـ/1272م) أرسل للظاهر وفداً، وقابله السلطان بالمثل، وتبادلا الرسائل سنة (674هـ/1275م) أيضاً[4].

وبرزت الناحية الاقتصادية في هذه الحروب والمحالفات بشكل واضح، إذ عمد بعض الصليبيين إلى محاربة المماليك اقتصادياً، ففي سنة (658هـ/1260م) زوروا الدراهم في يافا جاعلين نسبة الفضة فيها إلى النحاس بنسبة (15 إلى 85 بالمئة) ما أحدث الرعب بين الناس، وكما أخرجوا هذه النقود للتخلص منها بشراء البضائع، فتزايدت الأسعار، وافتقر قوم، واستغنى آخرون[5] ثم حاولت بعض الدول الصليبية منع التعامل التجاري مع المماليك بالأخشاب والحديد، لأنها مفيدة في الصناعات العسكرية، وهذا دفع الظَّاهِر بِيبَرْسُ لعقد سلسلة من التحالفات

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص469).
(2) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص514، 538).
(3) المرجع نفسه، (ص514، 537).
(4) المقريزي، السلوك، (ص588، 607-621).
(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج376/1-377).

الاقتصادية لإفشال هذا الهجوم الاقتصادي، فتحالف مع جنوى على التبادل التجاري، وكانت التجارة الهدف الأول من تبادل السفارات السياسية مع صقلية حتى اراغون، فقد رأت نفسها بعد فشل المعونة العسكرية لعكا مضطرة لعقد تحالف تجاري مع المماليك، ثم إن بيروت لعبت دوراً كبيراً في المبادلات التجارية عبر البحر المتوسط، فقد وجه السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلى بيروت اهتماما خاصاً[1] ونلاحظ أن السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ قد قاد الدفة في هذه الميادين بحنكة ومهارة عالية.

وكذلك كان هناك الحظ الوافر للتحالف مع الدول الأوروبية (صقلية، جنوى، اراغون، اشبيلية)، لأن الظَّاهِر بِيبَرْسُ أدرك جيداً أن الميدان العسكري وحده ليس كافيا لتوطيد النصر والتمكين، وقد كان يعلم أن المغول يتصلون بالصليبيين في بلاد الشام والأوربيين للحصول على نجدات، لذلك عمد إلى مصادقة صقلية وجنوى، فكان هذا كافياً للحيلولة دون وصول نجدات عسكرية إلى عكا وأنطاكية والمغول، عدا أنه كانت لهذه العلاقات فائدة تجارية[2].

وفي سنة (659هـ/1261م) قرر الظَّاهِر بِيبَرْسُ ايفاد رسول إلى صقلية، وبالفعل وصل الرسول المؤرخ ابن واصل مندوباً عنه إلى "مانفرد بن فريدريك" أمير صقلية حاملاً هدية ورسالة فيها عرض للتعاون والصداقة، وفي سنة (662هـ/1264م) رمضان كتب أمير صقلية للظاهر يقول: إن الملك شارل شقيق لويس التاسع أمره أن يستجيب لأوامر الظَّاهِر مهما كانت وكان شارل هذا هو الذي مول الحملة الصليبية الأخيرة إلى تونس[3].

وبخصوص جنوى والبندقية فكانت العلاقات تجارية بالدرجة الأولى قد هدفت إلى أن تبيع الأخشاب والحديد لبناء السفن، وصنع الأسلحة وأن تبيعه الرقيق للجندية[4].

وأما اراغون فكانت علاقتها بالظَّاهِر سيئة، وكانت تواصل إرسال العِدَد لعكا كما جرى في ربيع الاخر سنة (668هـ/1270م)، لكن ملك الاراغون رأى بعد مصالحة عكا والظَّاهِر أن

---

(1) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص174).

(2) المرجع السابق، (ص209).

(3) المرجع نفسه، (ص209).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج125/2)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص121–122)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص601).

يتصل بالسلطان لعقد معاهدة تجارية، وفي سنة (675هـ/1226م) تم تبادل الوفود والهدايا، حتى تم الاتفاق على التبادل التجاري[1]، وعقد معاهدة تجارية مع اشبيلية منذ سنة (669هـ/1271م).[2]

ويبدو أن الظَّاهِر أصاب نجاحاً كبيراً في هذا الميدان، فهو من جهة عزل الصليبيين في الشرق، وحال دون التحالف مع المغول، ثم استطاع من جهة أخرى أن يعقد المعاهدات التجارية، وأمّن بذلك الموارد المالية الضخمة الضرورية له من ناحية عسكرية[3].

أسباب نجاح الظَّاهِر بِيبَرْسُ على المغول والصليبيين:[4]

ويعود أسباب نجاح الظَّاهِر بِيبَرْسُ على المغول والصليبيين إلى ما يلي:

1. جيشه المنظم تحت قيادته، وإخلاص القادة له، والمبادرة إلى تنفيذ أوامره على الفور.
2. وجود قادة ماهرين أكفاء يحيطون بالظَّاهِر.
3. محالفته مع القفجاق والدويلات الأوربية، لا سيما صقلية وجنوى، ما أدى إلى توزيع قوى خصومه، والحيلولة دون اتحادهم.
4. انقسام المغول إلى اليخانات فارس، والقفجاق بجعلهم متنافرين.
5. انقطاع المدد العسكري من أوروبا للصليبيين والمغول.

وبالنسبة للتحالف مع اليمن، كانت له علاقات ود وصداقة معهم، يدل على ذلك أن التجار كانوا يأتونه مرتين في السنة، وكان التجار وأصحاب الأموال يأمنون المرور في أراضي سلطنته بسبب عدله، والأمن السائد في البلاد[5]، وفي سنة (661هـ/1263م) جاء رسل صاحب اليمن بهدية إلى الأمراء والخواص من مصر، فاستقبل الظَّاهِر الرسل، وسمح لهم بتوزيع الهدايا على أمرائه وخاصته[6].

وفي أواخر سنة (665هـ/1267م) وبعد سلسلة انتصارات للظاهر بِيبَرْسُ على المغول والصليبيين أرسل صاحب اليمن رسالة يطلب فيها محالفته مقابل أن تكون الخطبة في المساجد له ببلاد اليمن وفي (صفر 666هـ/ أكتوبر 1267م)، رد الظَّاهِر على صاحب اليمن بهدية

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص585).

(2) المرجع السابق، (ص621).

(3) فراج، دولة المماليك، (ص72).

(4) خوري، سيرة الملك الظَّاهِر، (ص205).

(5) المرجع السابق، (ص206).

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص501).

ورسالة وافق فيها على طلبه، ولما حجّ الظَّاهِر إلى مكة سنة (667هـ/1269م) اتصل بصاحب اليمن، وحرَّضه على الإسهام معه في محاربة المغول[1].

وهكذا قامت العلاقات بين الظَّاهِر وصاحب اليمن على التهادي وتبادل التأييد المعنوي من ناحية، وعلى تأمين مرور التجار من ناحية ثانية، وإذا لم تكن الناحية الأولى ذات أثر فعال فلابد أن الناحية الثانية كانت ذات أثر بارز من حياة المماليك الاقتصادية عامة، ولعل هذا هو ما دفعه إلى توطيد سلطانه على بلاد النوبة[2].

وكانت بلاد الحبشة على علاقة ودية مع الظَّاهِر بِيبَرْسُ، ويبدو أن الظَّاهِر لم يتفرغ للبلاد الواقعة جنوب مصر إلا بعد أن كان قد وجه ضربات قاصمة للصليبيين، وحال دون التحالف المغولي الأوروبي. ففي سنة (672هـ/1273م) أرسل ملك الجبشة عن طريق صاحب اليمن رسالة للظاهر بِيبَرْسُ تحدث فيها عن كثرة جيوشه، وعن وجود المسلمين والنصارى فيها، وعن استعداده لمناصرته، ويعلن له الخضوع، ويصف له حسن معاملته للمسلمين الوافدين عليه، ثم يطلب منه مطراناً لبلاده، فرد عليه الظَّاهِر مخاطباً إياه بصديق الملوك والسلاطين[3].

وكان الظَّاهِر بِيبَرْسُ يحظى باحترام سلطان اليمن، وتعظيمه لما عُرف عن دوره البطولي في عين جالوت، فكان ذلك من بين الأسباب التي جعلت السلطان الرسولي يسعى إلى توثيق علاقاته السياسية بمصر، ويتجلى ذلك من أحد مواقفه عندما حج في (659هـ/1261م) إذ حدث عندما حان وقت الوقوف بعرفات أن أمر بأن تُرفع أعلامه مضمومة إلى أعلام مصر، فلما اعترض بعض أتباعه، وطلب من المظفر الرسولي تقديم أعلامه، رفض، وقال: "أتراني أؤخر أعلام ملك كسر المغول بالأمس؟!"[4].

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/379)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/141).

(2) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص219-222، 383-385)؛ القلقشندي، صبح الأعشى،(ج8/119).

(3) ابن أيبك الدوداري، كنز الدرر، (ج8/174).

(4) أحمد، بنو رسول – بنو طاهر، (ص396).

الفصل الثالث

الأسباب العسكرية لنصر وتمكين الدولة المملوكية

المبحث الأول:
حماية الأمن والاستقرار الداخلي

أولاً: بناء الحصون:

بدأ الظَّاهِر بِيبَرْسُ ببناء الحصون، وترميم ما وجد منها، وذلك بوضع حجر الأساس لذلك من خلال بناء مشهد في عين جالوت، وعُرف بمشهد النصر تخليداً لذكرى صد الزحف المغولي[1].

ثم بدأ بترميم ما خربه المغول من قلاع الشام، كقلعة دمشق التي كان المغول قد هدموا رؤوس أبراجها، فجددها، ودهن سقوفها، وبنى فيها منظرة وقلعة الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة بصرى وقلعة بعلبك، وقلعة شيزر، وقلعة الصبيبية، وقلعة شميمش بجوار حمص وقلعة حمص، حيث قام بإصلاحها جميعا، فنظفت خنادقها، ووسعت أبراجها، وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد، وخزنت بها الغلات والأزواد، ثم جدد أسوار الأكراد وعَمَّر قلعتها[2].

وفي جمادي الآخر (662هـ/1264م) تم بناء برج في قارا[3]، وأمر ببناء برج آخر أكبر منه لحفظ الأمن والدفاع عنه ضد الفرنجة المجاوزين[4]. وأمر أيضاً ببناء أسوار الإسكندرية، وخصص لذلك نفقات شهرية، وبنى مرقباً لكشف البحر في ثغر الرشيد، وأمر بردم بحر دمياط، كي يضيق ويتعذر دخوله على السفن المعادية، وفي سنة (662هـ/1264م) أرسل من ينظف خليج الإسكندرية، وفي رمضان من السنة الثانية وجه أميراً والياً على بحر اشموم، ثم تبعه في شوال لتنظيفه مما تجمع فيه من الوحل، وغَّرق فيه عدد من السفن، وفي صفر سنة (664هـ/1266م) ذهب إلى الإسكندرية للمشاركة في حفره، ثم غرَّق فيه المراكب، ليستحيل على سفن العدو الدخول إليه[5].

---

(1) المقريزي، السوك، (ص446-465).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (ج96/7).

(3) في الأصل "قازا" ولا يوجد في المصادر علم بهذا الاسم وأحسبها "قارا" وهي قرية في منتصف الطريق بين دمشق وحمص. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج113/4).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص511).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج322/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج404/3)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص 446، 510، 537، 544).

وأمر بتجديد عمارة ثغر دمياط، وبنى وجدد فيه سلسلة الحديد من البحر إلى البحر، وردم الناحية التي تدخل منها مراكب الفرنجة[1]. وعمر قلعة العمودين[2]، وفي السويس بنى قلعة جديدة[3] وهدم قلعتي قيسارية وأرسوف، وبنى قلعة في قاقون بدلاً منهما[4]، وفي الكرك هدم برجين صغيرين، ثم جدد بناءهما[5].

وجدد باشورة في قلعة صفد، وعمّر فيها أبراجاً وبدانات، ثم أنشأ في القلعة صهريجاً كبيراً مدرجاً وبنى عليه برجاً بلغ مئة ذراع[6]، ثم أعاد الظَّاهِر بِيبَرْسُ تحصين القلاع التي تحمي مناطق الحدود مع دولة مغول فارس، وشحنها بالذخيرة والأقوات، وتمركزت بها أعداد كافية من الجنود، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة عرفت باسم (المنائر) ترصد نشاط العدو في تلك المناطق الحدودية، وكان تبادل المعلومات بين نقاط المراقبة هذه يتم عن طريق الإشارات الضوئية بالنيران، أو إشارات الدخان[7].

ثانياً: القضاء على الخارجين عن الدولة:

- **التمردات في الشام:**

كان هناك محاولات كثيرة في بداية السلطنة تحاول القضاء على سلطنة بِيبَرْسُ في مهدها، وقد واجهها بِيبَرْسُ جميعها، وقضى عليها، ففي سنة (658هـ/1260م) كان وقع تمرد سنجر الحلبي في دمشق، حيث كان يطمع بالسلطنة من بعد عز الدّين أيبك، وبسبب هذا اعتقله قطز في الإسكندرية (655هـ/1257م) إلى أن أفرج عنه لاحقاً وعينه نائباً بدمشق بعد معركة عين جالوت، وكانت بداية تمرده بأن طلب من أعيان وأمراء دمشق أن يقسموا له على الطاعة، وأن

---

(1) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج1/87).

(2) "قلعة العمودين" : هي قلعة تقع في مدينة برقة، وهي بين الإسكندرية وإفريقية، ويُحيط بها البرابر من كل جانب، وبها سوق، وبين الاسندرية وبرقة مسيرة شهر، افتتحها المسلمون صلحاً زمن عمرو بن العاص وأسلم أكثر أهلها. الحموي، معجم البلدان (ج1/389).

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/192).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص557).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/195).

(6) المرجع السابق، (ج7/195).

(7) العبادي، قيام دولة المماليك، (ص209-211).

يخطب له وللظاهر معاً في دمشق، وأن تكون السكة باسمهما، وانقسم أمراء دمشق بين مؤيد ومعارض له، أما الناس في دمشق فكانوا معه[1].

ونتيجة لذلك استعد الظَّاهِر بِيبَرْسُ فور وصوله لصد هذا التمرد، وعمد على القضاء عليه في مهده في عدة خطوات، فأرسل على الفور الْأَمِيرُ جمال الدّين أقوش إلى بلاد الشام يحمل كتابين، ثم أرسل معه جيشاً يقوده علاء الدّين البُنْدُقْدارِي وبهاء الدّين بغدي الأشرفي، وكذلك أرسل معهم نائبه في الساحل البري[2].

وعند وصول الكتاب الأول الذي كان يلوم الظَّاهِر بِيبَرْسُ فيه الْأَمِيرُ سنجر، ويحضه على العودة عن التمرد، فما كان من سنجر إلا أن أعلن الاستقلال، وقطع الخطبة باسم الظَّاهِر، وانفرد بها، ثم ركب بشعار السلطنة، وجمع العمال لعمارة قلعة دمشق[3].

وبعد ذلك وصله الكتاب الثاني لأمراء الشام الذي كان موجهاً لهم، يدعوهم بِيبَرْسُ بعدم دعم سنجر، ووعدهم بأموال لهم، فخرج بعضهم عن طاعة سنجر الحلبي، وانضم لجيش الظَّاهِر بِيبَرْسُ الذي بعثه، وكان هذا الجيش قد وصل في (13 صفر 659هـ/16 يناير 1261م)، فخرج سنجر بجيشه لمواجهته لكنه هُزم وفر إلى بعلبك، ودخل جيش الظَّاهِر دمشق، وأقيمت فيها الخطبة للملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وأدار شؤونها علاء الدّين البُنْدُقْدارِي شهراً، حيث جاء علاء الدّين الطيبرس الوزيري من قبل الظَّاهِر نائباً عن قلعتها ومسؤولاً عن أموالها[4].

وفي بعلبك تم اعتقال سنجر وارساله إلى الظَّاهِر بِيبَرْسُ الذي قام بدوره بمعاتبته واكرامه، وأطلق سراحه ليحاول بعدها مرة أخرى الاستقلال في حلب، ففشل، وبعدها خضعت الشام كلها لسلطنة الظَّاهِر بِيبَرْسُ[5].

ثم ما كان بعد ذلك من شمس الدّين أقوش البرلي والي نابلس وغزة والساحل، حيث تمرد على الظَّاهِر، وكان تمرده متعباً حيث استخدم أسلوب الكر والفر والحيلة والكذب مع الظَّاهِر، وبعدها صدر قرار اعتقاله من قبل الظَّاهِر، حيث فر، واتصل بالأشرف صاحب حمص، وحرضه

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، (ص210)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/373-375)؛ المقريزي، الخطط والآثار، (109).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/107).

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج3/217).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/438،373)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج3/217-219).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج3/219).

على الثورة فلم يجبه فاتصل بأمراء حماة، فأجابه بعضهم، وأخبروه بأنهم مستعدون لفتح القلعة له، لكن منصور صاحب حماة علم بهذه الخيانة، وغيَّر حراس القلعة، وأجهض الثورة[1].

وبعد ذلك عمد البرلي إلى الحيلة حيث طلب من فخر الدّين الحمصي صاحب حلب التوسط له عند الظَّاهِر، وعند خروج الحمصي إلى القاهرة استولى البرلي على حلب، وعزل أنصار الظَّاهِر، ونائبه، وأقر أصحابه فيها وأقطعهم الأراضي ثم وزع الغلال المخزونة في المدينة على الأعراب الوافدين عليه بقيادة الْأَمِيرُ ابن حديثة[2].

وفي شعبان سنة (659هـ/1261م) وصل جيش الظَّاهِر بقيادة سنجر الحلبي بعد أن عفى عنه، ووجهه إلى محاربة البرلي، واسترداد حلب منه، وتوليته عليها، وقابل هذا الجيش جيش البرلي، ففر البرلي، منهزماً إلى حران[3].

وبعد ذلك عاد البرلي واسترد حلب من سنجر الحلبي مرة أخرى، وعاد الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وأرسل له جيشاً بقيادة علاء الدّين البُنْدُقْدارِي ففر البرلي من حلب وسلمها للبُنْدُقْدارِي، وعيّن والياً عليها وانتهت الخطبة للبرلي، ثم دخل القاهرة في ذي الحجة سنة (660 هـ/1262م)، بعد أن عفى عنه الظَّاهِر وأكرمه، وكرم العزيزية والناصرية الذين معه أيضاً إلى أن عاد إلى اعتقاله في (28 رجب 661هـ/6 يونيو 1263م)، وكان ذلك آخر العهد به[4].

ثم جاء تمرد المغيث صاحب الكرك، وهو ابن الملك العادل سيف الدّين أبي بكر الذي صار ملكاً على مصر بعد وفاة والده الملك الكامل سنة (635هـ/1238م)، ثم سجنه الملك الصالح نجم الدّين أيوب، واستولى على السلطنة بدلاً منه، وبعد وفاة الملك الصالح كان شيخ الشيوخ في مصر يريد أن يمنح السلطنة للمغيث، لكن حسام الدّين بن علي نائب السلطنة اعتقله

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج439/1، ج104/2،93-105، 119-120)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج220/3).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج439/1-449، ج93/2-94)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج220/3).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج105/2، 122)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج226/3).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج493/1، 535، ج194/2)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج223/3)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص92)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص47).

بقلعة الجبل، حتى جاء تورانشاه، وحكم مكان والده الصالح أيوب، وبعد مقتله أفرج عن المغيث وملك الكرك[1].

وكان المغيث والظَّاهِر يعرفان بعضهما جيداً، حيث كان الظَّاهِر مطارداً زمن عز الدّين أيبك، والتجأ فترة من الزمن للمغيث، ولا يأمن كل واحدٍ منهما الآخر، وبدأ التمرد من قبل المغيث سنة (659هـ/1261م) عندما تسلم الظَّاهِر بِيبَرْسُ الشوبك باتفاق سري مع نواب المغيث على الشوبك[2]. والتي استردها المغيث بالتحالف مع الشهرزورية، ولم يتحرك الظَّاهِر لانشغاله في دمشق وحلب، وبعدها قام المغيث بالتواصل مع الشهرزورية والمغول، وتمرد معه بعض أمراء السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ، ثم اتصل بهولاكو يعرض عليه المساعدة في محاربة الظَّاهِر بِيبَرْسُ[3].

وفي السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة (661هـ/1263م) دخل الظَّاهِر بِيبَرْسُ غزة وجاءته والدة المغيث تشفع لابنها، فقبل الظَّاهِر شفاعتها، وبعث إلى المغيث للقائه في الطور ولكن المغيث لم يجب وبعث له رسالة أغلظ له فيها الكلام وراسل المغيث، بعض أمراء الظَّاهِر وصاروا يحذرونه من غدر الظَّاهِر، وكان فيهم ناظر خزانة الظَّاهِر، ومع ذلك لم ييأس الظَّاهِر بِيبَرْسُ من استدراج المغيث، وكان ينوي اعتقاله والغدر به، فبعث الظَّاهِر بِيبَرْسُ للمغيث رسالة أقسم فيها أربعين مرة بالطلاق من أم الملك السعيد خاتون[4] مشفوعة بالهدايا والأموال لتطمينه بعدم الغدر به، ولكن المغيث أرسل للظاهر رسائل الأمراء من حوله يحذرونه من غدر الظَّاهِر، فرد عليه الظَّاهِر بِيبَرْسُ أنه هو مَن أمر هؤلاء بذلك، ليختبر أمانتهم، فسار إليه المغيث في جمادي الأولى سنة (661هـ/1263م)، حتى إذا وصل قريباً من مكان السلطان خرج السلطان يستقبله، وأراد المغيث الترجل بين يدي الظَّاهِر، فمنعه، وسارا جنباً إلى جنب إلى دهليز السلطان، فدخل الظَّاهِر دهليزه، أما المغيث فأخذ إلى مكانٍ آخر وتم اعتقاله ثم قُيِّد وأُرسل إلى قلعة الجبل

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/297–298).

(2) المرجع السابق، (ج2/439، ج2/193)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج3/223).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص468).

(4) خاتون: كلمة أعجمية تُطلق على المرأة الشريفة، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، فصل الخاء، (ج1/1193).

بالقاهرة بحراسة شمس الدّين الفرقاني، فوصلها ليلة الأحد في الخامس عشر من جمادي الآخرة، حيث كان فيها آخر عهده، إذ انتهت حياته في شوال سنة (662هـ/1264م)[1].

أما عن كيفية مقتله فيقال: إن زوجة الظَّاهِر أمرت جواريها بضربه بالقباقيب حتى الموت[2].

بعدها تحاكم الظَّاهِر بِيبَرْسُ لقاضي القضاة في دمشق في اجتماع حضره صاحب حمص وعدد من أمرائه الذين أنكرو على الظَّاهِر هذا التصرف في حلف اليمين، ثم لم يلتزم بنتيجته، وعرض عليهم كتب المغيث إلى المغول يدعوهم فيها لمهاجمة البلاد، ويعدهم بالعون، ثم تليت أجوبة المغول في ذلك، ثم جيء برسل من هولاكو شهدوا ضد المغيث بذلك، فأفتى الفقهاء بفسخ اليمين إذ صحت التهمة[3].

وتسلم الظَّاهِر الكرك في الأربعاء 23 من جمادي الآخر، ودخل قلعتها الجمعة في 25 من نفس الشهر، وأنعم على مَن بها، وغفر لمن أساء له كنوع من الوفاء لمن وقف معه أثناء ما كان طريداً، وفي 16 من رجب وصل السلطان إلى قلعة الجبل، ومعه زوجات أولاد المغيث الذين أكرمهم[4] وبهذا يكون قد زال خطر الأيوبيين رغم وجود بعض الأمراء منهم في حمص وحماة وصهيون ولكنهم كانوا مخلصين للظاهر[5].

بعد ذلك كان هناك عدة محاولات للتمرد، وهي حالات فردية من بعض الأمراء الذين أكرمهم، ولا تشكل خطورة كبيرة على سلطنة الظَّاهِر، وعالج كل واحد منها بما يناسبه.

ففي رجب سنة (661هـ/1263م) قبض السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ على عز الدّين الدمياطي، حيث قام الدمياطي بإرسال جماعة مسلحين ملثمين، واستولى على ما كان السلطان

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج530/1، 532، ج192/2-193)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج225/3-226)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص107-109).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج530/1، 532، ج192/2-193).

(3) المرجع السابق، (ج530/1، 533، ج107/2-194)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج226/3)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص108-109)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص482).

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج532/1، 533، ج193/2)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج226/3).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص504).

وهبه لأولاد المغيث، فانفضح سره وعلم السلطان بذلك، فقبض عليه، ولكنه عاد وأفرج عنه فيما بعد وأكرمه[1].

وفي سنة (669هـ/1271م) تكشفت للظاهر بِيبَرْسُ مؤامرة يبدو أنه كان للأيوبيين ضلع فيها، فاعتقل العزيز ابن المغيث بتهمة الاتفاق مع الشهرزورية لاعتقال السلطان، واستلام العرش مكانه، ثم عاد واعتقل مقدمي الشهرزورية أيضاً[2].

- **التمردات في مصر:**

في أواخر سنة (658هـ/1260م) قامت جماعة من السودان الركاب دارية بثورة في القاهرة مطالبين بعودة آل علي إلى السلطنة، وكان زعيمهم يُعرف بالكوراني، لكن الجيش قضى عليهم في ليلة واحدة وعلقهم على باب زويلة[3].

وفي ربيع الأول في سنة (659هـ/1261م)، عمد الْأَمِيرُ عز الدّين الصقلي ومجموعة من الأمراء، وهم: علم الدّين الغتمي، وبهادر المعزي، وشجاع الدّين بكتوت إلى تنظيم مؤامرة للانقلاب على السلطان، فاعتقلهم السلطان، وصادر أجنادهم، وقضى على المؤامرة في مهدها[4].

وفي سنة (660هـ/1262م) كانت انتفاضة شهرزورية والأكراد بقيادة المقيص في مصر الذي استدعى شخصاً من بني العباس لتنصيبه خليفة، وإقامة دولة أخرى غير المماليك، فقضى الظَّاهِر بِيبَرْسُ عليه وشنقه يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمادي الآخر[5].

وفي ذي الحجة من السنة نفسها أمر بالقبض على عدد من الأمراء، بينهم علم الدّين سنجر الحلبي، وجمال الدّين أقوش "المحمدي"، وعز الدّين ايغان "سم الموت"، وسجنهم بقلعة الجبل بحجة أن هؤلاء كانوا قد اتفقوا على قتله حين كان يحاصر قلعة الشقيف، وقد أسرَّها في

---

(1)المقريزي، السلوك ، (ج1/ق1/ص193-194).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/444)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص85).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص440).

(4) المرجع السابق، (ج1/ق1/148).

(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، (ص217-218).

نفسه يوم ذاك، لكن مدة اعتقالهم لم تطل، إذ شرع بعد قليلٍ من الوقت بإطلاق سراحهم، وأقطعهم الاقطاعات الواسعة، لأن منهم مَن ناصره في بداية عهده[1].

وفي سنة (673هـ/1274م) عرف الظَّاهِر أن ثلاثة عشر أميراً كاتبوا المغول، يحرضوهم على غزو بلاد الشام، فاعتقلهم الظَّاهِر، وأقروا بما فعلوه، وأعدمهم جميعاً، وكان آخر العهد بهم[2].

واتبع الظَّاهِر في جميع محاولات التمرد عليه خطة واحدة، وهي الإسراع في القضاء عليها بالقوة العسكرية، وبالإعدام، وكذلك مستخدماً الحيلة، ونتيجة هذه السياسة نلاحظ ان مكانة الظَّاهِر بِيبَرْسُ بعد (662هـ/ 1264م) كانت قد توطدت، بحيث لا تستطيع مقاومة فردية أن تخلعه.

وكل ما سبق تزعمه أفراد سواء أكان الشخص نائباً له على منطقة، أو مجرد أمير من الأمراء عنده، لكن كان هناك مَن هم ضده ولكن جماعة، مثل: "الأعراب والاسماعيلية والنوبة".

فالأعراب برز خطرهم زمن عز الدّين أيبك سنة (651هـ/1253م)، عندما ثاروا عليه في صعيد مصر، وتحالفوا مع الناصر يوسف، وفشلوا، وعاودوا الكرة سنة (653هـ/1255م)، وأخمد ثورتهم هذه أيضاً[3].

واستخدم الظَّاهِر بِيبَرْسُ سياسة الحيلة والاحتواء مع معظم العربان القريبين لمنعهم من الاحتكاك مع الفرنجة والمغول، ليكسب ودهم، واصطفافهم بجانبه في أي معركة ضده، ومنهم عرب خفاجة، وزامل ابن علي وعيسى بن مهنا شمال بلاد الشام، وعربان الحجاز الذين التزموا بدفع الزكاة والطاعة[4]، بل استخدمهم الظَّاهِر بِيبَرْسُ فيما بعد في جهاد المغول والفرنج، كما فعل مع مهنا بن عيسى، عندما كلفه سنة (673هـ/1274م)، بشن غارة على بلاد المغول، وتخريب ثغورهم، ونجح في ذلك[5].

أما الأعراب البعيدون عن خطر الاحتكاك بالفرنجة والمغول، فقد فتك بهم السلطان بِيبَرْسُ بعنف، ولم يستخدم معهم الحيلة والاحتواء، ومنهم: عرب برقة الذين هاجمهم سنة

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/453)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص444-543)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج1/154).

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/268).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص387-388، 396).

(4) المرجع السابق، (ج1/ق1/ص48-49، 501-502).

(5) السيد، التتار والمغول، (ص135).

(671هـ/1273م)، وفي جمادي الآخر في السنة الثانية استسلم إليه أمراؤها، وسلموه مفاتيح القلاع[1]، أما بالنسبة للنوبة فهي بلاد على شاطئ النيل من تلال أسوان إلى مروة قرب الشلال الرابع وتقسم إلى قسمين: النوبة العليا والسفلى، وتقع هذه الأخيرة بين أسوان ووادي حلفا أما النوبة العليا تقع بين وادي حلفا والشلال الرابع، وتشمل حلفا ودنقلا، وتسمى أيضاً بلاد العلي أو علوة[2]. وفي بلاد النوبة السفلى كان بنو كنز ويعود نسبهم لعرب بني كنز بن ربيعة، وكان هؤلاء منذ عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي يتمتعون ببعض الاستقلال[3].

ثم جاء الظَّاهِر بِيبَرْسُ فتتدخل ببلاد النوبة تدخلاً فعلياً، لا بل استولى عليها، وجعلها جزءاً من سلطنته، وذلك عام (674هـ/1275م) عندما تدخل في النزاع بين داود ملك النوبة مع ابن عمه أوشكندة، واستنجد الأخير بالظَّاهِر بِيبَرْسُ، فكان له النصرة، وعيّنه ملكاً فيها، وألبسه التاج، وعاد الأمر بعد ذلك للملك داود الذي التزم بدفع الخراج لدولة المماليك[4]، ومن كثرته أنشئ ديوان خاص بخراج النوبة، وبذلك أمَّن الغلات، واستقرت البلاد وأمنت من شر العبث والفتن[5].

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج1/ق521/1-544).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (ج188/7-189).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، (ج235/1).

(4) عدوان، التاريخ الاقتصادي، (ص32).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج9/4)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص234، 239، 246)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص621)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج188/7-196)؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج109/1).

المبحث الثاني:
التخطيط والاعداد الحربي

أولاً: التخطيط العسكري:

عرف عن الظَّاهِر بِيبَرْسُ أنه قائد عسكري محنك وصاحب تجربة عسكرية تحترم إلى جانب أنه سياسي ودبلوماسي جيد، وبروزه كقائد عسكري ساعد في تحقيق كثير من الانتصارات في شتى المجالات، سواءً على جهة المغول أو الفرنج، أو حتى خصومه الداخليين، وخلال كل هذه المحاولات استخدم التكتيكات العسكرية التي كانت وسيلة في احراز انتصاراته عليهم.

1- الحصار والخدعة العسكرية:

فقد استخدم الظَّاهِر بِيبَرْسُ تكتيك الحصار ضد أعدائه وذلك لتحقيق أهدافه، سواء أكانت للتحرير؟ أو بث الرعب؟ أو حتى الاضعاف؟ ففي (8 رمضان 664هـ/ 12 يونيو 1266م) حاصر صفد بغية فتحها وأتى بالمجانيق من دمشق على الجمال، وعلى أكتاف الأمراء والأجناد، وأسهم بذاته بجر الأخشاب، لا يتعب، ولا يمل، حتى نُصِبت المجانيق، ورميت القلعة بها في 26 من رمضان، وعندما صمدت جيوش الفرنجة أمام الحصار اقترح بعض أمراء الظَّاهِر، عليه الصلح فحبسهم الظَّاهِر واستمر القتال إلى الرابع عشر من شوال دون أن يجدي الحصار شيئاً فأعد الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلى حيلة لشق صفوف المدافعين المحاربين عن صفد، بأن منح الأمان لسكانها الأصليين من المسيحيين دون الفرنجة، عند ذلك ضعف شأن المدافعين عن القلعة، ففاوضوه على الأمان والصلح وكان شرط الصلح ألا يحمل المستسلمون سلاحاً ولا لأمة حرب ولا شيئاً من الفضيات، وأن يُتلفوا شيئاً من ذخائرهم وأن يخضعوا للتفتيش عند خروجهم حتى إذا وجد مع أي منهم شيئاً من ذلك انتقض العهد، فقبل المدافعون بذلك، وأجلس السلطان الْأَمِيرُ سيف الدّين كرمون التتري مكانه في دست السلطة، لشبه به، وأقسم لرسل صفد بالأمان[1].

وفي (18 من شوال 19 تموز) ركب السلطان الظَّاهِر إلى باب صفد، وأخذ الفرنجة يمرون والجنود والمماليك يفتشونهم، فوجدوا معهم أسلحة وفضيات وأسرى مسلمين، فوضع رجال الحامية في حبسه، وعددهم نحو ألف فارس، ثم ضُربت رقابهم جميعاً إلا اثنين أسلم أحدهما، وأعيد الآخر للفرنج، ليخبرهم بما شاهد، ثم دخل الظَّاهِر بِيبَرْسُ القلعة والمدينة، فولى على القلعة

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، (ج24/49).

الْأَمِيرُ مجد الدّين الطوري، والْأَمِيرُ عز الدّين العلائي نيابة المدينة، والْأَمِيرُ علاء الدّين الكبكي مقدماً للجيش[1].

وبذلك حقق تعاليم النبي محمد ﷺ، وامتثالاً لأوامره في الحرب، حيث قال ﷺ: "الحرب خدعة".[2]، وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾[3].

وفي الثاني عشر من رجب سنة (666هـ/1268م) قرر الظَّاهِر بِيبَرْسُ احتلال شقيف أرنون التي كان يمتلكها فرسان الداوية[4] وكانت محصنة جيداً، فأمر جيشه بالسير نحو دمشق، وسلم قواته رسالة شرط ألا يفتحوها قبل الوصول إلى بانياس، فسارت القوات، حتى بلغت بانياس، حيث فتحوا الرسالة فوجدوا أمراً بمحاصرة قلعة شقيف، فباشروا ذلك يوم الثلاثاء الثامن عشر من رجب، ونصبوا عليها 26 منجنيقاً، وشددوا عليها الحصار، لكن قوات الفرنجة لم تستلم، فعمد الظَّاهِر إلى حيلة وذلك من خلال توصيل رسالة من أهل عكا للقوات الفرنجة في الشقيف حصل عليها بجهدٍ استخباري، وهذه الرسالة كانت تدعو أهل الشقيف للمقاومة والصمود أمام هجمات المماليك، ويلفتون أنظارهم إلى نقاط ضعفٍ في الحصن، لكن الظَّاهِر بِيبَرْسُ أرسل رسالتين مزورتين باسم أهل عكا، إحداهما للوزير في القلعة يحذره من القائد العسكري، وثانيهما للقائد يحذره من الوزير، وأرسلها بدل تلك الرسالة، فكان هذا سبباً في الخلاف بين الطرفين، ثم أن الظَّاهِر استفاد من إشارات أهل عكا حول نقاط الضعف في الحصن، وشدد الهجوم عليها، فاحتل الباشورة في السادس والعشرين من رجب، وهنا رضي المدافعون عن القلعة بالاستسلام مقابل الأمان على حياتهم، فدخل القلعة يوم الأحد في 29 من رجب من نفس العام، وسمح للنساء والأولاد بالرحيل إلى صور وأخذ أسرى، وعيّن الْأَمِيرُ صارم الدّين قايماز نائباً عن القلعة، وأصلح القلعة القديمة ورمم ما كان هدم منها، وجعلها حامية إسلامية[5].

---

(1) أبو شـــامة، الروضـــتين في أخبار الدولتين، (ص240)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج1/337-338، 343-361).

(2) [البخاري: صحيح البخاري، باب الحرب خدعة، ج4/64: رقم الحديث 3030].

(3) القرآن الكريم، سورة الأنفال، آية (58).

(4) "فرسان الداوية": نسبة إلى فرسان المعبد الصليبية التي اشتهرت في شجاعتها في قتالها للمسلمين تأسست عام 1118م، وهم من الرهبان المشهورين بالشجاعة. ابن واصل، مفرج الكروب، (ج2/370).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/376-377)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص164-165).

2- ارسال الطلائع العسكرية للاستكشاف وتأمين طريق الجيش:

وهذا التكتيك مهم في التأمين العسكري لم يغفل عنه الظَّاهِر لما له من أهمية في تقدير موقف لقوة العدو واستعداده، والحيلولة دون أن يستطيع عمل أي كمائن للجيش في طريقه.

وعندما عزم الظَّاهِر إلى توجيه ضربة إلى أنطاكية أرسل جيشين لتأمين الطرقات من الفرنجة على رأس الجيش الأول عز الدّين أوغان، والجيش الثاني الْأَمِيرُ بدر الدّين الأيدمري، وتوجه هو مع الجيش الثالث إلى طرابلس، فشن عليها غارة، وخرب قراها وهاجم طرابلس بالذات، ثم توجه إلى حصن الأكراد، وهاجم بانياس، ثم قصد حماة، وأقام فيها، وأعد العدة لمهاجمة أنطاكية[1].

وفي سنة (662هـ/1264م) أغارت العساكر المملوكية على السواحل، ووصلت أبواب عكا وفي الرابع من جمادي الآخر كلف السلطان الْأَمِيرُ شجاع الدّين الشبلي المهمندار بعمل استكشاف لمدينة عكا وحولها، ووصل أعمالها عند الصبح، ثم طاف حولها من ناحية البر، ثم حاصر جيشه برجاً قريباً من عكا حتى المغرب، ثم عاد إلى دهليزه، ثم عاد في اليوم التالي إلى مهاجمة عكا مرة أخرى بعد هذه الاستكشافات، فوجد أن الحامية قد حفرت خندقاً حول تل الفضول، وأوجد عثرات في الطريق، لكن جيشه ردم الخندق، فانهزم جند عكا، وأغلقوا أبواب المدينة[2]. وبهذا أوصل الظَّاهِر بِيبَرْسُ رسالة أنه غير عاجز عنهم، وانسحب، فأرسل السلطان طليعة من جيشه تكتشف مكان العدو، فوجدوه في صحراء ابلستين منتظماً في أحد عشر صفاً في كل منها ألف فارس، وفي العاشر من ذي القعدة اصطدم الجيشان، وجرت معركة عنيفة خاضت قوات السلطان الظَّاهِر فيها قتالاً عنيفاً نتج عنه فرار البرواناة وسلطان السلاجقة وجيشهما[3].

---

(1) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص165-166)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص566)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج154/1).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص488).

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج9/4-10)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج167/7-170).

ثانياً: استنفار الجنود وانتخاب القادة:

وهذا التكتيك العسكري حظي بالأهمية حيث أن معرفة طبيعة المعركة وجغرافيتها وطبيعة الخصم تمكنه من استنفار جيوش وحشد قوات مناسبة، وكذلك انتخاب قادة أكفاء لذلك، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾[1].

ففي سنة (661هـ، 1263م) هاجم المغول قلعة الروم، فبعث نائب البِيرة "وهي الحد الفاصل بين اليخانات والمماليك" والمرصد لتحركات المغول، ليعلم السلطان بذلك، وفي محرم سنة (663هـ/1265م) كانت القوات المملوكية متفرقة في المراعي، وكان الظَّاهِر بِيبَرْسُ في الصيد، فحشد المغول قواتهم عند البِيرة ظانين أن المماليك لن يجمعوا قوتهم في الوقت المناسب، لكن السلطان سرعان ما انتخب الجيوش لذلك، وأفضل قادته، فجرَّد نحو أربعة آلاف فارس بقيادة بدر الدّين الخازندار. وأمر بتجريد أربعة آلاف أخرى بقيادة عز الدّين ايغان، وسار الجيشان في الرابع عشر من ربيع الأول وأرسل إلى المنصور صاحب حماة، لينضم إلى الجيشين الأولين، فتراجع المغول عن البِيرة، وأرسل الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلى البِيرة الآلات والأسلحة والجند والمؤنة ما يكفيها لحصار 10 سنوات[2].

وكذلك كان الحال في (5 جمادي الأول 671 هـ/ 27 نوفمبر 1272م)، حيث نزل المغول إلى البِيرة، ونصبوا عليها مجانيق، وسدوا معابر الفرات، وأمام هذا الهجوم جهز الظَّاهِر الْأَمِيرُ فخر الدّين الحمصي إلى جهة حارم وجهز الْأَمِيرُ علاء الدّين طيبرس الوزيري إلى الجهة الأخرى من الفرات، وأرسل جماعة لاستطلاع أخبار المغول، فعلم أن عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي، وفي الثامن عشر من جمادي الأولى أتبع الظَّاهِر الجيوش الثلاثة بجيش رابع بقيادته، ومعه نحو عشرة مراكب صيادين مفككة، جهزها ببحيرة حمص محمولة على الجمال، فوصل الفرات، فوجد المغول مرابطين على الشاطئ المقابل، فأنزل مراكبه في النهر، ليصنع منها جسراً، وشحنها بالجنود، وتراموا مع المغول بالنبال والنشاب، حتى استطاع قلاوون أن يخوض الفرات، ومعه عدد من الجنود وعدة وافرة، ثم تبعه بدر الدّين بيسري الشمسي في جمع آخر من الجند، ثم القى الجند بأنفسهم إلى الفرات، وعامَ فيه ألفا فارس، الفارس إلى جنب الفارس، وهم متماسكون، اجتازوا النهر، حشوداً لا أفرادا ثم انتشروا يأسرون وينهبون ولم يجدوا للمغول أثراً، فخشي الظَّاهِر أن المغول يكمنون له، فلم يتبعهم، بل اكتفى بالاستيلاء على البِيرة، وكان جيشه قد واجه مشقات

---

(1) سورة النساء، آية (71).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، (ص337)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج318/2).

كبيرة في هذه الحملة، ثم منح نائب البِيرة هبات وخلعاً وأموالاً، ووزع العطايا على أهل البلد، وزاد عدد جنود الحامية، ثم قفل راجعاً إلى دمشق فالقاهرة[1].

ثالثاً: النكاية بالأعداء وإذلالهم:

وهذا التكتيك الذي عمد له الظَّاهِر بِيبَرْسُ في معظم معاركه فيه كسر للروح المعنوية للعدو، وبالتالي اضعافه، والوصول لهزيمته في أماكن أخرى، فيشعر العدو بعدم الرغبة في المقاومة في المرات القادمة له.

ففي التاسع عشر من شوال سنة (664هـ/1266م)، بعد أن قام الظَّاهِر بِيبَرْسُ بفتح صفد قصد دمشق ودخلها يوم الخميس في الأول من ذي القعدة، وهنا جاءته رسل صاحب سيس بهدية ورسالة للمصالحة، فرفض الهدية والرسالة، وأراهم رؤوس قتلى أتى بها من غزوة عكا[2].

عند ذلك أخذ هيثوم يستعد للحرب، وفي الثالث من ذي القعدة سنة (664 هـ/1266م) تحرك جيش الظَّاهِر بقيادة الْأَمِيرُ أق سنقر الفرقاني[3] وسيف الدّين بيدغان المعروف "بسمِّ الموت" وقلاوون الألفي نحو الشمال، ودخلوا قليقية وفي الثاني والعشرين من ذي القعدة أسروا عدداً كبيراً من الأرمن، بينهم ابن هيثوم، وقتلوا عدداً كبيراً بينهم شقيق هيثوم، ثم انسحب الجيش المملوكي إلى جهة بلاد الروم، حيث وصلوا إلى سيس في ذي الحجة حيث كان صاحب حماة ينتظرهم ثم قفلت قوات الظَّاهِر راجعة إلى الشام[4].

وفي (18 شوال 664هـ/ 22 يوليو 1266م) فتح السلطان الظَّاهِر صفد، وقتل فيها خلقَ كثير[5] وبعد المعركة جاء رسل عكا يطلبون منه أن يسمح لهم بنقل أجساد شهدائهم، فقرر الثأر من أهل عكا، واحتفظ بالرسل عنده، وفي صبيحة اليوم التالي هاجم أهل عكا وهم خارجون من

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج7/4)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج131/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج158/7-159).

(2) ابن الغوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، (ص355)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج322/2، 343-344).

(3) كان مملوكاً للأمير نجم الدّين ثم انتقل إلى السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ، فترقى عنده حتى صار أحد الأمراء الأكابر ولّاه نيابة السلطنة في عهده واستقر في عهد السلطان السعيد بركة، قُتِل على يد الخاصكية سنة (676هـ/1277م)، ولم يُعرف مكان قبره، وقد أنشأ في حياته المدرسة الفرقانية وخصص فيها درساً للشافعية وآخر للحنفية، المقريزي، خطط، (ج369/2).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج3/4). ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ج104/1).

(5) ابن الفرات، تاريخ الفرات، (م6/ج199/1).

المدينة لقضاء حوائجهم، ثم عاد إلى الرسل، وقال لهم إنه أوقع في عكا شهداء، وكفى أهلها مؤونة نقل شهداء صفد[1].

رابعاً: الهمة العالية لدى جيش المماليك المستمدة من همة قائدهم الظَّاهِر بِيبَرْسُ:

رفع الروح المعنوية للجنود أساس في التكتيك العسكري وهذا لا يتأتى إلا من خلال الهمة العالية لدى القيادة في تحقيق الأهداف والعمل والصبر وهذا ما جسده الظَّاهِر بِيبَرْسُ وجنده طيلة معاركه.

ففي (8 جمادي الأولى 663هـ/ 25 فبراير 1265م) هاجم الظَّاهِر قيسارية على حين غفلة وحاصرها بجند مستعملاً المجانيق والدبابات وأرسل بعض جيشه للإغارة على بيسان وعكا للحيلولة دون قدومهم لمساعدة قيسارية وكان السلطان يشترك بنفسه في الهجوم فهو حيناً يرابط على كنيسة تجاه القلعة وحيناً آخر يعتلي دبابة ذات عجل ويسير إلى السور ليرى الثقوب ثم يقاتل حيناً ثالثة وفي (15 جمادي الأولى 663هـ/ 4 مارس 1265م) استسلمت القلعة ودخلها السلطان[2]. وبعد ذلك هجم بنفسه على عتليت[3] وخربها في يومٍ واحد وعاد[4]، وبعد العودة من عتليت رأى الظَّاهِر أن يهاجم أرسوف وفي مستهل جمادي الآخرة نزل عليها وجمع حولها الأحطاب ليجعل فيها ستائر وحفر سربين من خندق القلعة إلى خندق المدينة لكن الفرنجة أحرقوا الأحطاب ولاقت القوات المهاجمة المشقة حتى أن الظَّاهِر كان بنفسه يجر المجانيق ويرمي بالأسهم ويضرب بالقطاعة ويداه مجرحتان ثم حشد الفقهاء والمعممين والنساء الصالحات لسقي الماء في المعركة، وأطلق الرواتب للجميع حتى لا يكون لأحد شغل غير الحرب ثم تداعى أحد الأبراج وتسلقت القوات المملوكية الأسوار ورفعت راية التوحيد ثم أعطي الأمان للفرنج واستسلمت القلعة في (رجب

---

(1) ابن أبي الفضـــائل، النهج الســـديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص148-151)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص557).

(2) أبو شـــــامــة، الروضـــتين في أخبـار الـدولتين، (ص233-234)؛ اليونيني، ذيـل مرآة الزمــان، (ج2/318-319).

(3) "عتليت": أو عثليت وهي منطقة بجوار حيفا يوجد بها قلعة الحجاج وهي تابعة لرهبان الداوية وهي حصــن على البحر يصـــعب اقتحامه ويحمي ممر الكرمل من الجهة الجنوبية. زكار، تاريخ الحروب الصـــليبية، (ج1/397).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص527-528).

663هـ/ مايو 1265م) وهدم السور وصارت أرسوف فيما بعد حصناً لحماية الطريق من القاهرة إلى بلاد الشام[1].

ولم يكتفِ الظَّاهِر بِيبَرْسُ برفع الروح المعنوية لدى الجنود من خلال همته العالية، بل كذلك عمد على معاقبة كل من يحاول أن يمس الروح المعنوية العالية من قادته، ففي (3 رجب 664هـ/ 9 إبريل 1266م) بينما كانت جيوش أبغا في حرب مع جيوش القبجاق التي غزت فارس أصدر الظَّاهِر تعليمات لولاته، ليجهزوا الأجناد للغزو، فتلكأوا في تلبية أمره، فأرسل سلاح دارني[2] إلى سائر أعمال مصر وعلقوا الولاة المتأخرين من أيديهم ثلاثة أيام[3]، وفي (26 رمضان 664هـ/ 30 يونيو 1266م) عندما حاصر الظَّاهِر صفد، وصمدت الجيوش الفرنجية في وجه جيش الظافر حتى اقترح بعض أمراء الظَّاهِر أن يتراجعوا، ولا سيما وقد أغار أهل عكا على الشقيف، وهنا اضطر السلطان أن يَعِد المحاربين العشرة الأولى بمكافئات مالية، واعتقل الذين أشاروا بالمصالحة وأمر بالقتال حتى الرابع عشر من شوال فإن الفرنجة لم يستسلموا، بل إن أمراء الظَّاهِر أخذوا يشعرون بالتعب، ويذهبون إلى صواوينهم للاستراحة، فذهب إليهم السلطان وضرب بعضهم بالدبابيس، وجلد البعض الآخر[4].

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/318-319)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج4/2)؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ص132-133)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص529-530).

(2) السلاح دار لقب للذي يحمل سلاح السلطان أو الْأَمِيرُ ويتولى آمره السلاح خانا وما يتبعه، دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (ص91).

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ق1/ص545).

(4) ابن الفرات، تاريخ الفرات، (م6/ج1/197).

المبحث الثالث:

الجهاد العسكري على الثغور "فتح أنطاكية نموذجاً"

أولاً: أهمية مدينة أنطاكية:

1- أنطاكية الموقع الجغرافي:

قسم الجغرافيون الشام إلى ست كور أو أجناد هي: قنسرين، وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشراة، "وأما قنسرين فقصبتها حلب، ومن مدنها أنطاكية".[1]

ومدينة أنطاكية قصبة إقليم العواصم وحاضرته [2]، بينها وبين حلب من جهة الشرق مسيرة يومين، وبينها وبين شاطئ البحر من جهة الغرب حوالي ستة أميال. [3]

والمدينة تحتل سهلاً طوله ثلاثة أميال، محاطة باستحكامات طبيعية تتمثل في جبل اللكام[4]، وهو على شكل نصف دائرة متصلة بالجبل، والأسوار "تصعد مع الجبل" لتتم دائرة يبلغ طولها اثني عشر ميلاً[5] يمكن عبورها عن طريق عدة أبواب تؤدي إلى الطريق الموصلة إلى حلب، وإلى اللاذقية غرباً، وإلى الاسكندرونة وميناء السويدية شمالاً، ومن هنا تأتي قوة الحصانة لمدينة أنطاكية صاحبة الأسوار الطويلة بأبراجها العالية التي أثارت كل من رآها وطمع فيها، بالإضافة لموقعها في الوادي بين النهر والجبل، فأصبحت عصية على سهولة احتلالها سواء براً أو عن طريق البحر. [6]

---

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، (ص154).

(2) "العواصم جمع عاصم وهو المانع، والعواصم: حصون وموانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصدتها أنطاكية، وسماها الرشد حيث استخلف العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها. الحموي، معجم البلدان، (ج3/741-742).

(3) ابن فضل، مسالك الأبصار، (ص23).

(4) بدأ اللكام من مكة فيسمى هناك العرج ثم يحيد حتى يتصل بجبال الروم "طوروس" وعند دمشق تسمى بجبل "سينيو" وعند بعلبك بجبل لبنان، وعند طرابلس بجبل عكار، وعند أنطاكية بجبل اللكام، القلقشندي، صبح الأعشى، (ج1/85).

(5) ابن بطوطة، تحفة النظار، (ج1/43).

(6) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، (ص296).

2- أنطاكية الأهمية الاقتصادية:

موقع المدينة الجغرافي أكسبها أهمية اقتصادية كبيرة وبالغة في الأهمية، حيث تقع في ملتقى الطرق التجارية في العصور الوسطى، وقد تميزت بصناعة المنسوجات الحريرية والبسط والزجاج والصابون[1]، معتمدة على ميناء السويدية كمنفذ بحري لتسويق بضاعتها والتجارة الخارجية.

3- الأهمية السياسية:

لعبت أنطاكية دوراً سياسياً مهماً من خلال وجود منفذها البحري "السويدية"، خاصة في مستهل الحملة الصليبية الأولى، حيث رست فيه الأساطيل الغربية بالمؤن والعتاد والرجال، وكانت وسيلة الإفرنج للاتصال بالغرب، فأكسبتها كذلك أهمية العسكرية بالإضافة إلى أهميتها السياسية[2].

4- الأهمية الدّينية:

بالإضافة لما سبق من أهمية جغرافية واقتصادية وسياسية كان لأنطاكية أهمية دينية وشهرة منذ حلفاء الاسكندر، ما جعلها ذات أهمية على الوثنية وقبل ظهور المسيحية والإسلام بقرون عديدة، ويذكر الراهب اليوناني حنا فوقاس الذي زار أنطاكية في عام (581هـ/1185م) كيف كانت أنطاكية تخطف الأضواء من كل مدن الشرق من خلال عدد سكانها الكبير، وثرواتها ومعابدها ومسارحها وأروقتها، وقد كانت في انتظار أنطاكية شهرة من نوع آخر وأهمية لدى المسيحية، حيث استقبلت بطرس الحواري، كأول أسقف لها لمساعدة حبيب النجار، الذي ذُكر في الآية القرآنية[3]: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾[4][5].

ونلاحظ أن كل ما سبق من أهمية لمدينة أنطاكية جغرافياً متمثلة في موقعها، واقتصادياً في ثرواتها الإنتاجية، ودينياً في مكانتها المقدسة، أهلها لأن تكون عاصمة قوية لحاكميها على مر العصور، وهذه الأهمية دفعت الظَّاهِر بِيبَرْسُ لفتحها.

---

(1) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، (ص153).

(2) عطية، امارة أنطاكية، (ص108).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، (ج6/556).

(4) سورة يس، (آية: 20).

(5) عطية، امارة أنطاكية، (ص108-109).

5- أنطاكية بين الفتح الإسلامي والاحتلال الصليبي عبر التاريخ:

دخلها المسلمون لأول مرة عندما قام بفتحها عامر أبو عبيدة بن الجراح في شعبان سنة (17هـ/638م) أثناء فتح الشام أيام الخليفة أبي بكر الصديق[1]، ثم استولى عليها الامبراطور البيزنطي "نقفور فوفاس" في سنة (358هـ/969م)،[2] ثم عادت إلى أيدي المسلمين عندما فتحها سليمان بن قتلمش السلجوقي في سنة (477هـ/ 1084م). [3]

وفترة حكم أنطاكية من قبل السلاجقة لم يكن هناك أي استقرار سياسي لها، حالها في ذلك حال الشرق الأدنى الإسلامي في تلك الفترة، فعند ظهور السلاجقة في مجال الحكم كانت الخلافتان العباسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة يعتراهما من عوامل الضعف والانهيار، وأثر ذلك على السلاجقة بدخولهم في الصراع الذي دار بين الطرفين بعد محاولة الفاطميين السيطرة على بغداد، واستنجاد الخليفة العباسي القائم بالسلطان السلجوقي طغرل بك[4]، وهذا بداية زيادة نفوذه بعد ذلك، وامتدت حدود الدولة السلجوقية من فارس شرقاً إلى حدود مصر غرباً، الذي سرعان ما دب الضعف في هذه الدولة نتيجة موت ملك شاة، وبدأ الصراع بين ورثة هذا العرش إلى أن أدى هذا الأمر إلى انهيار مملكة تنش الشامية، فاستغل الصليبيين حالة النزاع والفرقة ونظموا الحملة الصليبية الأولى، وانشغل ياغي حاكم أنطاكية في ذلك الوقت في الصراع بين التحاربين على الحكم، وهذا أدى إلى إنجاح الصليبيين في الشام، ونجاحهم في اجتياحها دون مقاومة فعالة، وحاكم أنطاكية السلجوقي في ذلك الوقت لم يجد من يواجه معه الصليبيين، فاضطر للمواجهة لوحده مع بعض الجهود الغير منظمة من هنا وهناك[5].

تمكن الجيش الصليبي في (14 ذو القعدة 490هـ/ 22 أكتوبر 1097م) من محاصرة أنطاكية، ودام الحصار تسعة شهور انتهت إلى احتلال أنطاكية في سنة (491هـ/1298م) [6]، والسبب هو الاضطراب السياسي والخلافات المذهبية والمصالح الشخصية التي كانت أقوى من

---

(1) الواقدي، فتوح الشام، (ص303).

(2) عطية، امارة أنطاكية، (ص118).

(3) ابن الأثير، الكامل (ج56/10).

(4) "طغرل بك": هو اسم تركي مركب من طغرل – بك، طغرل: اسم طائر يسمى به الرجال، وبك: معناها: الْأَمِيرُ، أي: الْأَمِيرُ الطائر، وهو أكبر أبناء ميكائيل، أبو النصر، السلاجقة، تاريخهم السياسي والعسكري، (ص46)؛ العمراني، الأنباء، (ص186).

(5) عطية، امارة أنطاكية، (ص110-113).

(6) ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، (ص138).

وجود خلافتين اسلاميتين في المنطقة، وهذا أدى لردة فعل ضعيفة، في المشرق الإسلامي، وغير موحد تجاه الدفاع عن أنطاكية[1].

وكان احتلال أنطاكية، مفتاح سوريا إلى الجنوب، في (1 رجب 491هـ/ 03 يونيو 1098م) بعد مذبحة عظيمة بحق أهالي أنطاكية راح ضحيتها أعداد كبيرة من الرجال والنساء.

وهكذا مكّن "بوهيموند النورماندي" من إقامة ثاني إمارة لاتينية في الشرق، وتوسع فيما بعد لتصل حدودها شيزر جنوباً إلى مرعش شمالاً ومن حلب شرقاً إلى ميناء اللاذقية في الساحل الغربي، وإذا كانت أنطاكية كمدينة تتمتع بأهمية كبيرة على مر العصور فإنها كانت ذات أهمية أكبر بالنسبة للكيان الصليبي بصفة عامة، ولمملكة بيت المقدس بصفة خاصة[2][3].

وبقيت إمارة أنطاكية كبيرة بهذا الحجم وقوية ومؤثرة خلال عهدي بوهيموند الأول، ولكن في عهدي بوهيموند الثاني وريموند يونابيه انتهى الأمر بفقدان إمارة أنطاكية حدودها الواسعة بحيث لم تعد تتجاوز سهل أنطاكية وذلك نتيجة ظهور الوحدة الإسلامية الكبرى في عهد عماد الدّين زنكي، ثم ابنه نور الدّين محمود لتتخذ أنطاكية بعد ذلك موقفاً دفاعياً تجاه المسلمين ودعم الكيان الصليبي من قبلها بالجهود العسكرية والسياسية بشكل مباشر، ودعم غير مباشر بمساندة كل ما من شأنه تقوية هذا الكيان وكل ذلك لمساعدة أنطاكية لجماعات الفرسان والرهبان، وأيضاً لجاليات المدن التجارية الإيطالية.[4]

وتبقى أنطاكية على هذا الحال حتى النصف الثاني من القرن (السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي)، حيث أصبحت أنطاكية في عهد بوهيموند السادس بوضع اقتصادي متردي وتراجع كبير في أهميتها الاستراتيجي، فلم يكن قد تبقى لها من أملاكها سوى ميناء السويدية واللاذقية العقيمين إلى جانب عدة قلاع استولى عليها بوهيموند أثناء فترة وجود المغول في بلاد الشام، وتحالفهم معهم،[5] وهذا الوضع شجَّع الظَّاهِر بِيبَرْسُ بوضع هدفه في إنهاء وجودهم في هذه الإمارة بشكل خاص، وبشكل عام.

---

(1) عطية، امارة أنطاكية، (ص114).

(2) المرجع السابق، (ص148-155).

(3) انظر ملحق رقم (05)، (ص154).

(4) عطية، امارة أنطاكية، (ص155-160، 465).

(5) ابن العديم، زبدة حلب، (ج131/2).

ثانياً: أحداث فتح أنطاكية (666هـ/1268م).

1- الأحداث العسكرية التي مهدت لفتح أنطاكية في الفترة (664-666هـ/1266-1268م):

أ. تقدير الموقف العام قبل بدء التحركات العسكرية:

فقد كان عام (664هـ/1266م) من الأعوام التي كثرت فيها فتوح بِيبَرْسُ في كل أنحاء المشرق الأدنى، ولأنه كان يخطط للقيام بهدفه الكبير ضد كل أعدائه من أرمن وصليبيين، فقد قام بالإعداد لهذا الهدف بصورة تدل على حسن تدبيره، وقد وُفِّق بِيبَرْسُ في اختيار التوقيت المناسب للقيام بالبدء بتحقيق هدفه ضد الارمن والصليبيين لما تهيئ له من مظروف جيدة بانشغال أياخانات مغول فارس في القتال ضد بركة خان ومغول روسيا حتى ينفرد بِيبَرْسُ بالأرمن حلفاء المغول دون أن يخشى وصول المغول لمساعدة هيثوم، فقد أمر بإقامة جسر على نهر الفرات بالقرب من الرحبة، وأمر ببناء مراكب بدمشق، وجهزها في البِيرة، وكل ذلك لإيهام المغول بأن خطوته التالية ستكون ضدهم في الوقت الذي بدأ يعد بالتمويه على الفرنج[1].

وهنا نجد أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ استغل عامل جيد من عوامل النصر والتمكين وهو تقديره للموقف العام بشكل سليم واختيار الوقت المناسب الذي فيه تفرق لصف الأعداء، وهذا مَكّن له من وضع خطة استمرت لمدة عامين (664-666هـ/1266-1268م)، انتهت بفتح أنطاكية وما تلاها من استسلام لكثير من القلاع ومهادنة كثير من المدن.

ب. انتشار قوات ببِيبَرْسُ بشكل تضليلي وبذل جهد استخباري ضد العدو:

فقد خرج بِيبَرْسُ من مصر في (2 شعبان 664هـ/ 8 مايو 1266م)، وفي (4 شعبان/ 10 مايو) من نفس السنة وصل إلى غزة[2]، حيث قسم جيشه إلى قسمين: وبعث القسم الأول ويقوده الْأَمِيرُ سيف الدّين قلاوون إلى حمص، دون أن يعرف هؤلاء إلى أين سوف تكون وجهتهم التالية، قبل وصولهم إلى حمص[3]، وكانت هذه عادة بِيبَرْسُ في تحري السرية التامة في تحركات قواته، وتحركاته هو، ما ساعد قواته كثيراً على النجاح في المهام الموكلة إليها دائماً في الوقت الذي كان فيه حريصاً على مراقبة تحركات أعدائه أولاً بأول، ولحظة بلحظة.

ففي الوقت الذي اتجه فيه بِيبَرْسُ إلى عكا زاد من التمويه على الفرنج، ووزع القسم الثاني من قواته في مواقع شتى؛ حيث وجّه الْأَمِيرُ علاء الدّين البُنْدُقْدارِي إلى صور، والْأَمِيرُ بدر الدّين

---

(1) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (ج110/1).

(2) انظر ملحق رقم (8) (ص154).

(3) ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص300-303).

الأيدمري والْأَمِيرُ بدر الدّين بيسري إلى حمص والقرين ومعقل فرسان التيوتون، وفخر الدّين الحمصي إلى جبل عاملة (قلاع الحشيشة)، حيث استقروا في الحشيشية في ثمان قلاع حول طرابلس، وهي: [مصياف والكهف والعليقات والقدموس والخوابي والمنيقة والرصافة وأبو قبيس]، وناصر الدّين القَيمُري إلى عتليت.[1]

وبذلك يكون بِيبَرْسُ قد شغل الفرنج جميعاً في وجهة واحدة دون أن يعرفوا أياً من مواقعهم التي ستكون هدفاً لهجمات المسلمين[2].

وهنا تبرز قدرة الظَّاهِر بِيبَرْسُ على استثمار واستغلال أسباب النصر والتمكين فهو في الوقت الذي يضلل به العدو في حركات عسكرية تضليلية، وانتشار للقوات بشكل تضليلي، ففي نفس الوقت يتحرى أخبار العدو بجهد استخباري مميز، وهذا كان يُقرّبه أكثر من النصر والتمكين.

ت. فتح عدة جبهات للقتال في وقت واحد وتشتيت العدو ومباغتته:

وهنا أصدر الظَّاهِر بِيبَرْسُ أوامره إلى قلاوون بالهجوم على نواحي طرابلس، وكما يذكر ابن عبد الظَّاهِر، أن الهجمة كانت مفاجئة للفرنج، حيث تمكن قلاوون من فتح حصون حلبا وعرقا والقليعات[3]، وبذلك سيطر المسلمون على طريق طرابلس وحمص، ولما خرج الفرنج من صافيتا إلى حصن الأكراد تمكنت قوات قلاوون من إبادة خمسين من رماة السهام الصليبيين الذين خرجوا تمهيداً لهجوم مضاد على المسلمين.[4][5]

فخرج بعض فرسان الداوية للإغارة على جامعي الكلأ المسلمين، فانقضت عليهم قوات الحراسة الإسلامية، وقضت عليهم، وأسرت بعضهم.[6]

وهكذا في أسبوع واحد (27 شعبان – 4 رمضان 664هـ/ 2يونيو–9يونيو 1266م) تمكن قسم من قوات بِيبَرْسُ من فتح ثلاثة حصون صليبية، وأسر الكثير من الفرنج، وأخذ ما كان لديهم من مؤن وعتاد[7]. حيث استسلم للمسلمين جماعة من الفرنج بالقرب من حصن الأكراد،

---

(1) عطية، امارة أنطاكية، (ص475).

(2) انظر ملحق رقم (9)، (ص158).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج47/28)؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، (ج116/8).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج47/28).

(5) انظر ملحق رقم (10)، (ص159).

(6) عطية، امارة أنطاكية، (ص458).

(7) المرجع السابق، (ص450).

وهرب كل من كان من الفرنج في حلبا وعرقا، كما أسر المسلمون بعضاً من الداوية صافتيا، وقتلوا البعض الآخر ووجدوا المسلمون في حلبا كثير من النحاس وصناديق وسكر، وغيره كما وجدوا في عرقيا من الغلات الشيء الكثير والتموينات كذلك.[1]

هذا بينما كان بِيبَرْسُ قد هاجم عكا، وفتح صفد وتبنين، وسيطر بذلك على إقليم الجليل الأعلى بالكامل، وكانت مكاسب بِيبَرْسُ في حملته هذه كبيرة، ويمكن أن تعرف حدود هذه الحملة التي حددها بدقة ابن عبد الظَّاهِر حتى نقف على طبيعة هذه المكاسب "وقد توالت المكاسب وعمت الغارة بلاد الفرنج من حدود طرابلس إلى قريب أرسوف"[2].

وهنا نجد أن بِيبَرْسُ برع مرة أخرى في سببين أساسيين من أسباب النصر والتمكين فقد استخدم التكتيك العسكري بشكل بارع، متمثل في عنصر المفاجئة الذي حققه قلاوون في هجومه وفي نفس الوقت يفتح عدة جبهات، على العدو في وقتٍ واحد، ما شتت العدو وحدث ذلك من خلال هجوم الظَّاهِر بِيبَرْسُ على عكا في الوقت الذي كان فيه قلاوون يهاجم طرابلس.

ث. اجبار العدو على المهادنة وتفريق وحدتهم من خلال بث الرعب في قلوبهم:

لم يدرك الخطر المحدق بالصليبيين في تلك الفترة سوى جماعة الإسبتارية الذين سارعوا في طلب الصلح مع بِيبَرْسُ. فبعث مقدم الإسبتارية إلى دمشق برسول لمقابلة بِيبَرْسُ ولطلب الصلح على أملاك الإسبتارية، من جهة حمص وحماة وقلاع الحشيشية، ولم يقبل بِيبَرْسُ الصلح إلا بعد تنازلهم عن كل ما كانوا يجبونه من جزية على حماة وحمص وقلاع الباطنية، وعلى أن يكون لبِيبَرْسُ حق خرق الهدنة وقتما شاء، وأن تدفع قلاع الدعوة ألف ومائتي دينار بالإضافة إلى خمسين ألف مد حنطة، ومثلها شعير، أما حمص وحماة تدفع أربعة آلاف دينار، وعَنْتاب تدفع خمسمائة دينار، وشيزر تدفع ستمائة دينار.[3]

وهكذا اشترى الإسبتارية أمنهم، وسارعوا باسترضاء بِيبَرْسُ، وسرعان ما أدرك الداوية أنه من الحكمة أن يحذوا حذو الإسبتارية، فبعد سقوط صفد في أيدي المسلمين سارع مقدم الداوية استرضاء بِيبَرْسُ عندما علم بنزول قلاوون على طرابلس، لعله يحمي أملاكه في صافيتا وإنطرطوس، وأحضر معه ثلاثمائة أسير من المسلمين، ليظهر حسن النية للسلطان ولم يقبل

(1) ابن الفرات، تاريخ الفرات، (م6/ج190/1).

(2) انظر ملحق رقم (11)، (ص160).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج9/28).

بِيبَرْسُ منحه الأمان إلا مقابل[1][2] تنازل مقدم الداوية عن نصف مدينة جبلة التي يشارك بها الإسبتارية، وتسلم علاء الدّين بن القاضي وحسام الدّين الجلدكي نواب بِيبَرْسُ ما يخص الداوية في جبلة، ورفض الإسبتارية التخلي عن نصيبهم في المدينة، واعتدوا على نواب الظَّاهِر بمساعدة بوهيموند، وقتلوا بعض رجاله، فأمر بِيبَرْسُ بقتل من كان بحمص من الإسبتارية.[3][4]

وإذا كان الداوية والإسبتارية وكل حكام الفرنج مثل صور وبيروت وصهيون قد سعوا لاسترضاء بِيبَرْسُ في مقابل بعض التنازلات قد حصلوا على هدنة معه، فكان لعدم وجود سبيل آخر أمامهم.

فقد نجح بِيبَرْسُ في سياسة نشر الرعب بين الأعداء من خلال توجيه ضربات قوية وقاسمة لهم أرعب وشَرَّد مَن خلفه من القوات الداعمة لهم من الاسبتارية والداوية، وغيرهم من المدن مثل: بيروت وغيرها، وتمكن من فرض شروط الصلح الذي يريد وتحقق المصلحة، وهادن مَن يريد، ورفض مهادنة آخرين.

ج. استغلال تخبط العدو وتوجيه ضربات موجعة له:

وفي خضم هذه الأحداث فإن بوهيموند وهيثوم اعتقدا أن أسلم طريق لتفادي خطر بِيبَرْسُ هو طلب النجدة من المغول، خاصة بعد أن رفض بِيبَرْسُ التصالح مع هيثوم، واتضحت أن نيته الانتقام من الاثنين معاً.

إلا أن طلب المساعدة من المغول أدى إلى زيادة عداوة بِيبَرْسُ لهما، ولم يدركا طبيعة ظروف مغول فارس خاصة بعد موت هولاكو، حيث أن هذه الظروف التي كان أهمها حرب أبغا مع بركة خان الذي اعتنق الإسلام وأصبح عدوه الأول فهذه الظروف لم تمكن أبغا من مساعدة بوهيموند وهيثوم وتقديم خطر المماليك على بركة خان[5]، وذهب هيثوم إلى المغول لطلب المساعدة، وترك ولديه ليو وثوروس يتوليان أمر قليقية أثناء غيابه، ولما علم بِيبَرْسُ بذلك بادر بإرسال أوامره بخروج المنصور صاحب حماة على رأس القوات التي أغارت على طرابلس، ومعه قلاوون والتوجه إلى قليقية، وفي (6 ذي القعدة 664هـ/8 أغسطس 1266م) خرج المنصور

---

(1) عطية، امارة أنطاكية، (ص460).

(2) انظر ملحق رقم (12)، (ص161).

(3) ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص330–331).

(4) انظر ملحق رقم (13)، (ص162).

(5) عطية، امارة أنطاكية، (ص461).

بقواته إلى دربساك وبغراس وظن الأرمن أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليهم لوعورة الممرات إلى قليقية[1][2].

إلا أن المسلمين نجحوا في مباغتة الأرمن بعد القيام بحركة التفاف سريعة، وتم أسر ليو بن هيثوم، وقُتِل ثوروس بن هيثوم وأخو هيثوم سمباد وكند اسطبل المملكة، وخلفوا خلفهم دمار كبير، وانتشرت القوات الإسلامية في سهل قليقية، ودمروا كل ما صادفوه من حقول وغرس في أقاليم سرفنكار وتل حمدون، وقد أحرقوا من أملاك الداوية حصني العمودين والتيتان بعد فتحهما، وأسر مَن فيهم، ثم رحلوا إلى سيس عاصمة هيثوم، وخربوا وأحرقوا كنيستها، ووصلت هجماتهم إلى المصيصة وأذنه وطرسوس، وميناء إياس، وعادوا إلى حلب، وقد غنموا ما لا يعد من الجواهر والمواشي والأسرى، وهذه الغنائم تعد من أضخم ما غنمه الجيوش الإسلامية منذ معركة حطين، وقد بلغ عدد الأسرى حوالي أربعين الف أسير، وعند عودة القوات الإسلامية إلى حلب قابلهم بِيبَرْسُ وذلك في (13 ذي الحجة 664هـ /15 سبتمبر 1266م)، وأحسن معاملة ليو بن هيثوم[3][4].

وبعد عودة هيثوم إلى بلاده عانى من الحزن على مقتل أحد أبنائه، وأسر الثاني، وضاعت كل جهوده في إعلاء شأن مملكته التي لم تقم لها بعد ذلك قائمة، وقد ترهبن هيثوم بعد ذلك، وعاش بقية حياته في أحد الأديرة تحت اسم "مقار" حتى مات في (667هـ/1269م) بعد فك أسر ابنه.[5]

وهكذا، كان ارتباط أنطاكية بالسياسة الأرمينية، فقد سعى لويس التاسع إلى تحسين العلاقات بين بوهيموند الخامس وهيثوم الأول، وكان هذا الارتباط وبالاً على أنطاكية التي جرها هيثوم للرضوخ للمغول، ومشاركتهم في كل ما ارتكبوه من جرائم في حق الإسلام والمسلمين في بلاد الشام، هذا الأمر جعل من بوهيموند وهيثوم أول الأعداء الذين خطط بِيبَرْسُ للانتقام منهم، لموالاتهم للمغول، وبينما كانت الدلائل تشير إلى أنه لم يكن من السهل قيام تحالف بين الصليبيين

---

(1) انظر ملحق رقم (14)، (ص163).

(2) ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص305).

(3) انظر ملحق رقم (15)، (ص164).

(4) ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص305-307).

(5) عطية، امارة أنطاكية، (ص463).

في عكا والمغول، فقد ألزمت أحوال أنطاكية والخوف من التهديد المغولي – بوهيموند السادس – بالدخول في طاعتهم، عله يستفيد من غزوهم لبلاد المسلمين[1].

وفي الوقت الذي اعتبر الصليبيون في عكا وفي روما أن بوهيموند قد تحالف مع أعداء المسيحية فقد تم حرمانه من الكنيسة اللاتينية، وكان عليه أن يستعد لهجمات بِيبَرْسُ المتلاحقة على إمارته، وإذا كان هيثوم بتحالفه مع المغول وبتنافس بلاده لمصر في المجال التجاري يعد أخطر من بوهيموند، فإن فتح بلاده كان يُحتّم فتح أنطاكية أولاً، وهكذا، أصبحت أنطاكية هدف بِيبَرْسُ الذي بدأ بتوطيد مركزه في مصر وعلاقته بحكام أوروبا ومغول روسيا حتى يتمكن من عزل الفرنج في بلاد الشام، وشغل مغول فارس بتحالفه مع مغول روسيا الأمر الذي حرم الأرمن وأنطاكية من مساعدتهم، وبدأ في توجيه ضرباته التمهيدية إلى أنطاكية بعد أن أمن طريق مواصلاته بين مصر وحلب بالاستيلاء على معاقل الفرنج في إقليم الجليل استعداداً لتوجيه الضربة النهائية إلى إمارة أنطاكية الصليبية[2].

فقد نجح الظَّاهِر بِيبَرْسُ من استغلال حالة التخبط لدى العدو، وحوَّل هذا الوضع إلى عامل قوة يخدم في أسباب النصر والتمكين، فها هو يعزل العدو عسكرياً وكذلك يعزله سياسياً، من خلال استثمار أخطاء العدو بتحالفاته الخاطئة، وإنشاء تحالفات من قِبله مع جهات بحيث تضمن عزل العدو، وكسر الروح المعنوية لديه.

2- الأعمال العسكرية المباشرة لفتح أنطاكية:

أ. الوضع العام قبل فتح أنطاكية:

مثلت أنطاكية في مراحل عدة الحصن الحصين على كل من حاول فتحها، ففي عام (491هـ/1098م)، حيث ذهل الصليبيون عندما رأوا أسوارها، وحاصروها سبعة شهور حتى استطاعوا احتلالها من المسلمين.[3]

وفي عام (584هـ/1188م) اضطر صلاح الدّين لعقد الصلح مع بوهيموند الثالث لإدراكه صعوبة فتحها لحصانة المدينة، وتعب قواته التي اجهدت بعد فتوحاتها التي تلت انتصاره في حطين [4]

(1) عطية، امارة أنطاكية، (ص438).

(2) المرجع السابق، (ص464).

(3) المرجع نفسه، (ص474).

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص94).

أما الظَّاهِر بِيبَرْسُ فكانت خطته في فتح أنطاكية غير ذلك، فهو اعتمد على عزل الإمارة عن محيطها، وتحييد قوى حولها، قد تحميها، ومن ثم إغلاق المنافذ البرية والبحرية لها.

وهكذا بقيت أنطاكية على وضعها الاقتصادي المتهالك منذ عهد بوهيموند الخامس تجارياً ووضعها الاستراتيجي سيئ، حيث لم يكن قد بقي لها من أملاكها سوى ميناء السويدية واللاذقية العقيمين إلى جانب عدة قلاع استولى عليها بوهيموند أثناء فترة وجود المغول في بلاد الشام. [1]

كذلك، كان هناك تواجد لقوات المماليك في جبلة مناصفة مع الإسبتارية، وفي الجنوب استولى بِيبَرْسُ على عرقا وحلبا والقليقية، وخضوع الحشيشية له.[2]

وقد أغلقا طريق الاتصال بين أنطاكية وطرابلس، أما الجهة الشرقية لأنطاكية، فكانت حمص وحماة وحلب تحت سيطرة المماليك.

أما الجهة الثانية، فاستيلاء المماليك على دربساك (664هـ/1266م)، كان ثم غلق الاتصال بين أنطاكية وحلفائها الأرمن، وتم عزلها تماماً، واكتملت حلقة الحصار حولها من كل جهة.[3]

هذا من ناحية جغرافية على الأرض، أما من ناحية التحالفات ووضع بوهيموند فقد عزلته الظروف عن جميع حلفائه كالتالي:

- المغول انشغلوا في حربهم مع بركة خان وعدم مقدرتهم على مساعدته.
- الأرمن وهيثوم وجه لهم بِيبَرْسُ ضربة قاسية، بحيث أفقدتهم المقدرة على مساندة أنطاكية في أي عمل عسكري علاوة على أسره ابن هيثوم الذي كان غارق في أحزانه.[4]
- مهادنة الإسبتارية والداوية وبيروت للظاهر بِيبَرْسُ بعد أن فتح الأخير يافا وشقيف أرنون، وهاهم يطلبون الأمان على حصن الأكراد وصافيتا وانطرطوس[5]، وبهذا تم تأمين الطريق بين أنطاكية وطرابلس التي كانت تُأمنه الداوية والإسبتارية.

---

(1) عطية، امارة أنطاكية، (ص466).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/ق557/1).

(3) عطية، امارة أنطاكية، (467).

(4) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص272).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1/ق566/1).

وترك بوهيموند وحيداً لمواجهة مصيره مع بِيبَرْسُ، وقدر للأخير أن تكون نهاية مائة وسبعين عاماً على الوجود الصليبي في شمال الشام على يديه هو [1].

فقد نجح بِيبَرْسُ باستغلال الوضع المزري لإمارة أنطاكية واستغلال هذه الظروف في توظيفها كعامل قوة وسبب من أسباب النصر والتمكين، لا وبل خلق جو آخر صعب يُحيط بأنطاكية سياسياً وعسكرياً عزز قوته ومكنه من فتحها.

ب. التحركات والعمليات العسكرية لفتح أنطاكية:

1- قام بِيبَرْسُ بعدة عمليات عسكرية كان من شأنها أن تجعل أنطاكية مدينة معزولة محرومة من كل مساعدة ممكنة وهدفاً سهلاً لقواته.

خرج بِيبَرْسُ من مصر (4 جمادي الآخرة 666هـ/19 فبراير 1268م)، ووصل غزة، ومنها إلى يافا التي سلمها أهلها إليه في (20 جمادي الآخرة/6 مارس) من نفس العام.[2]

وفي (5 أبريل/19 رجب) من نفس العام بدأ حصار شقيف أرنون، وضربها بستة وعشرين منجنيقاً وفتحت قلعتها.[3]

وبفتح بِيبَرْسُ ليافا والشقيف لم يبقَ للفرنج جنوب عكا سوى قلعة عتلين التي يمتلكها الداوية.[4]

وبعد أن استقبل بِيبَرْسُ رسل بيروت الذين جاءوه يطلبون الأمان[5]، رحل إلى بعلبك، ومنها إلى طرابلس، وظهر أمام المدينة، (16 شعبان 666هـ/30 أبريل 1268م)، حيث فتح رجاله برجاً خارج المدينة وقتلوا من فيه وأغار بِيبَرْسُ على طرابلس وأخرب قراها وقطع أشجارها وغوَّر مياهها وأنهارها.[6][7]

---

(1) عطية، امارة أنطاكية، (ص467).

(2) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص291).

(3) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص507).

(4) عطية، امارة أنطاكية، (ص468).

(5) انظر ملحق رقم (03)، (ص150).

(6) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص507)؛ ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص305).

(7) انظر ملحق رقم (16)، (ص165).

وهكذا قام بِيبَرْسُ بتهديد بوهيموند في طرابلس في الوقت الذي سارع فيه مقدم الداوية بإيفاد رسله إلى بِيبَرْسُ يطلب الأمان لأملاك جماعته في صافيتا وانطرطوس.[1]

وبعد أن طلب الإسبتارية في حصن الأكراد أمان السلطان[2] لم يبقَ من الفرنج مَن يخشى جانبه أثناء مهاجمة أنطاكية.

2- رحل بِيبَرْسُ من أمام طرابلس في (24 شعبان/9 مايو)[3] من نفس العام دون أن يطلع أحداً من قادته على وجهته، حتى تحقيق عنصر المفاجأة التي كان يحرص على الاستعانة به دائماً، ووصل إلى حمص وقتها، ومنها إلى حماة، حيث قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام[4]:

الأول: ويقوده الْأَمِيرُ بدر الدّين الخازندار، وتوجه إلى ميناء السويدية، حيث تم قطع الاتصال بأنطاكية عن طريق البحر[5].

والثاني: يقوده الْأَمِيرُ عز الدّين إيغان، وتوجه شمالاً إلى دربساك، حيث تم إغلاق مداخل قليقية في وجه أي مساعدة ربما يجازف هيثوم بإرسالها لأنطاكية.

والثالث: يقوده بِيبَرْسُ بنفسه، حيث توجه إلى أنطاكية من الجهة الجنوبية بعد مروره بأفامية، ثم الشُغر وبَكّاس. [6]

وتقسيم هذه القوات بهذا الشكل حقق أمرين في وقت واحد أولهما: أن يُموِّه على الفرنج داخل أنطاكية وعلى بوهيموند في طرابلس[7]، والثاني إحكام الحصار على أنطاكية.

3- وفي يوم الأربعاء (2 رمضان 666هـ/15 مايو 1268م) وصل بِيبَرْسُ إلى أنطاكية[8]، وبعد يومين كانت كل قواته تحيط بالمدينة.[9]

---

(1) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص306)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/ق566/1).

(2) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، (ص507-508).

(3) ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص307).

(4) انظر ملحق رقم (8)، (ص157).

(5) العسلي، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (ص36).

(6) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص309-312).

(7) شافع ابن علي، حسن المناقب، (ص127).

(8) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص309-312).

(9) المقريزي، السلوك، (ج1/ق567/1).

خرج "الكندسطبل سيمون مانسل" بجماعة من عسكر أنطاكية في تجاه قوات بِيبَرْسُ، واشتبك بفرقة يقودها الْأَمِيرُ شمس الدّين أق سنقر في قتال انتهى بأسر الكندسطبل، وتم إحضاره لبِيبَرْسُ الذي كلفه بِيبَرْسُ بخوض جولة مفاوضات مع أهل أنطاكية، ليسلموا دون حرب ولا إراقة دماء، وقام بهذه المهمة الكندسطبل، ولكن لم تفلح هذه المفاوضات حيث استمرت هذه المفاوضات ثلاثة أيام.(1)

وفي يوم السبت (4 رمضان 666هـ/ 18 مايو1268) بدأ بِيبَرْسُ في شن الهجوم على أسوار المدينة من كل جانب(2)، وتمكن المسلمون من تسلق الأسوار من الجهة الجنوبية بالقرب من القلعة، حيث ترتفع الأرض خارج السور، واقتحم بِيبَرْسُ وقواته الجزء الأعلى من المدينة، وطافت في المدينة، وقاتله أهلها قتالاً شديداً(3)، ولجأ إلى القلعة ثمانية آلاف من السكان بينما أحاط أمراء بِيبَرْسُ بأبواب المدينة حتى لا يفر منها أحد.(4)

4- وفي يوم الأحد (5 رمضان 666هـ /18 مايو 1268م) تسلم المسلمون القلعة، وأسروا من فيها بعدما طلبوا الأمان لأنفسهم، وأطلق بِيبَرْسُ سراح الكندسطبل سيمون مع أهله وأقاربه، فتوجه بهم إلى سيس.(5)(6)

وبقي بِيبَرْسُ لمدة يومين يباشر تقسيم الغنائم على أمرائه وجنوده، وأحرق قلعة أنطاكية، وعم الحريق أنطاكية، وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها، وأقيمت الأسواق بظاهرها فقصدها التجار من كل جهة، حيث بيع الصبي من الفرنج باثني عشر درهماً، والفتاة بخمسة دراهم، واستغرق المسلمون يومين يجمعون الغنائم، وظل بِيبَرْسُ حتى غروب الشمس يباشر قسمتها على رجاله، وقُسمت النقود بالطاسات.(7)

وهنا نجد أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ وظف كل عوامل النصر والتمكين في مرحلة التمهيد لفتح أنطاكية ليقطف ثمرة هذا الجهد، لا بل عجّل في مراحله الأخيرة بكل جد، وضمن رؤية وتخطيط عسكري مستخدماً التكتيكات العسكرية التي تُعزز فرص النصر والتمكين مثل انتخاب القادة،

---

(1) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص308).

(2) المرجع السابق، (ص311).

(3) المرجع نفسه، (ص308).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1/ق576/1).

(5) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص309).

(6) انظر ملحق رقم (17)، (ص166).

(7) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، (ص324-325)؛ العسلي، الظَّاهِر بِيبَرْسُ (ص39).

وتوزيع القوات، بشكل يحقق المباغتة والمفاجئة وعزل المدينة عن جميع منافذها البرية والبحرية، فهو لم يركن للوضع المتهالك التي كانت به المدينة، بل عزز كل جهوده بجهود إضافية أدت إلى نصره وتمكينه في هذه المعركة.

ثالثا: النتائج المترتبة على فتح بيبرس لأنطاكية:

1- استسلام سكان دركوش وكفر تبنين وكفر تلميس وهي القلاع التي استولى عليها بوهيموند السادس غداة سقوط حلب في أيدي المغول، فتسلمها نواب بِيبَرْسُ في (11 رمضان 666هـ/24 مايو 1268م)[1].

2- تسلم بِيبَرْسُ نصف أعمال قلعة القصير التابعة لبطريرك أنطاكية، وبسقوط أنطاكية وكل ما حولها من قلاع، ولما استكان الأرمن خشي الداوية في حصن بغراس صعوبة الحياة وسط المسلمين، فتركوا القلعة وعدة قلاع صغيرة، حولها فأسرع شمس الدّين أق سنقر بأخذها في يوم السبت (13 رمضان/ 26 مايو) من نفس العام، ووجدوها عامرة بالحواصل والذخائر، وكل ما يُدخر فيها من الحصون، وكذلك سلموا قلاعهم.[2]

3- بعد هذا الانتصار العسكري العظيم والمكاسب المادية على الأرض أبى بِيبَرْسُ إلا أن يحطم معنويات بوهيموند السادس من خلال تكفله بإعلامه ما حدث لانطاكية من كارثة، فبعث له برسالة مليئة بالسخرية والتهديد، حيث كان بوهيموند في طرابلس.[3][4]

4- بدأت كل القوى والمدن التي تحيط بأنطاكية وموجودة في شمال الدولة المملوكية تخطب ود بِيبَرْسُ من خلال الصلح، ما ترتب عليه من توسيع لحدود الدولة المملوكية الشمالية الغربية، حتى عادت هذه الحدود إلى ما كانت عليه أيام صلاح الدّين الأيوبي، وزاد عليه فتح أنطاكية.[5]

5- قام الأرمن بقيادة هيثوم بعقد صلح مع الدولة المملوكية أعادوا على أثرها ما أخذوه من مدن وقلاع من المسلمين أثناء الغزو المغولي لبلاد الشام منها: بهنسا ودربساك ومرزبان ورعبان

---

(1) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص324-325).

(2) شافع ابن علي، حسن المناقب، (ص135-136).

(3) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص309-312).

(4) انظر ملحق رقم (4)، (ص152).

(5) عطية، امارة أنطاكية، (ص474).

وشيح الحديد، وبذلك عاد النفوذ الإسلامي يمتد حتى مداخل قليقية.[1] والشق الآخر من الصلح مع الأرمن بتبادل للأسرى، فقد اشترط بِيبَرْسُ على تسلم الْأَمِيرُ سُنْقُر الْأَشْقَرُ الذي أسره المغول أثناء احتلال حلب مقابل الإفراج عن ليو ابن هيثوم، وقد تم ذلك بين الطرفين، وأفرج عن ليو هيثوم، وعاد إلى قليقية حيث مات أبوه، وتولى هو الحكم فيها.[2] وبهذا خضعت أرمينا للظاهر بِيبَرْسُ، وضاعت أنطاكية من أيدي الفرنج.

6- أما الداوية فقد سلموا بغراس، ويكون بِيبَرْسُ بذلك أعاد شمال الشام إلى حوزة المسلمين، وعاد لحدود المنطقة إلى ما كانت عليه حين قدم الصليبيين إلى الشرق منذ مائة وسبعين عاماً، ولم يبق من إمارة أنطاكية الصليبية شيء سوى ميناء اللاذقية الذي أصبح جيباً معزولاً وقلعة القصير التي أدارها نائب البطريك لمدة سبع سنوات على أنه أحد أتباع السلطان.[3]

7- ما ترتب على ذلك النصر العظيم بتراجع مكانة أنطاكية الدّينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، فإذا كان استيلاء الصليبين على مدينة أنطاكية في (491هـ/ 1098م) يمثل ظهور أول وجود صليبي في بلاد الشام، فإن استرداد بِيبَرْسُ لها يعد نهاية الاحتلال الصليبي لشمال الشام.[4]

فعلى المستوى التجاري أصبحت المدينة لا أهمية لها بعد أن غنم المسلمين جميع مقتنياتها، علاوة عما كانت تعاني منه قبل الفتح من وضع اقتصادي مزرِ نتيجة سياسة أوروبا وصقلية وجنوى التجارية التي كانت أنطاكية لا أهمية لها من هذه التجارة.

أما الوضع الدّيني فلم تعد أنطاكية ذات أهمية دينية كما كانت من قبل، فقد أدرك المسيحيون المحليون حقيقة الأوضاع الجديدة، وعادت المسيحية الشرقية إلى الحياة في ظل التسامح الإسلامي العظيم، فانتقلت الكنائس الأرثوذكسية واليعقوبية إلى دمشق. واقتصرت حدود بطريركية أنطاكية الكاثولوكية على مدن ساحلية هي جبلة وطرابلس وأنطرطوس وبانياس واللاذقية.[5]

---

(1) ابن عبدالظَّاهِر، الروض الزاهر، (ص372-378).

(2) المرجع السابق، (ص327-329).

(3) المرجع نفسه، (ص444).

(4) عطية، امارة أنطاكية، (ص475).

(5) المرجع السابق، (ص476).

أما عن أهمية المدينة الاستراتيجية والعسكرية فقد عادت حلب هي المعقل الإسلامي الأول الذي يحمي شمال الشام من الخطر الوحيد في ذلك الوقت، وهو الخطر المغولي في الأناضول[1]، ولم تعد أنطاكية سوى مدينة إسلامية يقطنها المسيحيون ومن خضع لهم من المسيحيين الشرقيين من مختلف المذاهب، وبعد أن دمر بِيبَرْسُ استحكاماتها لم يبق سوى بقايا أسوارها حتى القرن (الثالث عشر هجري/ التاسع عشر ميلادي).[2]

وبعد هذا الوضع الذي انتهت له انطاكية، هل كان من المؤمل أن تأتي نجدة أو أي جهد صليبي لإنقاذه، فهذا كان من المستحيل، وذلك بسبب أن أوروبا لم تكن بمقدورها أن تبعث بنجدة للكيان الصليبي المتداعي في المشرق، فقد كانت الخلافات متفجرة بين قادة الغرب، فالباباوية في صراع ضد حلفاء فريدريك الثاني، وهؤلاء في صراع ضد شارل كونت الذي استعانت به الباباوية لمساندتها في هذا الصراع، وملك انجلترا في صراع مع أمرائه الثائرين في مقاطعة ويلز، واجتماع شارل كونت أنجو في إيطاليا وصقلية وبيزنطة أعاقت قيام أي جهد مشترك بين روما وبين القسطنطينية حليفة المغول وحليفة الجنوية أعداء كونت أنجو الذي دأب على مهادنة بِيبَرْسُ.[3]

ونجد أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ نجح في عمل ردة فعل للنصر، ونجح في اخضاع العدو في محيط أنطاكية لأوامره وكان هذا مقدمة لإنهاء الوجود الصليبي بالكامل من الشرق الأدنى[4].

رابعاً: مؤهلات النصر والتمكين في فتح أنطاكية:

ومن خلال ما سبق اتضح للباحث واستنتج أنه كان هناك جملة من أسباب النصر والتمكين، مكنت للظاهر بِيبَرْسُ فتح أنطاكية، وهي كالتالي:

1- المقدرة العالية في دراسة الموقف العام قبل المعركة، وتقدير موقف حقق من خلاله فتح أنطاكية.

2- تحريك وانتشار القوات بشكل تضليلي لخداع العدو والحيلولة دون معرفة وجهة ونية بِيبَرْسُ.

3- مراقبة تحركات العدو بجهد استخباري مميز، مما مكن للظاهر إفشال خطط العدو ومباغتته.

---

(1) "الأناضول": هضبة وسط تركيا، شراب، المعالم الأثيرة، (ص204).

(2) عطية، امارة أنطاكية، (ص477).

(3) المرجع السابق، (ص477).

(4) انظر ملحق رقم (7)، (ص156).

4- تشتيت قوى العدو من خلال تحقيق عنصر المفاجئة، كما حدث في هجوم قلاوون على طرابلس وكذلك فتح عدة جبهات على العدو في وقتٍ واحد، كما حدث أثناء مهاجمة بِيبَرْسُ لعكا في الوقت الذي كان يهاجم فيه قلاوون طرابلس.

5- استخدام تكتيك إرهاب العدو وتشريد من خلفه من خلال توجيه ضربات قاسمة لجزء منه وإجبار الجزء الآخر على المهادنة لتفريقهم، وتشتيت وحدتهم.

6- استخدام أسلوب عزل المنطقة المراد فتحها "أنطاكية" عن المحيط، وتحييد قوى حولها، وإغلاق المنافذ البرية والبحرية بها.

7- استغلال تخبط العدو في قراراته كعامل قوة وسبب قوي من أسباب النصر والتمكين، كما حدث مع بوهيموند عندما حالف المغول، ورضي أن يكون تابعاً له، من أجل محاربة بِيبَرْسُ، حيث استغل بِيبَرْسُ خطأه هذا الذي عَزَله عن الصليبيين ودعمهم في عكا وروما، حيث اعتبروه تحالف مع أعداء المسيحية، وحرموه من الكنيسة اللاتينية.

الخاتمة

بعد البحث والدراسة الجادة في سيرة الظَّاهِر بِيبَرْسُ، وفي أسباب النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهده، فقد توصل الباحث إلى نتائج غاية في الأهمية، وكذلك توصيات على نفس الدرجة في الأهمية وهي:

أولاً: النتائج:

1- المماليك رقيق، يُشتَرون، ويستخدمون لأغراض كثيرة، أهمها إعدادهم كمحاربين للقتال.

2- الدولة المملوكية جاءت بعد الدولة الأيوبية، وورثت كثير من نظمها الإدارية والعسكرية، وأكملت مشروع التحرير بعدهم في القضاء على الوجود الصليبي في المنطقة.

3- كان من أهم أسباب النصر والتمكين لدى الظَّاهِر بِيبَرْسُ اعتماده واستخدامه في إدارته للدولة الرقابة والمحاسبة والمتابعة.

4- اعتمدت الدولة المملوكية في زمن الظاهر بيبرس على الاهتمام وتعظيم شعائر الدّين وإحياء المذهب السني والقضاء على الجماعات الضالة، منهجاً في الحُكم.

5- كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ صاحب رسالة حضارية عظيمة، بتنظيمه الإداري، وحُسن تدبيره السياسي، وتأسيسه البناء الحضاري جعل من دولته عصراً ذهبياً من عصور الإسلام.

6- كان الظَّاهِر بِيبَرْسُ وسياسة دولته المملوكية تقوم على أساس مساندته لإخوانه المسلمين الغرباء، واستخدام الحيلة مع الخارجين عن الدولة، ومسايرتهم والاعتماد على التحالفات في محاربة ولجم الأعداء.

7- اعتمد الظَّاهِر بِيبَرْسُ على العقيدة القتالية الإسلامية في جهاده ضد أعداء الإسلام، وكان يسير في طريق الجهاد بمنهجية مدروسة مكنته من تحقيق انتصارات عظيمة؛ متمثلة بوقف زحف المغول في المشرق الأدنى والقضاء على الوجود الصليبي.

ثانياً: التوصيات:

1- وجوب الاهتمام والدارسة الجيدة والمتأنية لأسباب النصر والتمكين لحقبات وقادة المسلمين في التاريخ الإسلامي من قبل القيادات الطموحة لإعادة الإسلام لمجده التليد.

2- يجب ألا تكون الظروف الصعبة التي تُحيط بالأمة عامل يأس وإحباط، وتذرع لعدم العمل ففترة الدراسة أقرب ما يكون لواقعنا الحاضر، إلا أن الظَّاهِر بِيبَرْسُ تمكن من تثبيت الأمة وتوطيد أركان دولته.

3- جعل الدراسات الخاصة بأسباب النصر والتمكين منهاجاً يُدرس للأجيال وفي مختلف الأكاديميات العسكرية والسياسية.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **المراجع العربية:**

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدّين ابن الأثير، (1997م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
2. أحمد، محمد عبدالعال (1980م)، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدها (628-923هـ/ 1231-1517م)، (د.ط)، الإسكندرية: الهيئة المصرية للكتاب.
3. الإدريسي، محمد بن عبد الله بن ادريس (1409هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، (د.ط)، بيروت، عالم الكتب.
4. الأصبهاني، عماد الدّين محمد بن محمد (1318هـ)، تاريخ آل سلجوق، (د.ط)، مصر، مطبعة الموسوعات.
5. أمين، محمد محمد (1980م)، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ط1، القاهرة، دار النهضة العربية.
6. أنيس، ابراهيم، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحة، محمد خلف الله أحمد (2004م)، المعجم الوسيط، ط4، (د.م)، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية.
7. ابن اياس، زين العابدين محمد ابن أحمد ابن اياس الحنفي الناصري القاهري، (1972م)، (1974م)، (1982م)، (1984م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (ج1/ق1)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ج1/ق2)، دار الناشر فرانز اشتاينرفسبادن، (ج2) دار النشر فرانز اشتاينرفسبادن، (ج3)، (ج4)، (ج5)، (د.ط)، القاهرة نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.
8. ابن أيبك (الصفدي)، صلاح الدّين خليل بن أيبك الصفدي (1983م)، أمراء دمشق في الشام، ط2، بيروت، دار الكتاب الجديد.
9. ابن أيبك (الصفدي)، صلاح الدّين خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي (2000م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث.
10. ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (1971م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أُولْرِخ هارمان، ج8، الناشر: عيسى البابي الحلبي.

11. الأيوبي، ياسين (1995م)، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط1، طرابلس – لبنان: جرّوش برش.
12. الباشا، حسن الباشا (1989م)، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، (د.ط) القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع.
13. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل. (1422هـ.) الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. تحقيق: محمد زهير الناصر. ط(.1د. م): دار طوق النجاة.
14. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن بطوطة أبو عبد الله، (1417هـ)، حلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.
15. البقلي، محمد منديل (1983م)، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى (د.ط)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
16. تركي، عبدالرحمن (1905م)، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، (د.ط)، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.
17. ابن تغري بردي، يوسف بن تعري بردي الأتابكي جمال الدّين أبو المحاسن (1997م)، مورد اللطافة في حسن ولِيَ السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبدالعزيز أحمد، القاهرة، مطبعة الكتب المصرية.
18. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظَّاهِري الحنفي، أبو المحاسن جمال الدّين (د.ت)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (د.ط)، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دار الكتاب.
19. جومار، جومار (1988م)، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل مع مقدمة عن التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ انشائها وهي سنة (1800م)، ط1، القاهرة، مكتبة الخاني.
20. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (1972م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، الهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية.
21. حسن، صفوان طه (2010م)، تاريخ الأيوبين والمماليك، ط1، عمّان: دار الفكر ناشرون وموزعون.
22. حسن، علي إبراهيم (1944م)، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجهٍ خاص، د.ط، مصر، مكتبة النهضة المصرية.

23. حطيط، أحمد (2003)، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري (648-923هـ/1250-1517م)، ط1، بيروت – لبنان: الفرات للنشر والتوزيع.
24. حطيط، أحمد (د.ت)، سلسلة حروب واستراتيجياً "حروب المغول" دراسة في الاستراتيجية العسكرية للمغول من أيام جنكيز خان حتى عهد تيمور لنك، (د.ط)، بيروت: دار الفكر اللبناني.
25. حمزة، عبداللطيف (2016م)، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
26. الحموي، نهاد الدّين أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (1995)م، معجم البلدان، ط2، بيروت، دار صادر.
27. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، (1998م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدّينية.
28. الحنبلي، عبدالمؤمن بن عبدالحق بن شمائل القطيعي (1412هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، بيروت، دار الحيلي.
29. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (2001م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: سهيل زكار، ط.، (د.م)، دار الفكر.
30. ابن خلكان، شمس الدّين أحمد بن إبراهيم (1994م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، دار صادر.
31. خوري، ميخائيل نجم (1961م)، سيرة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ (658-676هـ/1260-1277م)، (.ط)، لبنان.
32. دحلان، أحمد بن زنبي، (1993م)، تاريخ أشراف الحجاز، ط1، الرياض، دار السافي.
33. دهمان، أحمد محمد (2012م)، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، د.ط، القاهرة، دار الفكر العربي.
34. الدوري، عبد العزيز (2009م)، أوراق في التاريخ والحضارة أوراق في التاريخ العربي والإسلامي، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
35. الذهبي، شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (د.ت)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت.

36. الذهبي، شمس الدّين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (1987م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط1، بيروت دار الكتاب العربي.
37. رافع، ساهر (2013م)، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، ط1، جمهورية مصر العربية: الدار العالمية للكتب والنشر.
38. رافع، ساهر (2013م)، قطز (قاهر التتار)، ط1، جمهورية مصر العربية: الدار العالمية للكتب والنشر.
39. رافع، ساهر (2013م)، هولاكو، ط1، جمهورية مصر العربية: الدار العالمية للكتب والنشر.
40. رمضان، عبدالمحسن طه (2010م)، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، عمّان: دار الفكر ناشرون وموزعون.
41. زكار، سهيل، (1995م)، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، (د.ط)، دمشق.
42. زيادة، محمد مصطفى (1949م)، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (د.ط)، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
43. الزبيدي، محمد ابن محمد ابن عبدالرازق الحسيني، (د.ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، (د.ط)، (د.م).
44. الزيدي، مفيد الزيدي، (2009م)، موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي)، دار الكتب العلمية – بيروت.
45. سالم، سحر السيد عبد العزيز (د.ت)، تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، (د.ط)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
46. السبكي، الشيخ الإمام قاضي القضاة تاج الدّين عبدالوهاب السبكي (1948م)، معيد النعم ومبيد النقم، ط1، مصر، دار الكتاب العربي.
47. السخاوي، شمس الدّين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان (د.ت)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (د.ط)، بيروت، دار مكتبة الحياة.
48. سرور، محمد جمال الدّين (1938م)، الظَّاهِر بِيبَرْسُ وحضارة مصر في عصره، (د.ط)، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
49. سليم، محمود رزق (1952م)، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد الرابع، (د.ط)، القاهرة، مكتبة الآداب بالجماميز.

50. السيد، محمود (2001م)، التتار والمغول، (د.ط)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
51. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدّين السيوطي (1967م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر، دار احياء الكتب العربية.
52. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدّين السيوطي (2004م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: مجدي الدمرداش، ط1، د.م، مكتبة نزار مصطفى الباز.
53. ابن شافع، شافع بن على بن عباس الكاتب، (1976م)، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظَّاهِرية، الرياض – مطابع القوات المسلحة.
54. ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر (1974م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، دار صادر.
55. ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدّين، (1996م)، عيون التواريخ، تحقيق: عفيف نايف حاطوم، ط1، دار الثقافة – بيروت.
56. أبي شامة، شهاب الدّين أبي محمد عبدالرحيم بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (1974م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع "المعروف بالذبل على الروضة"، ط2، بيروت، دار المجيد.
57. أبي شامة، شهاب الدّين أبي محمد عبدالرحيم بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (1997)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.
58. شبارو، عصام محمد (1994م)، السلاطين في المشرق العربي – معالم دورهم السياسي والحضاري – المماليك (648–923هـ / 1250–1517م)، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية.
59. شبولر، برتولد (د.ت)، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له: سهيل زكار، (د.ط)،(د.م).
60. ابن شداد، بهاء الدّين (1994م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيطرة صلاح الدّين، تحقيق: جال الدّين الشيالي، د.ط، القاهرة، د.ت.

61. شراب، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، (1411هـ)، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، الدار الشامية – دمشق– بيروت.
62. شلبي، محمود (1992م)، حياة الملك الظَّاهِر بِيبَرْسُ الأسد الأنصاري قاهر التتار ومدمر الصليبيين، ط1، بيروت، دار الجبل.
63. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني (د.ت)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، د.ط، بيروت، دار المعرفة.
64. الصافي، علوي طه، (يناير/1985م)، مجلة الفيصل (ع 94)، المملكة العربية السعودية، الرياض، دار الفيصل الثقافية.
65. الصيّاد، فؤاد عبد المعطي (د.ت)، المغول في التاريخ – الجزء الأول –، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
66. الطباخ، محمد راغب بن محمود هاشم الطباخ الحلبي (1988م)، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهداء، ط2، سوريا – حلب، دار القلم العربي.
67. ابن طباطبا، محمد بن علي بن طباطبا العلوي (1927م)، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، (د.ط)، مصر، المطبعة الرحمانية.
68. الطباع، عثمان مصطفى الطباع الغزي، اتحاف الأعزة في تاريخ غزة، تاريخ غزة منذ العصور القديمة حتى بداية العهد المملوكي (1999م)، تحقيق: عبداللطيف زكي أبو هاشم، فلسطين – غزة، مكتبة اليازجي للنشر والتوزيع.
69. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، (1407هـ)، المعجم الأوسط، ط1، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.
70. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، (1387هـ)، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، ط2، دار التراث – بيروت.
71. الطويل، توفيق (د.ت)، التصوف في مصر ابان العصر العثماني، د.ط، د.م، مكتبة الآداب بالجماميز، مطبعة الاعتماد.
72. عاشور، سعيد عبد الفتاح (2010م)، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط3، القاهرة، دارة النهضة العربية.

73. عاشور، سعيد عبدالفتاح (د. ت)، الظَّاهِر بِيبَرْسُ، (د.ط)، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
74. عاشور، سعيد، (1976م)، العصر المملوكي في مصر والشام، (د.ط)، القاهرة، دار النهضة العربية.
75. العبادي، أحمد مختار العبادي، (1969م)، قيام دولة المماليك الأولى، بيروت، دار النهضة العربية للنشر.
76. ابن عبد الظَّاهِر، محي الدّين عبدالله ابن رشيد الدّين ابن عبد الظَّاهِر ابن نشوان ابن عبد الظَّاهِر السعدي المصري، (1961م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، (ط1)، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة.
77. ابن عبدالظَّاهِر، محي الدّين بن عبد الظَّاهِر(1976)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظَّاهِر، تحقيق، عبدالعزيز الخويطر، ط1، الرياض، عبدالعزيز خويطر.
78. عبدالعزيز، عمر محمد سيد (2010م)، أصول الفقه عند ابن دقيق العبد من خلال كتابه إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، وشرح الإلمام، ط1، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ش.م.م.
79. عبدالمنعم، صبحي (1996م)، المجتمع الحجازي في العصر المملوكي، ط1، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع.
80. ابن العبري، غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون أو (هارون) بن توما الملطي، أبو الفرج، (1992)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: نطون صالحاني اليسوعي، ط3، دار الشرق بيروت.
81. عدوان، أحمد محمد (1998م)، التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك 648–783هـ (1250–1381م)، ط1، الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر.
82. عدوان، أحمد محمد (د.ت)، المماليك وعلاقاتهم الخارجية (648 –783هـ/1250–1381م)، (د.ط)، المملكة العربية السعودية: دار الصحراء السعودية للنشر والتوزيع.
83. ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدّين ابن العديم، (1996م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
84. العريني، السيد الباز، (د.ت)، المماليك، بيروت دار النهضة العربية للنشر.
85. أبو عزّة، عبدالله (د.ت) الإسلام رسالته، حضارته، مستقبله، (د.ط)، بيروت: دار العلم للملايين.

86. العسقلاني، احمد بن إبراهيم (1978) ط1، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب (د. ط)، العراق، وزارة الثقافة والفنون.
87. العسلي، بسام (1981م)، الظَّاهِر بِيبَرْسُ ونهاية الحروب الصليبية القديمة، ط1، بيروت – لبنان: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.
88. العسلي، بسام (2002م)، مشاهير قادة الإسلام (10) المظفر قطز ومعركة عين جالوت، ط8، بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر.
89. عطا الله، محمود علي خليلي (1986م)، نيابة غزة في العهد المملوكي، ط1، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
90. عطوي، علي نجيب (1995م)، الأعلام من الأدباء والشعراء "البوصيري" شاعر المدائح النبوية وعَلمُها، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
91. عطية، حسين محمد (1989م)، امارة أنطاكيه الصليبية (1172 – 1268م – 567 – 666هـ)، 1، الأفاريطة: دار المعرفة الجامعية.
92. علي، محمد كرد (1983م)، خطط الشام، ط2، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
93. ابن العماد، عبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكرمي الحنبلي، أبو الفلاح (1986م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، بيورت، دار ابن كثير.
94. العمايرة، محمد عبدالله سالم (2010م)، الجيش في العصر المملوكي الثاني (3784–3923)، ط1، (د.م): كنوز المعرفة.
95. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (2001م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: حاتم السامرائي، ط1، القاهرة، دار الأوقاف العربية.
96. ابن العميد، المكين جرجس بن العميد (د.ت)، أخبار الأيوبيين، (د.ط) مصر، مكتبة الثقافة الدينية.
97. العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدّين العينى، (د.ت)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمود رزق محمود ود. محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة .
98. غوانمة، يوسف درويش (1982م)، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر الهلوكي، ط2، عمّان: دار الفكر للنشر والتوزيع.

99. ابن الغوطي، كمال الدّين بن عبدالرازق بن أحمد المعروف بابن الغوطي (د.ت)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، د.ط، د.م، الشاملة.
100. الفاسي، تقي الدّين محمد بن أحمد الحسني الفاسى المكي، (1998م)، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
101. أبو الفداء، عماد الدّين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه (د.ت)، المختصر في أخيار البشر، ط1، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية.
102. ابن الفرات، ناصر الدّين محمد عبدالرحيم بن الفرات (1961م)، تاريخ الفرات المجلد السادس الجزء الأول، تحقيق: قسطنطين زريق، (د.ط)، بيروت، المطبعة الْأَمِيرُكانية.
103. فراج، سمير "ابن الشاطئ"(2006)، الدولة الإخشيدية، (د.ط)، القاهرة – مركز الراية للنشر والإعلام.
104. فراج، سمير (2007م)، دولة المماليك، ط1، القاهرة: مركز الراية للنشر والإعلام.
105. فرغلي، إبراهيم (د.ت)، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، (د.ط)، القاهرة: العبي للنشر والتوزيع.
106. الفرقاني، أبو العباس أحمد حلبي الدمشقي الفرقاني (1972م)، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: محمد أمين، (د.ط)، بغداد (د.ن).
107. ابن أبي الفضائل، ابن العسال (2017م)، النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق: محمد كمال الدّين عز الدّين علي السيد، ط1، سوريا، دار سعد الدّين للطابعة والنشر والتوزيع.
108. ابن فضل، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدّين، (1423هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
109. الفقي، محمد كامل (1976)، الأدب في العصر المملوكي، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
110. فهمي، نعيم زكي(1973م)، طريق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، د.ط، القاهرة، النهضة المصرية العامة للكتاب.
111. فوزي، فاروق عمر، حسين، محسن محمد (1999م)، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط (13هـ/634م –923هـ/1517م)، (د.ط)، (د.م): دار الشروق.

112. الفيروز أبادي، مجد الدّين أبو طاهر محمد (2005م) القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، بيروت، مؤسسة الرسالة.
113. قاسم، قاسم عبده (1998م)، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، الهرم: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
114. القفطي، جمال الدّين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي، (2005م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
115. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الغزاري القلقشندي ثم القاهري، (د.ت)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.
116. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (2003م) البداية والنهاية، ط1، اد.م1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
117. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (1419هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدّين، ط1، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت.
118. كرد علي، محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كرد علي (1983م)، خطط الشام، ط3، دمشق، مكتبة النوري.
119. لابيدوس، إيرما رفين (1985م)، مدن الشام في العصر المملوكي، ترجم: سهيل زكار، ط1، دمشق: دار الإحسان للطباعة والنشر.
120. ماجد، عبدالمنعم (1967م)، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (دراسة شاملة لنظم السياسية) ج2، ط 2، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
121. ماجد، عبدالمنعم (2011م)، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط1، عمان: دار الفكر ناشرون.
122. ماجد، عبدالمنعم محمد (2010م)، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الإنجلوا المصرية.
123. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (د.ت)، الأحكام السلطانية، (د.ط)، القاهرة، دار الحديث.
124. مبارك، علي باشا (د.ت) الخطط التوقيفية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها، ط1، د.م، مطبعة بولاف.

125. محمد، سعيد مغاوري (2010م)، صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي "أضواء على آثار وحضارة مصر في العصر الإسلامي (الجزء الأول) من الفتح الإسلامي حتى نهاية عهد الدولة الأيوبية، ط1، القاهرة: دار العالم العربي.
126. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، (1991م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، 1411/ 1991.
127. المقريزي، احمد بن علي بن المقريزي (1957م) السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
128. المقريزي، أحمد بن علي بن عبدالقادر أبو العباس الحسيني تقي الدّين المقريزي، (1997)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
129. المقريزي، تقي الدّين أحمد بن علي المقريزي (2000م)، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدّين الشيال، ط1، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدّينية.
130. المكي، محمد طاهر الكردي المكي، (2000م)، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، (ط1)، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة، بيروت، دار خضر للطباعة.
131. الملغوث، سامي بن عبدالله بن أحمد (2013م)، أطلس تاريخ العصر المملوكي، ط1، الرياض، العبيكان للنشر.
132. منصور، حسن عبد الرازق منصور، (2013م)، المجتمع العربي بين التاريخ والواقع، ط1، دار أمواج للنشر والتوزيع عمان.
133. المنصوري، ركن الدّين بِيبَرْسُ بن عبدالله، نائب السلطنة في مصر، (1998م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من (648-711هـ)، (د.ط)، (د.م)، الدار المصرية اللبنانية للطابعة والنشر.
134. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري (1996)، لسان العرب، ط6، بيروت، دار صادر.
135. مؤنس، حسين (1987م)، أطلس تاريخ الإسلام، ط1، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.
136. أبو النصر، محمد عبد العظيم (2001م)، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط1، مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
137. النعيمي، عبد القادر محمد (1998)، الدارس في تاريخ المدارس، مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق.

138. النقر، محمد حافظ (2017م)، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ط1، (د.م): دار البداية ناشرون وموزعون.

139. النويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب (2004م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وآخرون، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية للنشر.

140. الهمداني، رشيد الدّين فضل الله (1998م)، جامع التواريخ، تحقيق: فؤاد عبد المعطي الصياد، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).

141. ابن واصل، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدّين، (1957م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: الدكتور جمال الدّين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الْأَمِيرِية، القاهرة – مصر.

142. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي، (1997م)، فتوح الشام، ط1، دار الكتب العلمية.

143. ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر (1996م)، تاريخ ابن الوردي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

144. اليافعي، أبو محمد عفيف الدّين عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (1997م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

145. ياقوت الحموي، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (1995م)، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت.

146. يحيى بن الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (1968م)، غاية الأماني في القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، د.ط، القاهرة، دار الكتاب العربي.

147. يوسف، نبيل علي (2003م)، أشغال المعادن ذات النمط الثابت في أهم آثار القاهرة الإسلامية، ط1، المهندسين: عربية للطباعة والنشر.

148. يوسف، جوزيف نسيم يوسف، (1981م)، العدوان الصليبي على مصر، ط1، بيروت، دار النهضة العربية.

149. اليونيني، قطب الدّين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (1992م)، ذيل مرآة الزمان، ط2، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

الملاحق

ملحق رقم (1)

خطاب هولاكو إلى السلطان قطز قبيل موقعة عين جالوت (1260/658م) (1)

"من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم.

باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائل أمرائه وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من أعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، دعاؤكم علينا لا يسمع. فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفّون عن الكلام، وخنتم العهود والإيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم منا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أنّا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المبدرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم نار الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون مناجاها ولا عزا، ولا كافياً ولا حرزاً، وتُدْهَونَ منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاون(2) قد أتى ... بحـد سيوف تنتضي وبواتـر

يصير أعـز القـوم منهـا أذلـة ... ويلحـق أطفـالاً لهم بالأكابر.

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج1، صـ 427–429.

(2) صيغة لاسم هولاكو.

ملحق رقم (2)

كتاب البشارة بهزيمة المغول في عين جالوت (1260/658) [1]

هذه نسخة كتاب الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن المنصور، بالبشارة بهزيمة المغول. وهي من إنشاء القاضي محيي الدّين بن عبد الله الظَّاهِر، وجاء فيها:-

"أعز الله تعالى أنصار المعز الشريف العالي، المولوي، السلطان، الملكي المنصور، وأعلا مناره، وضاعف اقتداره، نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب، فتح الله بنصره المسلمين على أعداء الدّين.

أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار خذلهم الله، استطالوا على الأيام، وخاضعوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام:

سعى الطمع المردى بهم لحتوفهم ونم يمسكن ذيل المطامع يعطب

فأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك آمال خائبة، ومراكب للظنون عاطبه... وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن.

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس، إلى أن تراءت العين بالعين، وأضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شِلْواً، واقتضت آساد السلمين المشركين اقتناصاً، ورأى المجرمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مناصاً، فلا روضة إلا درع، ولا جدول إلا حسام، ولا غمامة إلا نقع، ولا وابل إلا سهام، وملا مدام إلا دماء، ولا نغم إلام صهيل، ولا معربد إلا قاتل، ولا سكران إلا قتيل، حتى صار كافور الدّين شقيقاً، وتلون الحصباء من الدماء عقيقاً، وضرب النقع في السماء طريقاً، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾.[2]

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى (ج7/ ص360-362).

(2) سورة فصلت (آية: 46).

ملحق رقم (3)

هدنة الظَّاهِر بِيبَرْسُ مع ايزابيلا صاحبة بيروت (667هـ/1269م) [(1)]

"استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظَّاهِر ركن الدّين بِيبَرْسُ، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظَّم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن العزيز. والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظَّاهِرية بمقتضى الهدنة الظَّاهِرية. وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها، من حد بلاد جبيل شمالاً، إلى حد صيدا جنوباً وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعزب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والرواق بحدودها وسن الفيل بحدودها والرح والشويف بحدودها وأنطلياس بحدودها والجديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبُشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وخَلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفقيه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها، والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان بِيبَرْسُ وهي:

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة الشقيفية وما هو يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة الحلبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة الكركية والشوبكية وما هو مختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه، يكون

(1) القلقشندي: صبح الأعشى (ج 14/ صـ 39-42).

داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها، بحراً وبراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين. وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى، ردت أن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة. وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلّف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلّف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعى عليه عن اليمين، حلّف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً، كان على القاتل في جهته العوض عن نظيره، فارس بفارس، وراجل براجل، وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال، ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن صدر فرنجي من بيروت إلى بلاد السلطان، يكون داخلاً في الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقضها مرور الزمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد الجانبين.

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقرة، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق في التاريخ كذا.

ملحق رقم (4)

رسالة الظَّاهِر بِيبَرْسُ إلى بوهيموند السادس يبشره بها بفتح أنطاكية [1]

"قد علم القومص الجليل [المبجل المعزز الهمام، الأسد الضرغام، بوهيموند فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية بيمند المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية [منه] من البرنسية إلى القومصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده.

ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قتلت الرجال، واستخدمت الأولاد، وتملكت الحرائر، وكيف قطعت الأشجار، ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق [إن شاء الله] والستائر، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي".

"هذا وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا:

على هذا الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود؟، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود. وكيف فارقنا بلادك؟، وما بقيت ماشية إلا وهى لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهى في ملكنا جارية، ولا سارية إلا وهى في أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، ولا منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارقة. وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر.

وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك؟، وأن بعدنا فسنعود على الأثر. وها نحن نبلغك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عم"

" كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان. وفى حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكسروا، وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كندا اسطبل، فسأل مراجعة أصحابك. فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك في إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وأن رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت رددناهم وقلنا: " نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر "

---

(1) ابن عبد الظَّاهِر، الروض الزاهر (ص309–313).

فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مر شأن المرشان، وداخل الرهب الرهبان، ولان للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان".

"وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من أخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شئ من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شئ منهم ومنها. فلو رأيت خيّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول، والكسّابة فيها تجول، وأموالك وهى توزن بالقنطار، وداماتك وكل أربع منهن تباع، فتشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة قد بعثرت. ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمدبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء الملوك وقد دخلوا في المملكة. ولو شاهدت النيران وهى في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان قد زلَّت كل منها وزالت، لكنت تقول: " يا ليتني كنت ترابا، ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا "، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفى تلك النيران بماء عبرتك. ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك، فصارت سوانيك من من شوانيك، لتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها، ومن الأرض أقتلعها. ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام وهو: دير كوش، وشقيف تلميس، وشقيف كفر دنين، وجميع ما كان من بلاد أنطاكية، واستنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصى، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما سمى بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندما، وكان يذرفها عبرة صافية، فهو أجراها بما سفكناه فيه دما".

" وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، بكونك لم تكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا، وإما أسيرا، وإما جريحا، وإما كسيرا. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبّرناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك، لتتحقق الأمر على ما جرى. وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبرا، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً".

ملحق رقم (5)

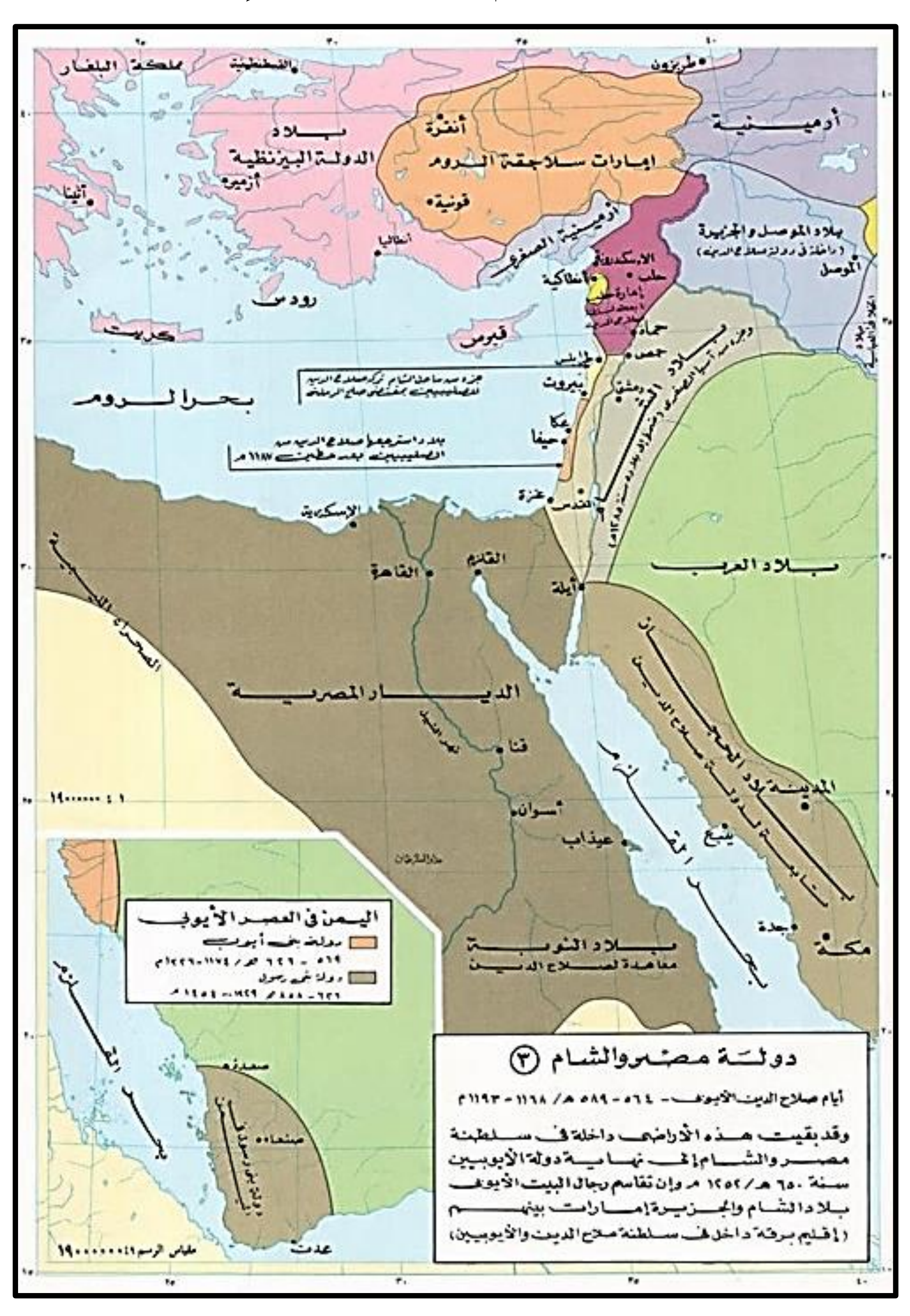
خريطة الامارات الصليبية والقلاع قبل سلطنة الظَّاهِر بِيبَرْسُ زمن الأيوبيين [1]



(1) مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، (ص263).

ملحق رقم (6)

دولة مصر والشام بداية سلطنة الظَّاهِر بِيبَرْسُ [1]



---

(1) مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، (ص304).

ملحق رقم (7)

دولة مصر والشام نهاية سلطنة الظَّاهِر إلى عصر الأشرف قلاوون [1]

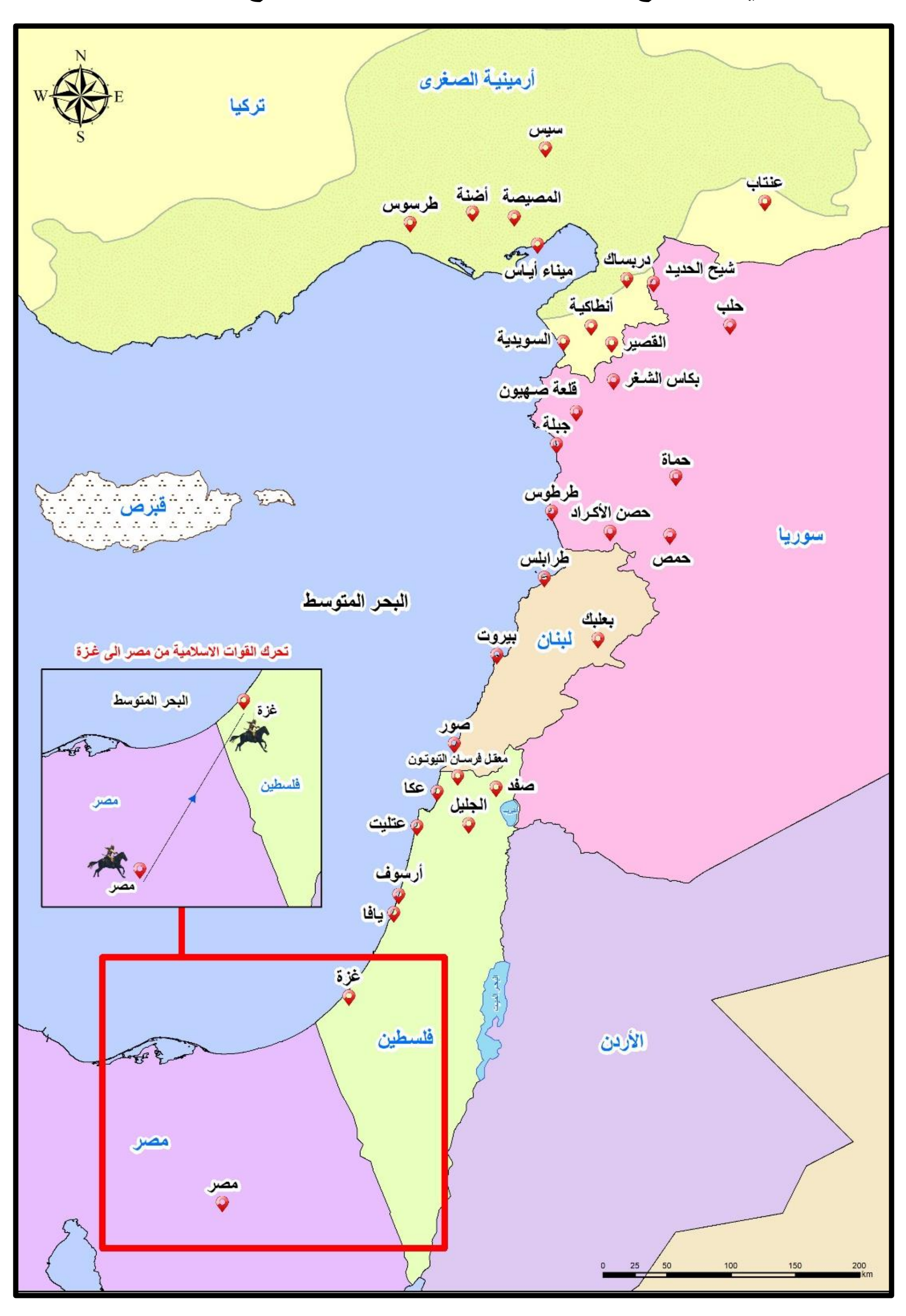


---

(1) مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، (ص305).

ملحق رقم (8)

خريطة توضح بداية تحرك الجيوش من مصر لفتح أنطاكية [1]

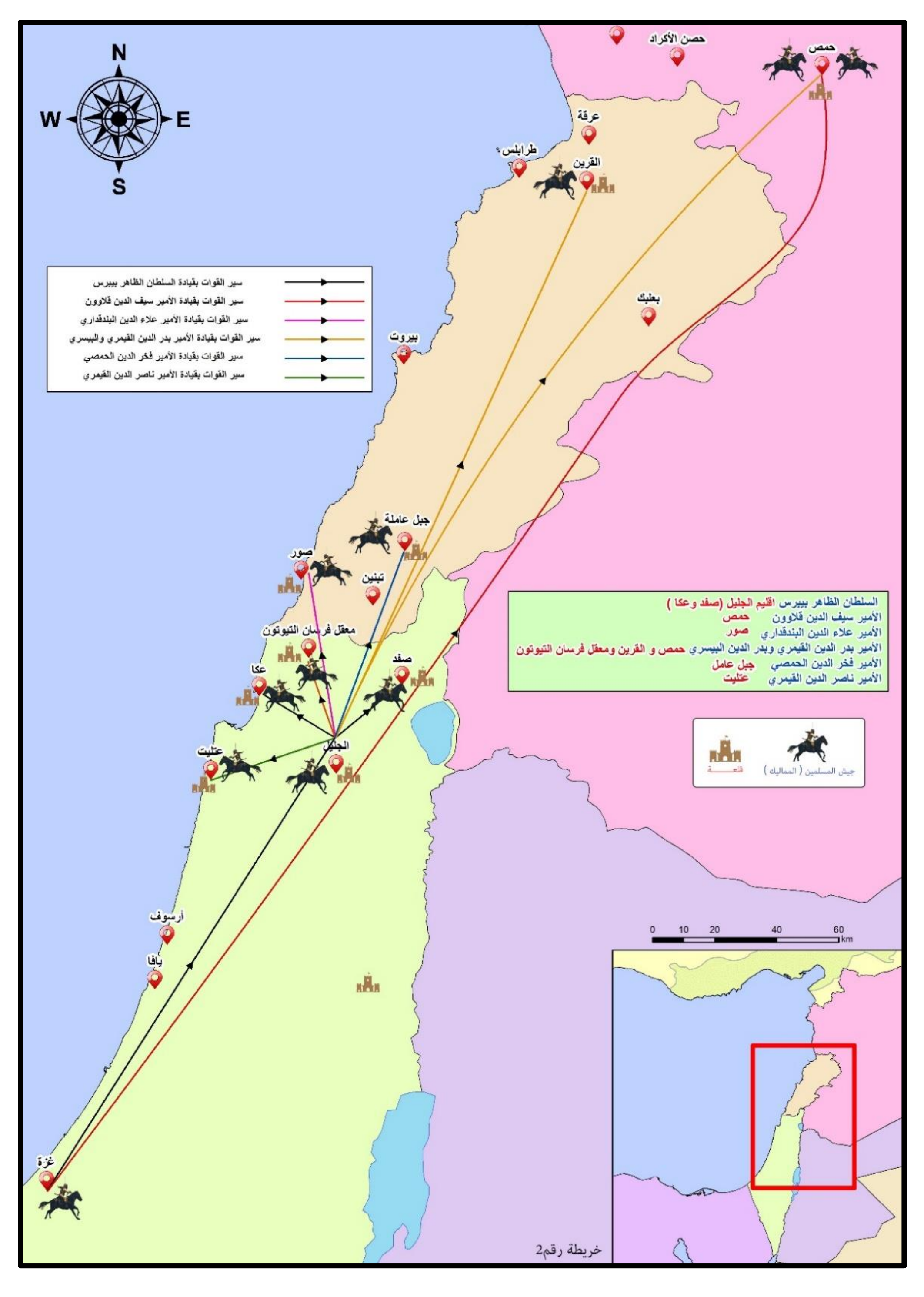


---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (9)

خريطة توضيحية لانتشار جيوش السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ للتمويه والتمهيد لفتح أنطاكية[1]

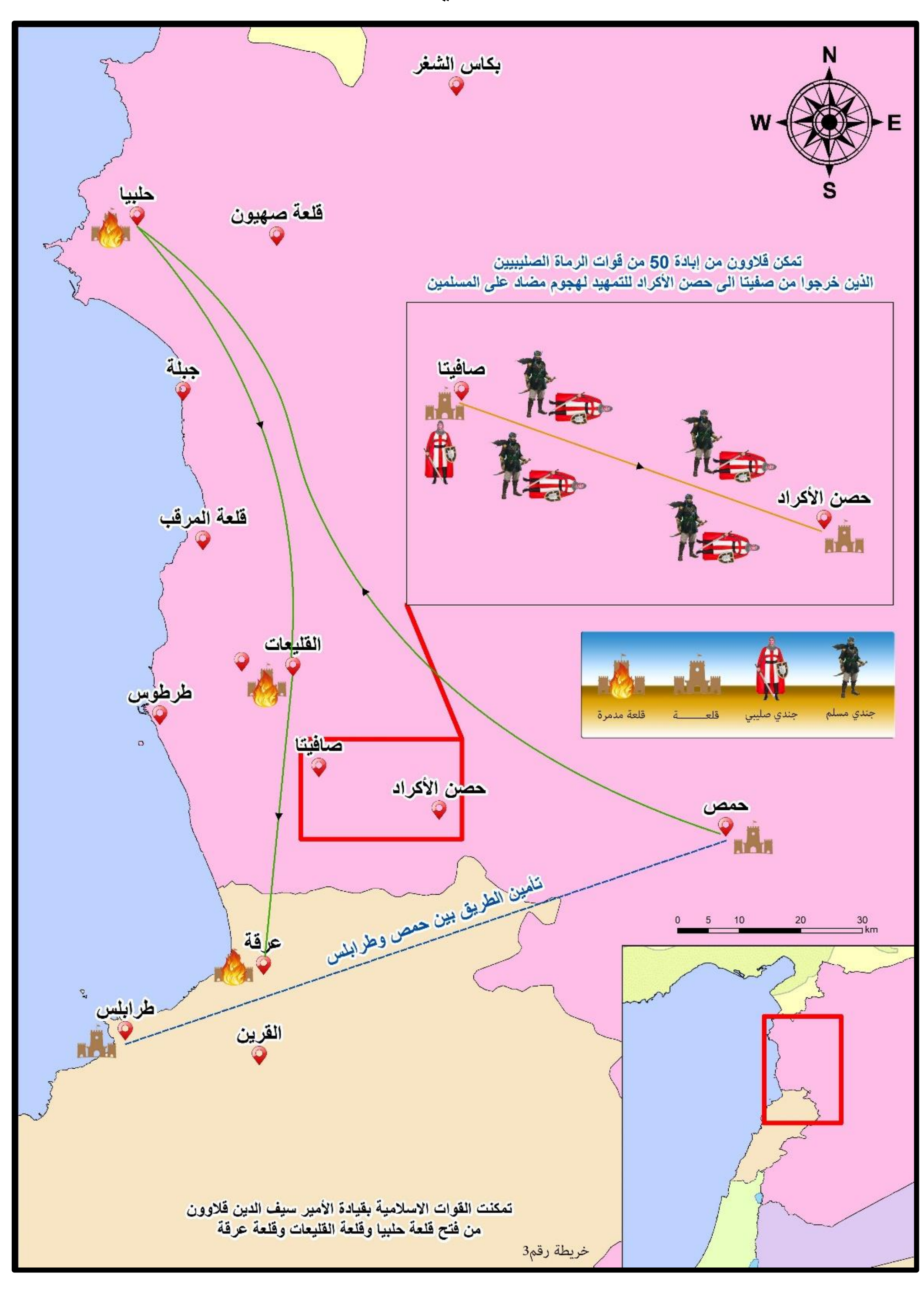


---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (10)

خريطة توضيحية لهجوم قلاوون على ضواحي طرابلس لتأمين الطريق لفتح أنطاكية [1]

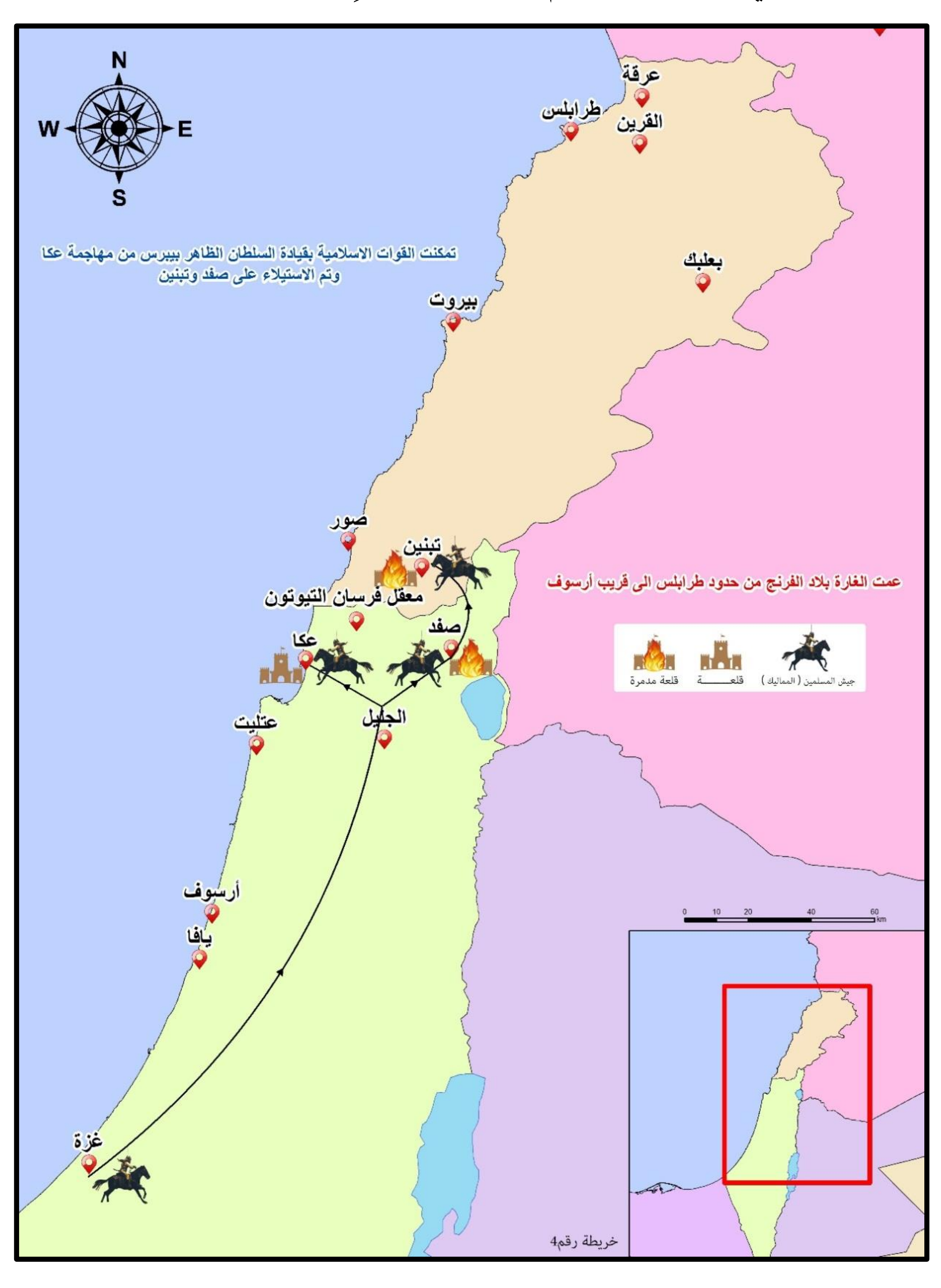


---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (11)

خريطة توضيحية لهجوم السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ على عكا [1]

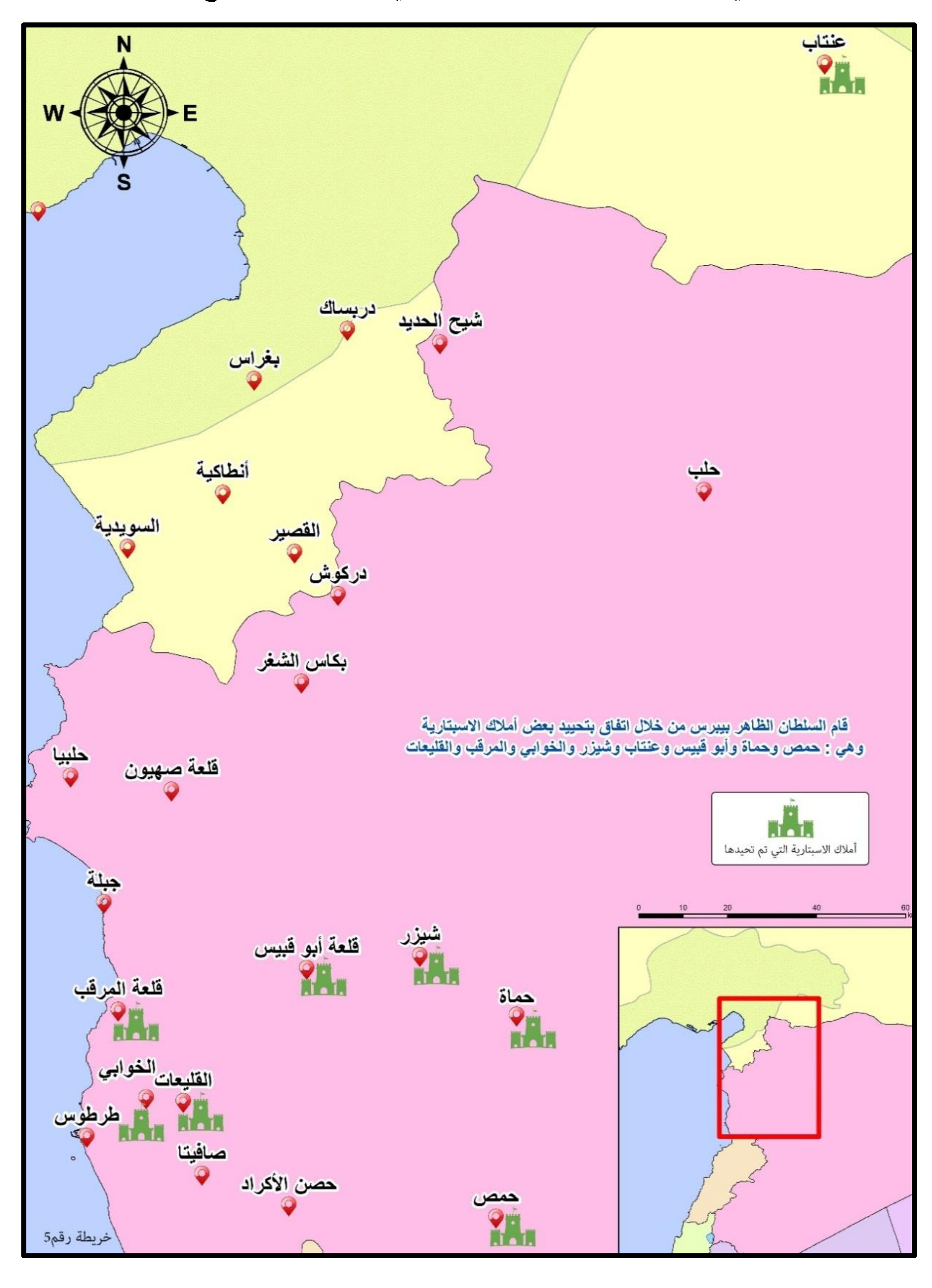


---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (12)

خريطة توضيحية لتحييد قوة الإسبتارية من خلال الصلح [1]

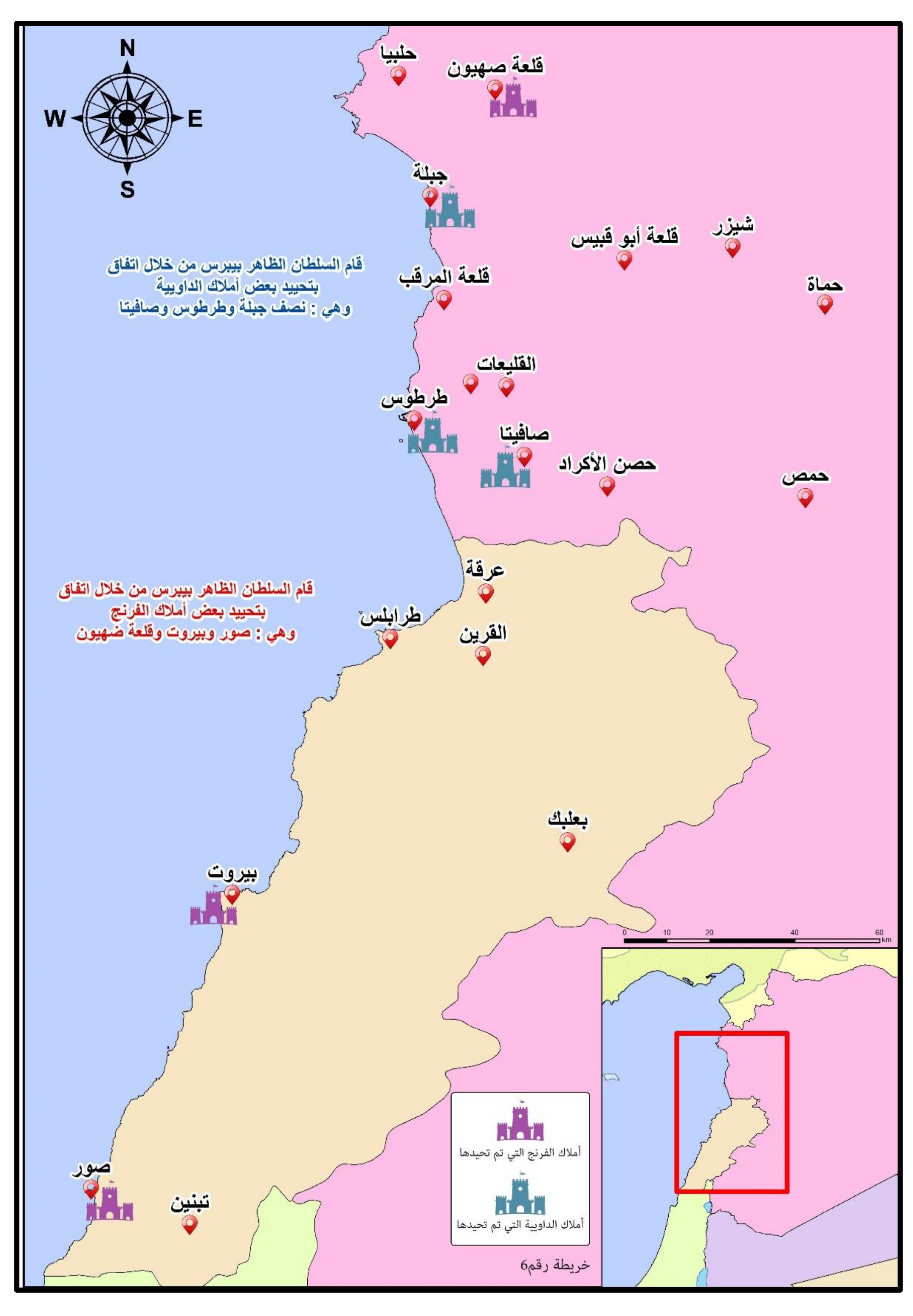


---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (13)

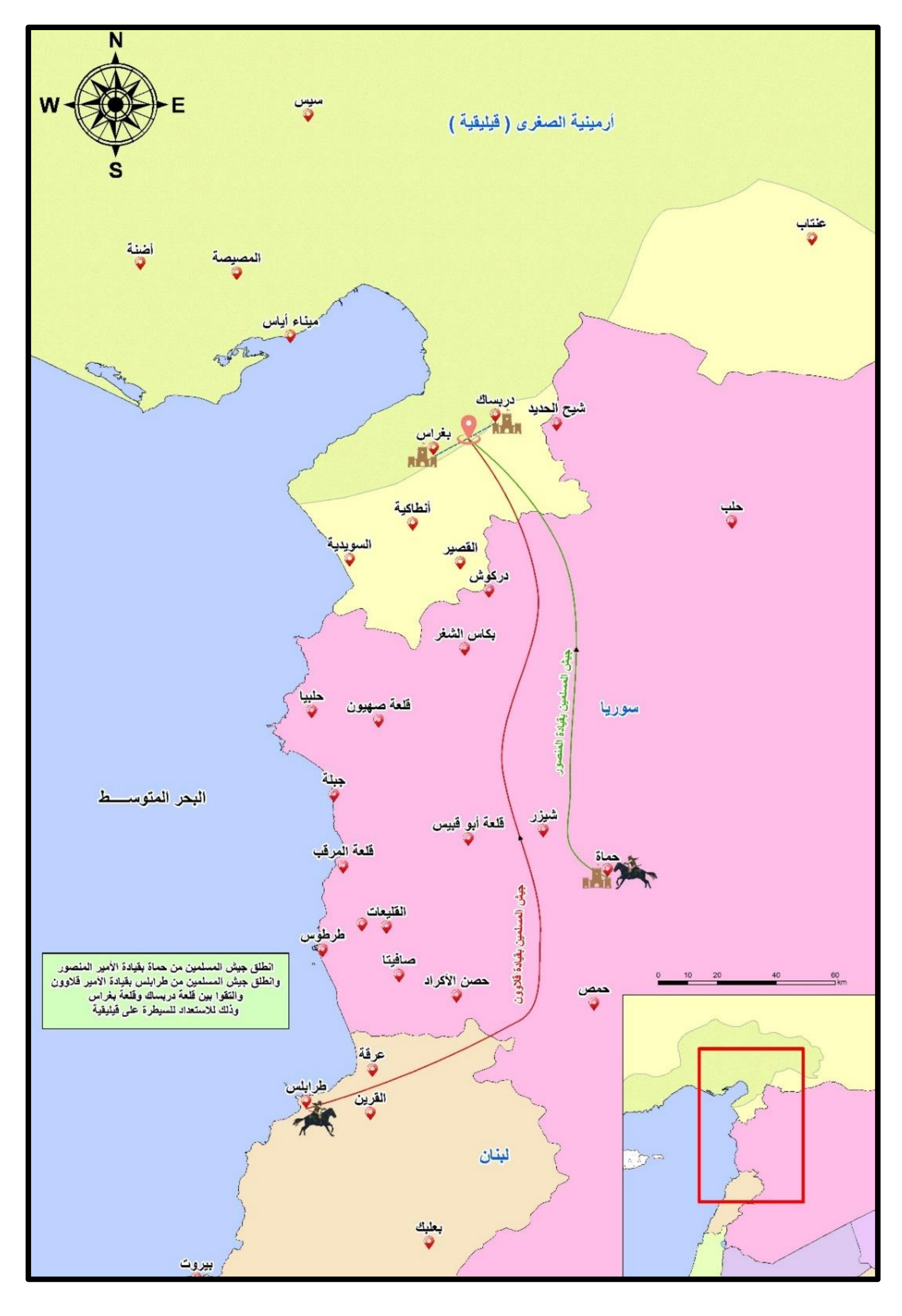
خريطة توضيحية لتحييد قوة الداوية والفرنج من خلال الفرنج [1]



(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (14)

خريطة توضيحية لتحرك قوات السلطان الظَّاهِر بِيبَرْسُ وتحشدها تمهيداً للهجوم على أرمينا الصغرى [1]

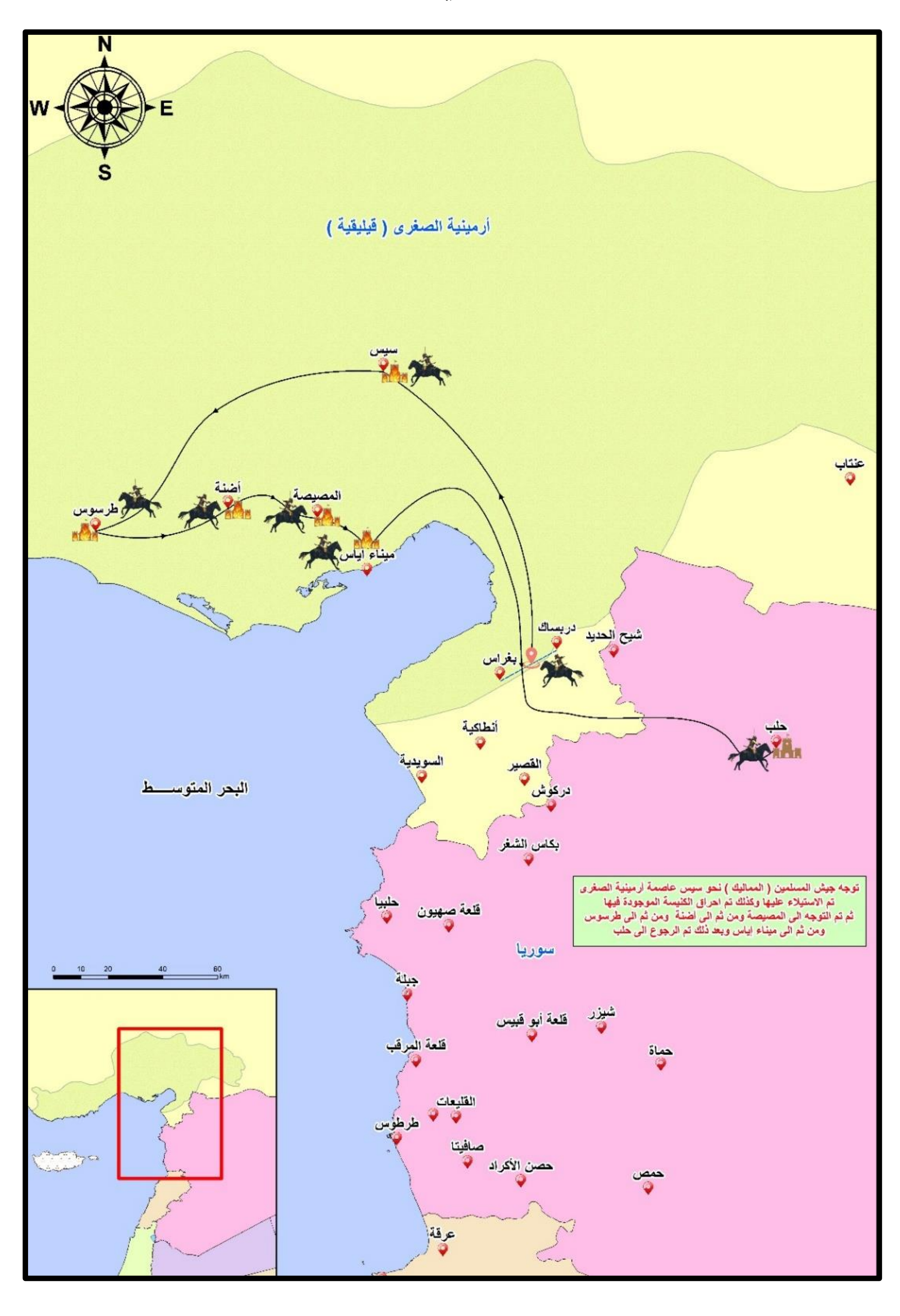


---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (15)

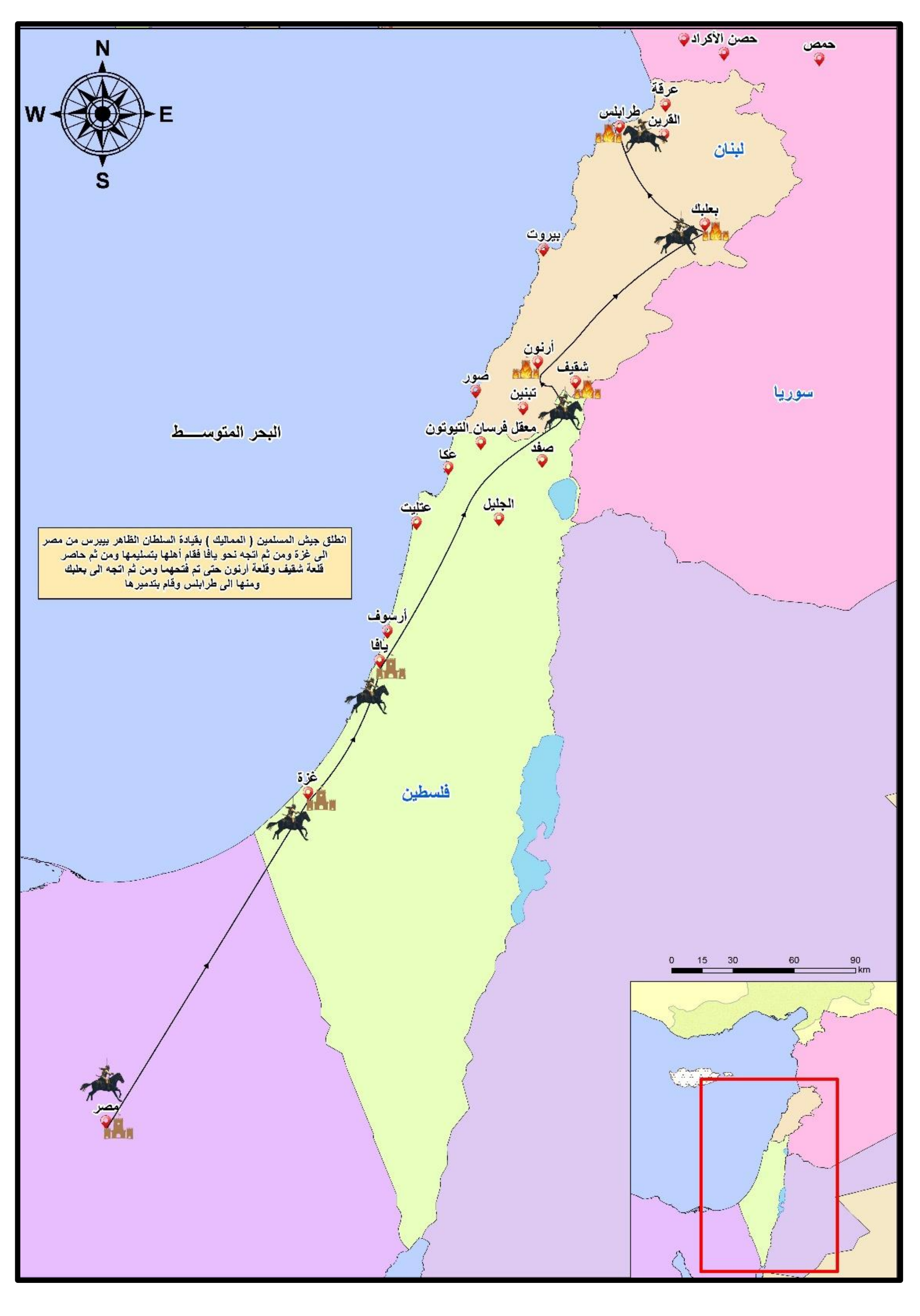
خريطة توضيحية لتدمير أرمينا الصغرى ثم الانسحاب إلى حلب والتحشد تمهيداً لفتح أنطاكية [1]



(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (16)

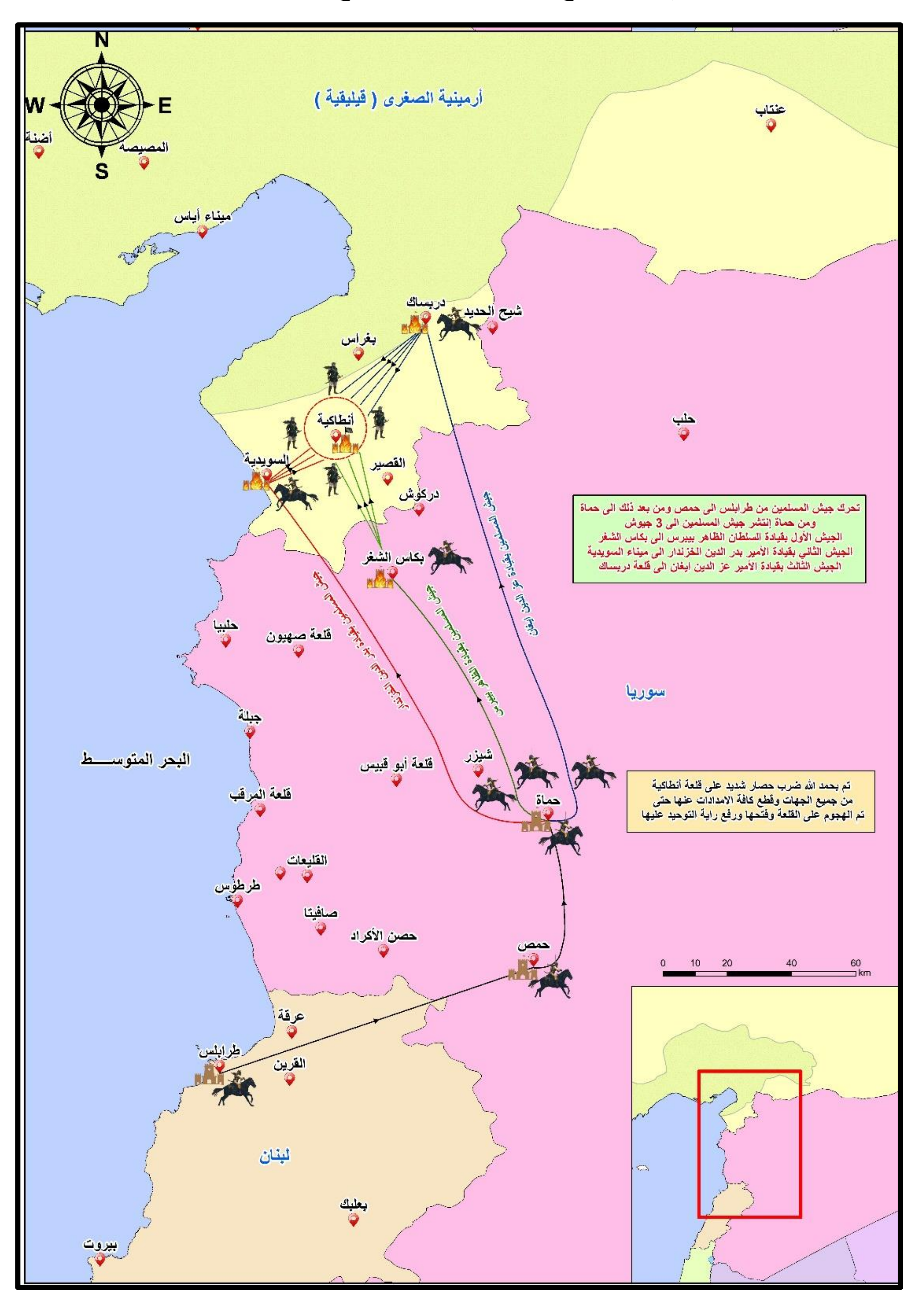
خريطة توضيحية لمرحلة عزل مدينة أنطاكية من خلال عدة عمليات عسكرية قام بها جيش الظَّاهِر بِيبَرْسُ [1]



(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

ملحق رقم (17)

خريطة توضح المرحلة النهائية لفتح أنطاكية [1]



---

(1) الخريطة من إعداد وتصميم الباحث.

تَمَّ بِحَمْدِ اللّٰهِ